# ليف تولستوي

# في العلم والأخلاق والسياسة

ترجمة: يوسف نبيل

# في
# العلم والأخلاق والسياسة

## ليف تولستوي

◆ المؤلف: ليف تولستوي
◆ العنوان: في العلم والأخلاق والسياسة
◆ ترجمة: يوسف نبيل
◆ طبعة آفاق الأولى 2019
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

**رقم الإيداع:**
**٢٠١٠٧ / ٢٠١٨**
**الترقيم الدولي :** ISBN
978 - 977-765 - 186 - 8

**جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.**

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

**Afaq Bookshop & Publishing House**

**1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb**
**CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787**
**E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com**

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

ليف تولستوي

# في
# العلم والأخلاق والسياسة

-مختارات من مقالات ورسائل تولستوي-

اختارها وترجمها عن الروسية

يوسف نبيل

آفاق للنشر والتوزيع

**بطاقة الفهرسة**

**إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية**

**إدارة الشؤون الفنية**

**تولستوي، ليف.**

**في العلم والأخلاق والسياسة - ترجمة: يوسف نبيل**

**ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2019**

**224 ص، 21 سم.**

**رقم الإيداع 20107 / 2018**

**الترقيم الدولي 978 - 977 - 765 - 186 - 8**

**1 - الأدباء**

**2 - تولستوي، ليف.**

# المحتويات


| | |
|---|---|
| مقدمة المترجم | ٧ |
| الوطنية والدولة | ١٣ |
| يا للعار! | ٤٧ |
| فلسفة اللا فعل | ٥٩ |
| لماذا يُخدِّر النَّاسُ أنفسَهم؟ | ١٠٩ |
| خطاب إلى صيني | ١٣٩ |
| المعلم اليوناني سقراط | ١٥٧ |

# مقدمة المترجم

من عادة كبار رجال الأدب والفكر أن يسيروا عكس التيار السائد، وأن يعيدوا طرح ما يظنه الناس أمرًا بديهيًّا، وأن يتساءلوا حول جدواه وقيمته ومعناه، لذلك ليس من الغريب أن يتساءل تولستوي حول معنى وقيمة العلم في العصر الذي شهد انبهارًا شديدًا بالعلوم الحديثة التي نشأت وبدأت تجني الصناعةُ ثمارها بصورة واضحة، وكذلك يتساءل حول معنى الوطنية وجدواها وخيريتها في عصر شهد ذيوع القوميات واشتداد أثرها.

يبدو أنه بداية من هذه الفترة التاريخية لم يكف الأمر عن الإسراع من وتيرته، فازداد تعظيم العلم في ذاته، وظهر بالإضافة إلى العلماء مؤرخو العلوم وفلاسفتها، وقرأنا في الشرق لبرتراند راسل وكارل بوبر يحدثوننا عن المنهج العلمي وقيمة التفكير العلمي، وفي الوقت ذاته لم تكفَّ عاطفة الوطنية عن عملها المكثف، وحتى بعد اندلاع حربين عالميتين لا نزال نسمع

خطابات على الطراز القديم تستثير عاطفة الوطنية في صدور المستمعين.

لم يكن تولستوي أوَّل -ولا آخر- مفكر يحاول مناقشة عاطفة الوطنية، فمنذ صدور قاموس فولتير الفلسفي بدأنا نقرأ تلك الآراء، حيث لاحظ فولتير أن هذا النمط من الشعور، وهذه الطريقة من التفكير تجعل مصالح أمة أو وطن ما مرتبطة بالإضرار بمصالح وطن آخر. بدأ إذن الفلاسفة الإنسانيون يحذرون من تلك العاطفة من منطلق إنساني بحت، بينما حاول تولستوي مناقشة الأمر من منطلق ديني بالإضافة إلى الفكر الإنساني العام والمشترك، والحقيقة أن فكر تولستوي الديني هو فكر شديد العمومية والاتساع بحيث لا يندرج تحت ديانة معينة بعينها، بل هو يتحدث من المنطلق الديني الإنساني العام إلى حد كبير، وإن كان يرتكز على الشريعة المسيحية الأخلاقية بشكل واضح.

امتدت فترة من تاريخ الغرب بدأ فيها رفض الخرافات الدينية البالية، واعتقد كثيرون أن العلم يمكن أن يصبح هو المخلِّص والمهرب من هذه الورطة، فاستبدلوا إطار الدين بإطار العلم، وحتى لدى أكثر الفلاسفة تمسكًا بالمنهج العلمي الذي يقتضي إعادة الفحص والمناقشة يمكننا أن نتشمم رائحة دينية عند حديثهم عن العلم... إنه الحل الوحيد والرئيس لكافة المشكلات الإنسانية.

الحقيقة أن الفحص المتمهل للأمر يمكنه أن يلقي الضوء

على آراء قد تبدو لكثيرين شديدة الرجعية، وهي التهمة التي اتُّهِم بها تولستوي حين تحدث بلهجة شديدة العداء للحضارة والعلم والتكنولوجيا. لقد قدَّم العلم فعلًا حلولًا لكثير من المشكلات، لكنه تسبب أيضًا في كثير من المشكلات؛ فالتقنية والتكنولوجيا في حد ذاتهما لا يمنحان الإنسان طريقة واحدة لتطبيق نتاج معرفته العلمية.

لقد قدَّمت بالفعل التكنولوجيا الحديثة حلولًا لكثير من المشكلات التي بدت عند ظهورها مستعصية على الحل، وقد لاحظ بعض العلماء والمفكرين من أمثال جاك فريسكو وحركة زايتجايست (روح العصر) أن الإنسانية قد توصلت بالفعل منذ السبعينيات تقريبًا إلى تطور تكنولوجي يسمح لها بحل كافة المشكلات الرئيسة التي تهدد وجودها، سواء كانت متعلقة بالزراعة أو الصناعة أو البيئة أو ما شابه، وشرح جاك فريسكو في كثير من المحاضرات والفيديوهات المصورة والكتابات الحلول الواضحة لحل كثير من هذه المشاكل، ورغم ذلك لدينا ملايين البشر يموتون جوعًا كل عام، ولدينا بلاد تعاني الآن من الأوبئة القديمة كاليمن الشقيقة مثلًا، ولا تزال كثير من البلدان الإفريقية والعربية ممزقة شر تمزيق.

يمكن لنا أن نلاحظ المزيد إن تأملنا في الحركة العلمية الدائرة الآن، وكيف سيطر رأس المال بشكل يكاد يقترب من الكمال عليها واحتواها لتخدم أغراضه. حتى أعرق وأقدم

الجامعات تنفق على بحوث طلابها وأستاذتها العلمية من تمويلات شركات خاصة ومؤسسات عسكرية، والبحوث النظرية أصبحت تخضع جميعًا لهذه التمويلات بحيث تستخدم تطبيقاتها من قبل الممول ولخدمة أهدافه الخاصة. صحيح أننا بين الحين والآخر نكتشف أدوية تقضي على بعض الأمراض، لكن إساءة استخدام التكنولوجيا خلقت بدورها أمراضًا أكثر. كان في إمكان البشرية أن تتحول منذ عدة عقود للاعتماد على الطاقات المتجددة كما أوضح كثير من العلماء، لكن مصالح الشركات العملاقة التي تتفوق في ميزانياتها على كثير من الدول حالت دون تنفيذ ذلك بصورة شاملة.

اكتشف تولستوي ذلك منذ فترة طويلة، وشعر بالنفور الشديد من هذا الولع بالعلم، كما شعر بالتقزز من عاطفة الوطنية التي قال عنها الكاتب الإنجليزي صموئيل جونسون: إنها الملاذ الأخير للأوغاد، وحاول تفكيك هذا المفهوم في ضوء أُخوَّة البشر والعاطفة الدينية المستعرة داخل أرواحهم، وفي ضوء نتائجها السياسية والإنسانية، ليعيد بناء مفهوم آخر بديل.

ينظر الكثيرون بعين الريبة إلى الأفكار السياسية المؤسسة على مبادئ دينية، وسرعان ما يتم ربطها بالدوجما والتعصب، ولكن ماذا إذا كانت هذه الأفكار في الأساس تدعو إلى أخوة البشر ونبذ العنف؟ وكيف يمكن ترجمة فكر ديني ينبذ العنف إلى حركة سياسية منظمة؟

رأينا بعض الحركات السياسية المؤسسة على منهج ديني متمثلة في حركة (غاندي)، وفي بعض مظاهر لاهوت التحرير بأمريكا اللاتينية، والحقيقة أنها تجارب تستحق الدراسة والعناية، دون قبول أو رفض غير مشروطين. هذا ما توفره هذه الباقة المختارة التي تضم بعض الرسائل والمقالات لتولستوي، يعرض فيها لآرائه السياسية وآرائه في العلم، وكذلك آرائه الأخلاقية، وتضم أيضًا نصًّا أدبيًّا قد يعتبره البعض نوفيلا، وآخرون قد يعتبرونه نوعًا من المقالة، وهو نص أدبي بعنوان: «المعلم اليوناني سقراط». المثير في هذا النص أنه تجربة كتابة مشتركة بين تولستوي وامرأة تُدعى إلكسندرا ميخايلوفنا كالميكوفا، كانت قد أرسلت له هذا النص فأبدى اهتمامًا كبيرًا به وأجرى عليه تعديلات ضخمة وكتب أحد فصوله.

إنها باقة مختارة بعناية أرجو أن تكون شديد الإمتاع والفائدة.

❊ ❊ ❊

# الوطنية والدولة

-١-

أفصحتُ أكثر من مرةٍ سابقًا عن رأيي فيما يخص الوطنية، وكيف أنها قد أصبحت في زماننا هذا شعورًا ضارًّا غير طبيعي ولا عقلاني، يلعب دورًا كبيرًا في التسبب في هذه الكوارث التي تُعاني منها الإنسانية، ولذلك لا يجب علينا أن نربي هذا الشعور بداخلنا كما يحدث الآن، بل على نقيض من ذلك؛ علينا أن نقمعه ونقضي عليه بكل الطرق المتاحة لنا نحن البشر العاقلين. ولكن العجيب في الأمر هو أنه بالرغم من أن الوطنية هي السبب الحقيقي بلا شكٍّ في تسلح الشعوب وفي اندلاع هذه الحروب المهلكة، إلا أن كل حُججي عن أنه شعور معيب ولا يصلح للواقع المعاصر قُوبلت –ولا تزال حتى هذه اللحظة– إما بالصمت وإما بإساءة الفهم المتعمد، وبهذا الاعتراض الغريب، يقولون: «يأتي الضرر فقط من الوطنية الزائفة، من الشوفينية، أما الوطنية الحالية الحسنة فهي شعور أخلاقي رفيع، وإدانتها ليست فقط أمرًا غير عقلاني، بل

إنها جريمة مكتملة الأركان». أما طبيعة هذه الوطنية الحالية الطيبة فلا يذكرون عنها شيئًا على الإطلاق، أو أنهم بدلًا من التوضيح ينطقون بعبارات منمقة طنانة، أو يستبدلون الوطنية بشعور آخر لا يشبه الوطنية في شيء في حقيقة الأمر؛ تلك الوطنية التي نعرفها جيدًا، والتي نُعاني منها بقسوة شديدة.

عادة ما يُقال إن الوطنية الطيبة الحالية تتألف في الأساس من أن يتمنى المواطن لوطنه أو دولته تحقيق كافة مصالحها دون أن تتعارض مصالحها مع مصالح بقية الشعوب.

مؤخرًا كنت أتحدث مع رجل إنجليزي عن الحرب الجارية، فقلت له إن سبب هذه الحرب لا يتعلق بالجشع كما يُقال عادة؛ لكنها الوطنية، كما هو واضح من المزاج العام المنتشر في المجتمع الإنجليزي بأكمله. لم يوافقني الرجل على رأيي، وقال إنه إن كان ما أقوله صحيحًا، فهذا بسبب أن الوطنية التي تُحيط بالمزاج الإنجليزي العام الآن هي نمط سيئٌ من الوطنية، أما النمط الطيب منها –والذي لديه هو شخصيًّا– فمن شأنه أن يجعل رفاقه الإنجليز يفعلون الخير.

سألته: «أتريد إذنْ أن يقوم الإنجليزي وحده بفعل الخير؟».

أجابني: «بل إني أود لو يفعل الجميع الخير». أشارت هذه الإجابة بوضوح إلى أن سمات الخير الحقيقي، سواء كان خيرًا حقيقيًّا أو علميًّا أو تطبيقيًّا أو عمليًّا، لا بد وأن تعود على كافة البشر، ولذلك فالرغبة في أن يعود الخير على الجميع ليس فقط شعورًا غير وطني؛ بل إنه شعور مُنَافٍ للوطنية ذاتها.

في حقيقة الأمر لا يمكننا أن نجد وطنية خاصة بكل شعب على حدة، وهو الأمر الذي يستعيض عنه المدافعون عن الوطنية عن عمد بهذا المفهوم الضيق الذي يدعونه الآن «وطنية». يقولون إن سمات كل شعب تتألف في الأساس من الشروط الضرورية لتقدم الإنسانية، ولذلك فالوطنية التي تكافح من أجل الوصول إلى مثل هذه الأهداف هي شعور طيب ومفيد. من الواضح إذنْ أنه إن حدث يومًا في السابق وكانت هذه السمات الخاصة بكل أمة، وعاداتها وعقائدها ولغاتها هي ما شكَّلت الشرط الضروري لحياة الإنسانية، فإنها الآن تشكل عقبات رئيسة لتحقيق مثال الوحدة الأخوية بين الشعوب، وهو الشعور الذي أصبح البشر على وعي به الآن. لذلك فدعم وحماية مثل هذه الخصوصيات الآن، سواء كانت خصوصية روسية أو ألمانية أو فرنسية أو إنجليزية، تستدعي في الآن ذاته حماية الخصوصية الهنغارية[١] والبولندية والإيرلندية، بل وأيضًا الباسكية[٢] والبروفنسية[٣] والموردوفية[٤] والتشوباسية[٥]، وخصوصيات كثير لدى شعوب أخرى، ومن الواضح إذنْ أن هذا لا يساعد بأي طريقة على تقريب البشر والعمل على وحدتهم؛ بل على زيادة التنافر بينهم أكثر فأكثر، والعمل على فصلهم عن بعضهم البعض.

هكذا فإن الوطنية الحقيقة– لا الـمُتخيَّلة، التي نعرفها جميعًا، والتي

(١) المجر الآن.

(٢) منطقة إقليم الباسك في شمال إسبانيا والمنطقة المجاورة جنوب غرب فرنسا.

(٣) منطقة في فرنسا.

(٤) منطقة بروسيا.

(٥) منطقة بغرب روسيا.

يرزح غالبية البشر الآن تحت حملها، والتي تُعاني منها الإنسانية بشدة، لا تمثل على الإطلاق رغبة في الخير الروحي لكل شعب، فالخيرات الروحية لا يمكن أن تكون لشعب واحد بعينه، ولا تمثل رغبة في الحفاظ على خصوصيات الشعوب كل على حدة، فهذه مجرد سمة، ولم تكن أبدًا شعورًا حقيقيًّا، بل هي شعور محدد بتفضيل كل فرد لشعبه أو دولته عن بقية الشعوب والدول الأخرى، ولذلك فإن الرغبة في أن يتمتع هذا الشعب أو هذه الدولة بأكبر قدر من النعم والخيرات والقوة لا يمكن أن تتم إلا بالإضرار بنعم وخيرات الشعوب أو الدول الأخرى، وهذا ما يحدث دائمًا.

من الواضح إذنْ أن الوطنية شعور ضار وشرير، وتعليم غبي، وذلك بسبب أنه إن اعتبر كل شعب وكل دولة أنفسهما الأفضل من بين بقية الشعوب والدول، فإن جميعهم إذنْ يرزحون تحت سلطان خرافة غبية وضارة.

-٢-

في الماضي، كنت أعتقد أن الشر واللا عقلانية اللذين تنطوي عليهما الوطنية أمرًا واضحًا للناس، ولكن المدهش في الأمر أنه لا يقتصر على أنك تجد أناسًا أذكياء ومثقفين لا يعتقدون ذلك، بل يتنازعون بأكبر قدر من العناد والصلابة والانفعال دون أي أساس عقلاني من أجل دعم هذا الشعور الضار غير العقلاني، ويواصلون امتداح هذا الشعور، وكأنه ينطوي على خير حقيقي، ويعلون من قدره.

**ماذا يعني ذلك؟**

**لديَّ تفسير واحد فقط لهذه الظاهرة العجيبة. إن تاريخ البشرية بأكمله منذ الأزمنة القديمة وحتى زماننا هذا من الممكن النظر إليه على أنه حركة تطور وعي الأفراد والمجموعات المتجانسة من الأدنى إلى الأسمى.**

**كل هذا الطريق الذي سلكه الأفراد والجماعات المتجانسة على السواء يمكن أن يقدم لنا مجموعات متماسكة من الدرجات المتتالية من مستوى متدنٍّ يوازي مستوى الحياة الحيوانية، وحتى أسمى درجة يمكن أن يصل إليها الأفراد والجماعات في هذه اللحظة التاريخية من وعي الإنسان.**

**كل إنسان، وكل جماعة من الناس، وكل دولة صعدوا جميعًا –ولا يزالون يصعدون– على هذه الدرجات المتتالية من الأفكار. هناك جزء من الإنسانية يصعد هذه الدرجات، وآخرون يتخلفون، وهناك جزء ثالث يمثل الغالبية العظمى في الوسط بين هاتين المجموعتين. لكنهم جميعًا وبغضِّ النظر عن الدرجة التي هم عليها الآن، لا يظلون ساكنين على نفس الدرجة، بل يصعدون من مستوى أدنى إلى مستوى أسمى بدرجة أو بأخرى. سنجد دائمًا الإنسان أو المجموعات المتجانسة من الأفراد سواء في المجموعة الأولى أو الثانية أو الثالثة يتحركون على درجات مختلفة من الأفكار دون توقف.**

**دائمًا ما نجد أفكارًا قديمةً قد عفا عليها الزمن، وأصبحت غريبة بالنسبة للأفراد –كل على حدة– وللجماعات على السواء، تلك الأفكار**

التي لم يعد بإمكان الأفراد أو الجماعات أن يعودوا إليها. على سبيل المثال: تناول لحوم البشر بالنسبة لعالمنا المسيحي، والسرقات الشاملة واختطاف النساء بهدف اغتصابهن، وما إلى ذلك... مثل هذه الأفكار لم يتبقَّ لنا منها سوى ذكرى. هناك أيضًا أفكار الحاضر التي يكتسبها البشر بالتربية وبالمثال والقدوة ومن كافة الأنشطة التي تحيط بهم، ومن الأفكار التي يعيشون تحت سلطانها في زمن معين. في زماننا مثلًا، هناك هذه الأفكار: الملكية الخاصة- الدولة- التنظيم الاجتماعي- التجارة والانتفاع من الحيوانات المنزلية... إلخ. هناك أيضًا أفكار المستقبل، والتي يقترب البعض بالفعل من تحقيقها، ويحثون الناس على تغيير أنماط حياتهم، ويحاربون ضد الأنماط القديمة مثل فكرة تحرير العمال في زماننا، وكذلك مساواة المرأة والتوقف عن تناول اللحوم، وأفكار أخرى كثيرة، ومع أن الناس قد وعوا هذه الأفكار لكنهم لم يبدأوا بعد حربهم ضد أشكال الحياة القديمة. في زماننا هذا يدعون مثل هذه الأفكار: أفكار مثالية... إنها أفكار من قبيل: القضاء على العنف- تأسيس الملكية العامة- الديانة الواحدة- الأخوة الكاملة بين البشر.

لذلك فإن الفرد والجماعة لا يتوقفان على درجة واحدة، فدائمًا ما تكون لديهم ذكريات عن أفكار قديمة قد عفا عليها الزمن، وأفكار أخرى مثالية عن المستقبل... هناك دائمًا حرب دائرة بين أفكار الحاضر والمستقبل. عادة ما يحدث أن تصبح الأفكار التي كانت مفيدة وضرورية في الماضي غير نافعة لشيء الآن بعد حرب استمرت لفترة من الزمن -قد تطول أو تقصر- وتتراجع هذه الأفكار وتفسح المكان لأخرى

جديدة، كانت في السابق مجرد أفكار مثالية، لكنها الآن أصبحت هي أفكار الحاضر.

أحيانًا ما تكون هذه الأفكار البالية التي استُبدِلت بأفكار أخرى جديدة، نافعة لقطاع معين من الناس الذين لديهم الأثر الأكبر على المجتمع. حينها يحدث أن تواصل هذه الفكرة البالية تأثيرها على الناس بالرغم من تناقضها الحاد مع جميع أشكال الحياة التي تغيرت من عدة جوانب، ويواصل الناس الاسترشاد بهذه الفكرة في أفعالهم. دائمًا ما حدث مثل هذا التأخير لتقدم الأفكار في المجال الديني، وهو الأمر الذي لا يزال يحدث حتى الآن.

السبب في ذلك هو أن الكهنة عادة ما ينتفعون من استمرار الأفكار الدينية القديمة البالية، ويستفيدون من استمرار سلطاتهم، ولذلك يحاولون إبقاء الناس عن عمد تحت سلطان هذه الأفكار المتخلفة.

يحدث الأمر ذاته في مجال الدولة وفيما يخص فكرة الوطنية والتي تتأسس عليها كافة الدول. لا يستطيع أولئك الذين يستفيدون من هذه الفكرة إلا أن يدعموها، رغم أننا لم نعد في حاجة إليهم على الإطلاق. إنهم يستطيعون الاستمرار في ذلك دائمًا؛ لأن لديهم وسائل قوية للتأثير على الناس.

هذا ما يفسر لي هذا التناقض الغريب الذي سمح باستمرار فكرة الوطنية البالية، مع كل الأفكار السيئة الأخرى التي تنضوي تحت لوائها- حتى الآن في وعي عالمنا المسيحي المعاصر.

-٣-

كانت الوطنية كشعور الفرد بحب استثنائي إلى شعبه، وكتعليم عن شجاعة التضحية بسلامك وأملاكك، بل وحتى حياتك من أجل الدفاع عن الضعفاء من المذابح وأعمال العنف التي سيرتكبها العدو، أفكارًا سامية في ذلك الوقت عندما كان كل شعب يعتبر أنه من الممكن والعادل أن يقوم بالمذابح والسرقات ضد الشعوب الأخرى من أجل خيره وقوته، ولكن منذ حوالي ألفين عام مضت بدأ ممثلو الأفكار السامية في الإنسانية بالتبشير بفكرة سامية؛ ألا وهي أخوة البشر، وكلما اخترقت هذه الفكرة وعي الناس أكثر فأكثر، كلما استطاعت تحقيق إنجازات مختلفة وعديدة. في زماننا هذا وبفضل سهولة وتطور وسائل الاتصالات ووحدة الصناعة والتجارة، استطاعت فنون ومعارف البشر أن ترتبط ببعضها البعض، حتى إن خطورة الغزو والقتل وارتكاب أعمال العنف من جانب الشعوب المجاورة قد تلاشت تمامًا، وأصبحت كافة الشعوب (الشعوب لا الحكومات والدول) تعيش مع بعضها البعض في سلام، وسط إطار من المنفعة المتبادلة والعلاقات التجارية والصناعية والفكرية الودية، ولم تعد لديهم أي ضرورة لخرق مثل هذا الوئام. لذلك قد يبدو للمرء أن شعور الوطنية البالي كان لا بد وأن يصبح لا ضرورة له على الإطلاق، ولا يستطيع التوافق مع الوعي بالأخوة بين الشعوب المختلفة، وأنه كان لا بد وأن يتم القضاء عليه أكثر فأكثر حتى

يتلاشى تمامًا. ولكن ما حدث هو العكس تمامًا، فالأمر لم يقتصر على أن هذا الشعور البالي والضار قد استمر فقط، لكنه أيضًا أخذ يزداد وطأةً أكثر فأكثر.

لم يقتصر الأمر على أن الشعوب لا تزال تشعر بالتعاطف مع الحكومات في هجومها على شعوب أخرى ومصادرتها للملكيات والدفاع عن أعمال عنف قد ارتُكِبت بالفعل دون أي أساس عقلاني، وأيضًا بما يناقض وعيها ومنفعتها، بل إن الشعوب قد أصبحت هي نفسها مَن تطالب بارتكاب أعمال العنف والاعتقالات والمصادرة، وتسعد وتفخر بها. حتى المجموعات العرقية الصغيرة التي رزحت تحت سلطان الدول الكبيرة مثل: البولنديين والإيرلنديين والتشيكيين والفنلنديين والأرمن... جميع تلك الأقليات التي تعاني بسبب وطنية أولئك الذين يضطهدونها، وفي حين أن الوطنية هي سبب الكوارث التي ألمت بها، إلا أنها قد التقطت منهم عدوى ذلك الشعور البالي غير العقلاني والضار الذي يُدعى «الوطنية»، حتى إن كل نشاطها أصبح مرتكزًا بشكل كامل على هذا الشعور، وحتى أصبحت هي نفسها، بالرغم من معاناتها من وطنية تلك الدول القوية، على استعداد أن ترتكب نفس الأفعال في حق شعوب أخرى أضعف منها مثلما حدث معها.

السبب في ذلك أن الطبقات الحاكمة -ولا أقصد هنا الحكومات وموظفيها فقط، ولكن أيضًا كل الطبقات التي تستفيد بشكل خاص من هذه الأوضاع مثل أصحاب رؤوس الأموال والصحفيين وأغلب الفنانين

والأدباء- تلك الطبقات الحاكمة لا يمكنها أن تحتفظ بمصالحها الضخمة إن قارناها بأوضاع الطبقات الشعبية الغالبة إلا بفضل تنظيم الدولة، والوطنية هي الشعور الذي يدعم الدولة. ولأن بين أيديهم كافة الوسائل التي يتمكنون بها من التأثير على الناس، فهم يدعمون الوطنية دومًا بكل ما لديهم من قوة عاطفية في نفوس الناس كما في نفوسهم، والأهم من ذلك أن مَن يساندون هذه العاطفة التي تدعم سلطة الدولة، هم أكثر مَن تكافئهم السُّلطة.

يمكن لكل موظف أن ينال المزيد كلما كان أكثر وطنية، كما هو الأمر مع رجل الحرب الذي ينال مزيدًا من الترقيات في وقت الحرب كلما تملكت منه عاطفة الوطنية أكثر.

الوطنية وعواقبها المتمثلة في الحرب هما ما يمنحان الصحفيين دخلهم، وكذلك الأمر مع أغلب التجَّار. يمكن لكل كاتب ومعلم في المدرسة أو الجامعة أن يُؤمِّن أوضاعه المعيشية بصورة أضمن كلما علَّم تلاميذه المزيد عن عاطفة الوطنية. كذلك يمكن لكل إمبراطور وكل ملك أن يكتسب مزيدًا من الكبرياء والمجد كلما تفانى في خدمة الوطنية.

لدى الطبقات الحاكمة الكثير؛ لديها الجنود والمال والمدارس والدين والصحافة. في المدارس يُذكُّون روح الوطنية في نفوس التلاميذ، واصفين شعبهم بأنه أفضل شعب من بين كافة الشعوب، وأنهم دائمًا على حق، بينما يثيرون نفس الشعور في البالغين عن طريق العروض والاحتفالات والنصب التذكارية والصحافة الوطنية الخادعة،

والأهم من كل ما سبق أنهم يُذكُّون شعور الوطنية بارتكاب كل أنواع الأفعال غير العادلة والقاسية ضد الشعوب الأخرى، ويستثيرون بداخلهم العداوة ضد شعبهم، ثم يستغلون هذه العداوة في استثارة عداوة شعبهم هم ثانية.

إن إشعال هذا الشعور المريع الذي يُدعى «الوطنية» داخل النفس قد حدث بين الشعوب الأوربية بسرعة متزايدة وتقدم مضطرد في زماننا، حتى وصل إلى درجته الأخيرة التي لم يعد يعرف بعدها إلى أين يمكنه أن يمضي.

-٤-

ثمة حادثة يتذكرها الجميع، حتى الذين لم يبلغ بهم السن عتيًّا، تثبت بأكثر الطرق وضوحًا هذا التأثير الـمُسكر المريع الذي تجلبه الوطنية في نفوس سكان عالمنا المسيحي.

لقد أشعلت الطبقات الحاكمة في ألمانيا عاطفة الوطنية في شعوبها إلى درجة أن تم اقتراح قانون على الشعب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. بموجب هذا القانون يتوجب على الجميع دون استثناء أن يصبحوا جنودًا: كافة الأبناء- الأزواج- الآباء- المثقفين- المتدينين... على جميعهم أن يتعلموا القتل ويخضعوا لعبودية من الدرجة الأولى لأولئك الذين يعلونهم رتبة، وأن يكونوا على استعداد لقتل مَن يأمرونهم بقتلهم دون تردد؛ عليهم أن يقتلوا أفراد الشعوب المقموعة، والعمال الذين يعملون لديهم هم أنفسهم إن نهضوا للمطالبة بحقوقهم. عليهم

أن يكونوا على أهبة الاستعداد لقتل آبائهم وإخوانهم كما أعلن القيصر ويلهيلم[٦] الثاني أكثر الحكام وقاحةً من بين جميع مَن اعتلوا عرش السلطة.

اتُّخِذ هذا الإجراء المريع الذي ينتهك أفضل مشاعر البشر تحت تأثير الوطنية دون أي اعتراض من شعب ألمانيا. أدى هذا الإجراء إلى الانتصار على فرنسا، ولا يزال هذا الانتصار يزيد من اتقاد العاطفة الوطنية في ألمانيا، وبالتالي في فرنسا وروسيا وبقية الدول، وبذلك قد خضع أبناء القارة الأوربية بأكملها إلى الخدمة العسكرية الإلزامية، التي تعني نوعًا من العبودية لا يمكن مقارنته بأي نوع من العبودية ظهرت في الزمن القديم من فرط الإذلال والعجز الذي يعاني منهما الإنسان فيها. بعد ذلك لم يعد خضوع الجموع الذليل وتلك الوقاحة القاسية وجنون الحكومات باسم الوطنية يعرف حدًّا.

بدأت عمليات الاستيلاء على الأراضي الأجنبية في آسيا وإفريقيا وأمريكا بدافع من الشهوة والكبرياء والأنانية، بينما تزداد مشاعر عدم الثقة والحقد بين الدول أكثر فأكثر.

تجري عملية القضاء على الشعوب التي يتم الاستيلاء على أراضيها بصورة طبيعية جدًّا، وكأنها عملية منطقية للغاية. أصبح هناك سؤال واحد: «مَن الذي سيقوم أولًا بالاستيلاء على الأراضي الأجنبية ويدمر سكَّانها؟».

(٦) كان قيصرًا للرايخ الثاني الألماني، إلى جانب كونه ملكًا لبروسيا. وهو ينحدر من أسرة هوهنتسولرن التي حكمت مملكة بروسيا ابتداء من سنة ١٧٠١.

الأمر لا يقتصر على أن الحكام قد انتهكوا -ولا يزالون- حقوق الشعوب الصغيرة وكذلك حقوق بعضهم البعض بأشد الطرق فجاجة، لكنهم أيضًا ارتكبوا -ولا يزالون يرتكبون- كل أنواع الخداع والاحتيال والكذب والتزييف والتجسس والسرقة والقتل، والشعوب لم تكتف بالتعاطف -ولا تزال تتعاطف- مع كل ما سبق، لكنها أيضًا تبتهج من أن دولتهم هم -وليست دولة أخرى- هي التي ترتكب مثل هذه الأفعال الشريرة. لقد وصلت حدة العداوة المتبادلة بين الشعوب والدول في الآونة الأخيرة إلى درجة مفزعة، فبغضِّ النظر عن أنه ليس هناك سبب واحد يبرر قيام دولة بالهجوم على الدول الأخرى، فالجميع يعرفون جيدًا أن كافة الدول دائمًا ما تقف ضد بعضها البعض، وأنيابها ومخالبها على أتم الاستعداد، في انتظار فقط أن تصيب البلية أحدهم، ويضعف قليلًا، حتى يبدأ الهجوم عليه وكسره بأقل قدر من الخسارة.

استولت عاطفة «الوطنية» على كافة هذه الشعوب التي تُطلق على نفسها «شعوب مسيحية» إلى درجة متوحشة، حتى إن الأمر لم يعد يقتصر على أن الناس الذين يجدون أنفسهم مجبرين على القتل أو التعرض للقتل قد أصبحوا يشعرون بضرورة ذلك أو حتى يبتهجون به، بل إن الأمر قد تجاوز ذلك حتى وصل إلى أن الناس الذين يعيشون في سلام في منازلهم البعيدة عن أي تهديد في أوربا أو أمريكا قد أصبحوا بفضل تقدم وسائل الاتصالات والصحافة يجدون أنفسهم مع كل حرب تندلع في حالة تشبه جمهور الألعاب الوحشية التي كانت تُجرى

في روما، يبتهجون بالقتل ويصرخون مع تفجر الدماء: «اقتله»[٧].

لم يعد الأمر يقتصر على البالغين وحدهم، بل حتى الأطفال أصبحوا يبتهجون ويطربون -بغضِّ النظر عن الشعب الذي ينتمون إليه- عندما يعرفون أن القذائف قد مزقت أوصال ١٠٠٠ فرد بدلًا من ٧٠٠ من الإنجليز أو من البوير.

والوالدان... وأعرف آباء وأمهات على هذه الشاكلة... الوالدان أصبحا يشجعان أطفالهما على هذه الوحشية. الأكثر من ذلك هو أن كل زيادة في عدد قوات الجيش لدى إحدى الدول تجبر الدولة المجاورة أن تُزيد من عدد قوَّاتها هي الأخرى بدافع من الوطنية أيضًا، وهذا بدوره يجعل الأولى تزيد ثانية من قواتها.

الأمر ذاته يحدث مع الحصون والأساطيل، فعندما تُشيِّد دولة عشر سفن حربية، تصنع الدولة المجاورة لها إحدى عشرة، وحينها تُزيد الدولة الأولى العدد إلى اثنتي عشرة، وهكذا... إلى ما لا نهاية.

الأمر يشبه الآتي: «سأقرصك»- «سأوجه إذنْ ضربةً قويةً إليك»- «سأضربك إذنْ بالسوط»- «وأنا سأضربك بالعصا»- «سأضربك بسلاح ناري»... وهكذا يتشاجر ويتقاتل الأطفال الأشرار، وكذلك السكارى، أو حتى الوحوش، وهذا ما يحدث أيضًا بين ممثلي أكثر الدول ثقافةً واستنارةً... أولئك مَن أخذوا على عاتقهم إرشاد وتربية أخلاق مَن يتبعونهم.

---

(٧) استخدم تولستوي تعبير «**Pollice verso**» الذي يعني الإشارة بالإصبع إلى أسفل، وهي الإشارة التي كان يشير بها الجمهور أو الإمبراطور لحث المصارع على قتل المهزوم.

## -٥-

الوضع يسوء أكثر فأكثر، ومن الواضح أن الإفلات من ذلك الهلاك الواضح لن يكون ممكنًا إن استمر الأمر على هذا المنوال. بالنسبة لكثير من الذين يسهل خداعهم لم يعد هناك مخرج من هذا الوضع، وأتحدث تحديدًا عن مؤتمر لاهاي[٨] وحرب إنجلترا في ترانسفال[٩] التي تلت المؤتمر مباشرة.

إن كان أولئك الذي لا يفكرون كثيرًا وبشكل سطحي قادرين على تعزية أنفسهم بحقيقة أن المحاكم الدولية يمكنها أن تحول دون وقوع بلايا الحرب وهذا التسليح المتنامي، فإن مؤتمر لاهاي والحرب التي تلته قد كشفا بشكل لا يقبل الشك عن عدم إمكانية حل هذه المسألة بهذه الطريقة. أصبح من الواضح بعد مؤتمر لاهاي أنه طالما استمرت الحكومات والدول في تشكيل قوات عسكرية، فإن إيقاف التسليح والحروب أمر غير ممكن على الإطلاق، فحتى يمكن لاتفاقية كهذه

---

(٨) مؤتمر السلام اقترحه في ٢٩ أغسطس ١٨٩٨ القيصر الروسي نيقولاي الثاني. لعب نيقولاي والكونت ميخائيل نيقولايفتش موراڤيوف، وزير خارجيته، دورًا محوريًّا في عقد المؤتمر.

(٩) المقصود حرب البوير الأولى، وهي حرب شبت بين البويريين (أفارقة من أصول هولندية) والإنجليز ما بين عامي ١٨٨٠ م و١٨٨١ م وقد لحقتها بعد عدة سنوات حرب شبيهة عرفت بحرب البوير الثانية بين عامي ١٨٩٩ و ١٩٠٢، اندلعت الحرب الأولى بين البوير والإنجليز عندما حاولت الحكومة البريطانية توحيد مستعمراتها في جنوب إفريقيا وهي: الكاب وناتال وجمهوريتي البوير، وهما: الترانسفال وولاية أورانج الحرة، سعت الحكومة البريطانية إلى توحيد تلك المستعمرات بهدف تشكيل اتحاد فيدرالي في جنوب إفريقيا.

أن تتحقق، لا بد وأن تتبادل الأطراف جميعًا الثقة في بعضها البعض، وحتى يمكن أن يحدث ذلك عليهم أن يخفضوا السلاح، كما يفعل ممثلو الدول عندما يلتقون ببعضهم البعض في لقاء سلمي. ولكن طالما لم تثق الحكومات بعد في بعضها البعض، فليس من الممكن نزع السلاح ولا حتى تقليله، بل إن وتيرة التسليح سوف تظل في سرعة مضطردة، وكل زيادة لدى أحد الأطراف ستستدعي زيادة لدى الطرف الآخر، وبالتالي ستزداد عمليات التجسس التي يتابعون بها كل حركة لقوات العدو، عالمين أنه عند سنوح الفرصة للهجوم، فلن تفيد وقتها أي اتفاقية، وسيكون أي مؤتمر حينها محض غباوة أو تمثيلية هزلية أو خداع أو وقاحة، أو كل هذا سويًّا.

أصبحت الدولة الروسية أكثر من أي حكومة أخرى بمثابة الصبي الشرير في مؤتمر لاهاي. ما يجعلها كذلك هو أنه ما من أحد في روسيا يعارض كل هذه البيانات والأوامر التي قامت بتدمير شعبها دون أن تطرف عينٌ بأوامر التسليح، وخنقت بولندا ونهبت توركستان والصين وأسوأ ما فعلته كان من نصيب فنلندا، وهي على ثقة كاملة أن الجميع سيثقون فيها وهي تطلب منهم نزع السلاح!

ما يزيد من غرابة ومفاجأة ووقاحة هذا الاقتراح هو أنه صدر في هذا الوقت تحديدًا الذي جاءت فيه الأوامر بزيادة القوات، وألقيت الخطب التي تقول على مسمع من الجميع أنه يستحيل على الدول الأخرى ألَّا تشارك في مثل هذه المؤتمرات الهزلية والكاذبة، وذلك للحفاظ على مظهرها أمام شعوبها، وسافرت الوفود وهي تعلم مقدمًا

أنه من المستحيل أن يصلوا إلى شيء بخصوص هذا الأمر، وفي غضون عدة أشهر -وبالطبع حصلت الوفود خلالها على مرتبات جيدة جدًّا- تظاهروا جميعًا أنهم يهتمون بشدة بإحلال السلام بين الشعوب، في الوقت الذي كانوا يخفون ضحكاتهم الساخرة.

بعد مؤتمر لاهاي اندلعت مذابح مريعة، وتلته حرب الترانسفال التي لم يحاول أحد إيقافها، ولا يحاول حتى الآن، وبالرغم من أنها لا يُنتظر منها شيء إلا أن لها فائدة وحيدة؛ ألا وهي أنها قد كشفت بشكل جلي أن الشرور التي تُعاني منها الشعوب لا يمكن التخلص منها عن طريق الحكومات والأنظمة الحاكمة، وأنه حتى وإن أرادت الحكومات والأنظمة الحاكمة ذلك فهي لا تستطيع إيقاف التسليح وبالتالي إيقاف الحروب. لذلك فالهدف من وجود الحكومات والأنظمة الحاكمة هو الدفاع عن شعوبها من هجوم الشعوب الأخرى، ولكن ما من شعب واحد يود أن يهاجم شعبًا آخر ولن يحدث هذا، وهذا ما يُفسر أن الحكومات والأنظمة الحاكمة لا تريد السلام، بل إنها تحاول بكل ما لديها من قوة أن توقظ الكراهية في قلوب شعبها صوب الشعوب الأخرى، وتوقظ مشاعر الوطنية داخل قلوب أبنائها، وتؤكد لهم أنهم في خطر عظيم وأنهم في حاجة إلى مَن يدافع عنهم.

السلطة بين يديها، ولذلك فهي تستطيع أن تثير استياء الشعوب الأخرى، وتستثير مشاعر الوطنية في قلوب شعبها، وهي تقوم بهذا وذاك بكل ما لديها من قوة، ولا يمكنها ألا تفعل ذلك لأن ذلك هو ما يبرر وجودها.

إن كانت الدول والحكومات لازمة في الماضي من أجل الدفاع عن شعوبها من هجوم الشعوب الأخرى، فالأمر الآن على النقيض، فالدول والحكومات هي ما تخرق السلام القائم بين الشعوب، وتستثير العداوة بينهم.

إن كان الحرث واجبًا من أجل إلقاء البذور فحينها يكون الحرث أمرًا منطقيًّا، ولكن من الواضح أنه لا يكون كذلك إن كانت البذور قد أنبتت بالفعل. هذا ما تفعله بالضبط الحكومات مع شعوبها؛ إنها تدمر وحدتهم الموجودة بالفعل والتي لم يكن أحد ليخرقها إن لم تكن هناك حكومات.

-٦-

ترى ما طبيعة تلك الحكومات في الواقع والتي يظن الناس أنهم لا يستطيعون الاستمرار من دونها؟

إن كانت الحكومات ضرورية في الماضي وأقل شرًّا، ولازمة من أجل حماية الشعب غير المسلح من هجوم شعوب أخرى منظمة، فلم نعد الآن في حاجة إليها وأكثر شرًّا بكثير مما تخافه الشعوب إن اختفت الحكومات.

الأمر لا يقتصر على أنظمة الحكم العسكرية، بل حتى بقية الدول العادية... لا يمكن أبدًا أن تكون بلا ضرر -ولن أقول مفيدة- إلا إن كانت مؤلفة من أناس لا يُخطئون... أناس مقدسون أتقياء، مثلما يعتقد

الصينيون مثلًا عن دولتهم، ولكنها تتألف طوال الوقت من كل ما يمثلون نقيض القداسة... إنها تتألف في الأساس من عناصر غبية وقحة فاسدة.

لذلك فإن كل حكومة -خاصة تلك التي توهب سلطة عسكرية- هي مؤسسة تشكل خطورة كبيرة ومريعة على السلام. الحكومة بمعناها الواسع الذي يضم إليها أصحاب رؤوس الأموال والصحافة ليست في الحقيقة سوى مؤسسة يخضع الجزء الغالب من أفرادها إلى سلطة شريحة صغيرة جدًّا منها، وهذه الشريحة الصغيرة تخضع بدورها إلى سلطة شريحة أصغر، والأخيرة إلى سلطة شريحة أصغر... وهكذا يمضي الأمر حتى يصل إلى بضعة أشخاص أو شخص واحد، يمكنهم أن ينالوا سلطتهم على الجميع بالقوة العسكرية. هكذا فإن هذه المؤسسات تشبه المخروط، فكل جزء يتسلط عليه ما يعلوه حتى نصل في النهاية إلى قمة المخروط.

أما قمة المخروط فقد استولى عليها ذلك الفرد أو تلك المجموعة الذي يعد أكثر الجميع خبثًا ودناءة وانعدامًا للضمير، أو أنه يجد نفسه وريثًا بشكل اعتباطي لشخص خلفه كان كذلك.

لدينا الآن بوريس جودونوف[١٠]، وغدًا سيكون لدينا جريجوري أوتريبييف[١١]. الآن كاترينا الفاسقة التي قتلت زوجها بمساعدة

(١٠) كان الوصي الفعلي على عرش روسيا من ١٥٨٥ حتى ١٥٩٨، وكان أول قيصر من خارج أسرة روريك في الفترة من ١٥٩٨ إلى ١٦٠٥. وشهدت روسيا في نهاية عهده عصر الاضطرابات.

(١١) في عام ١٦٠٤، عبر غريغوري أوتريبييف الحدود وشن حملة عسكرية ضد بوريس غودونوف، الذي تولى العرش بعد وفاة إيفان الرهيب. أعلن القيصر بوريس علنًا أن هذا لم يكن وريثًا شرعيًّا للعرش، بل كان راهبًا هاربًا.

عشاقها، وغدًا سيكون لدينا بوجاتشييف[١٢]، وبعد غد بافل المجنون ونيكولاي وإلكسندر الثالث[١٣].

وتحصل هذه الحكومات على سلطة كاملة، لا تشمل فقط الأملاك والحياة، بل أيضًا أيضًا التطور الروحي والأخلاقي، والتربية والقيادة الدينية لكافة البشر.

يشيد البشر ماكينة السلطة المريعة هذه، ويتركون أي شخص يستولي عليها، وغالبًا ما يكون أدنى الموجودين أخلاقيًّا، ويخضعون لها كالعبيد، ثم يتعجبون بعد ذلك من أنها قد أصبحت شريرة. إنهم يخشون من قنابل الأناركيين، لكنهم لا يخافون من ماكينة السلطة المريعة هذه التي تهددهم في كل لحظة بأفظع الكوارث.

اعتقد الناس أنهم كي ينالوا وسيلةً يدافعون بها عن أنفسهم ضد الأعداء، عليهم أن يقيدوا أنفسهم ببعض كما يفعل الشركسيون[١٤]، ولكن لم يكن هناك خطر حقيقي في واقع الأمر، لكن الناس لا يزالون يقيدون أنفسهم ببعض.

---

(١٢) يمليان بوغاتشيف كان مطالبًا بعرش الإمبراطورية الروسية وقائد ثورة القوزاق في عهد الإمبراطورة كاترين الثانية. كتب عنه إلكسندر بوشكين وعن ثورته في قصة بوغاتشيف، وذكر أحداث ثورته في رائعته ابنة الآمر.

(١٣) القيصر إلكسندر رومانوف الثالث قيصر وإمبراطور روسيا السابع عشر في الإمبراطورية الروسية خلفًا لأبيه القيصر إلكسندر الثاني ابن القيصر نيكولاي الأول ابن القيصر بافل الأول ابن القيصر بيتر الثالث ابن الإمبراطورة آنا إيفانوفنا بنت القيصر بطرس الأكبر. لم تخض روسيا حروبًا كثيرة في عهده، ولذلك عرف باسم صانع السلام.

(١٤) الشركس مجموعة شعوب تشمل سكان شمال القوقاز من أديغة وشيشان وآفار ولزجين. وكنتيجة للحروب التوسعية التي شنتها الإمبراطورية الروسية في المنطقة اضطُرَّ الكثير من الشركس إلى الهجرة إلى الأراضي العثمانية أو الروسية بعد حروب وقلائل استمرت أكثر من مائة عام.

إنهم يقيدون أنفسهم بهذه الطريقة حتى يتمكن فرد واحد في النهاية من أن يفعل بهم ما يشاء، ويلقون بعدها بطرف الحبل الذي يقيدهم جميعًا إلى أحد الأوغاد أو الحمقى ليمسك به ويفعل بهم كل ما يتبادر إلى ذهنه.

يفعلون هذا، ثم يتعجبون أن الشر قد أصابهم! ما الذي تفعله الشعوب حقًّا حينما تخضع لحكومات تدعم سلطتها بالقوة العسكرية؟!

-٧-

لا يتطلب إنقاذ الناس من هذه الكوارث المريعة للتسليح والحروب التي يعانون منها الآن، والتي تتزايد أكثر فأكثر، مجالس ولا اجتماعات ولا محادثات أو محاكم، بل القضاء على أدوات العنف التي يطلقون عليها «حكومات»، والتي تجلب هي بنفسها أفظع أنواع الكوارث.

يلزمنا أمر وحيد كي نتمكن من القضاء على نظام الحكومة؛ أن يدرك الناس أن شعور «الوطنية» الذي تدعمه الحكومة أو النظام الحاكم هو شعور همجي وضار مثير للخزي وشرير، والأكثر من ذلك أنه شعور لا أخلاقي. إنه شعور همجي؛ لأنه يناسب فقط أناسًا في أدنى الدرجات الأخلاقية، يتوقعون أن تهاجمهم بقية الشعوب مثلما هم أنفسهم مستعدون لارتكاب العنف ضد هذه الشعوب، وهو شعور ضار؛ لأنه يقضي على علاقات المنفعة المتبادلة السلمية بين الشعوب بعضها وبعض، والأهم من كل ذلك أنه هو ما يشكل تلك المؤسسة التي نطلق عليها «الحكومة أو الدولة»، والتي يمكن أن يستولي على

سلطاتها –وهو ما يحدث– أكثر الناس شرًّا ودناءة. إنه أيضًا شعور مثير للخزي، ليس فقط لأنه يجعل من الإنسان عبدًا، ولكنه يجعله أيضًا يشبه ديكًا أو ثورًا مقاتلًا أو حتى مصارعًا في الحلبات، وهو ما يحطم قواه وحياته بأكملها من أجل أهداف حكومته لا أهدافه هو. هو أيضًا شعور غير أخلاقي؛ لأنه يجعل كل إنسان تحت سلطان الحكومة بدلًا من أن يعتبر نفسه ابنًا لله كما تعلمنا المسيحية، أو إنسانًا حرًّا كما يخبره عقله، يعتبر نفسه ابنًا لأمة بعينها، وعبدًا لحكومته، ويرتكب أفعالًا تناقض عقله وضميره.

الناس في حاجة لأن يدركوا ذلك، وحينها سينحل هذا الحبل الذي يقيدنا جميعًا دون أي حروب... هذا الحبل الذي ندعوه «الحكومة»، وحينها سيتوقف هذا الشر المريع الذي تنتجه هذه الحكومات.

وقد بدأ الناس في إدراك ذلك فعلًا، فهذا ما يكتبه مثلًا مواطن من الولايات المتحدة الأمريكية الشمالية:

«إن ما ننشده نحن أصحاب الأراضي والميكانيكيون والتجَّار وأصحاب الورش والمعلمون هو أن يكون لدينا الحق في ممارسة أعمالنا الخاصة؛ أن نهتم بشؤون منازلنا وأصدقائنا المحبين وأسرنا، وألَّا نتدخل في شؤون الآخرين... أن يكون لدينا عمل، ونحن فعلًا نريد أن نعمل؛ لذا اتركونا لحالنا!

لكن السياسيين لا يريدون أن يتركونا لحالنا؛ إنهم يفرضون علينا الضرائب، ويستولون على ملكياتنا ويجندونا ويرسلون أبناءنا إلى حروبهم. هناك أعداد هائلة تعمل بالدولة تعيش على تلك الضرائب

التي تفرضها الدولة علينا، وحتى يتم جمع الضرائب بنجاح يتم تشكيل الجيوش. أما فكرة أننا في حاجة إلى الجيش حتى ندافع عن البلاد فهي محض خداع جلي. تُخيف الدولة الفرنسية شعبها بأن تقول لهم إن الألمان يستعدون للهجوم عليهم، ويخشى الروس من الإنجليز، ويخشى الإنجليز من الجميع. أما الآن فيقولون لنا في أمريكا إن أوربا يمكنها في أي لحظة أن تتحد ضدنا. هذا خداع وكذب، فالشعب البسيط في فرنسا وألمانيا وإنجلترا وأمريكا مُعارِضٌ للحرب. كل ما نرجوه أن يتركونا لحالنا. لدى الرجال زوجاتهم وآباؤهم وأمهاتهم وأبناؤهم ومنازلهم، وليست لديهم أي رغبة في قتال أحد مهما كان. نحن محبون للسلام ونخشى الحروب ونكرهها.

نحن نريد ألَّا نفعل للآخرين ما لا نريدهم أن يفعلوه بنا.

الحرب هي النتيجة الحتمية لتسلُّح الناس. الدولة التي تُبقي على جيش ضخم دائم لا بد لها وأن تحارب آجلًا أو عاجلًا. الإنسان الذي يفتخر بقوته في القتال لا بد له وأن يلتقي يومًا ما إنسانًا يعتبر نفسه مقاتلًا أفضل، ولا بد وأنهما سيتقاتلان حينها. فرنسا وألمانيا في انتظار سنوح الفرصة لاختبار قوتهما ضد بعضهما البعض. لقد تقاتلا فعلًا عدة مرات من قبل وسيتقاتلان ثانية، والسبب في ذلك لا يعود إلى أن شعبيهما يريدان هذا القتال، ولكن الطبقة العليا هي مَن تفجر بداخلهم تلك الكراهية المتبادلة وتجبر الناس على الاعتقاد في أنهم لا بد لهم وأن يُقاتلوا حتى يدافعوا عن أنفسهم.

الناس الذين أرادوا أن يتبعوا تعاليم المسيح، يفرضون الآن

الضرائب ويسيئُون ويخدعون ويشعلون الحروب.

لقد بشَّر المسيح بالتواضع والوداعة والصفح عن الإساءة وبتحريم القتل. لقد طلبت الأناجيل من البشر ألا يقسموا، ولكن الطبقة العليا تجبرنا على القسم بالأناجيل التي لا يؤمنون بها!

كيف نتخلص إذنْ من هؤلاء المبددين الذين لا يلزمون أنفسهم بعمل، ومع ذلك يرتدون ثيابًا ناعمة بأزرار نحاسية وزخارف باهظة الثمن، ويعيشون على ما ننتجه نحن من الأرض؟

أنقاتلهم إذنْ؟

لكننا لا نؤمن بإراقة الدماء، وبالإضافة إلى ذلك لديهم السلاح والمال، ويمكنهم الصمود أكثر مما يمكننا.

ولكن مَن هم أفراد ذلك الجيش الذي سوف يحاربنا؟

نحن هم أفراد ذلك الجيش... نحن وجيراننا وأشقاؤنا المخدوعون، الذين قد أكدوا لهم أنهم بهذا يخدمون الله ويدافعون عن بلادهم ضد الأعداء. في الواقع ما من أعداء لبلادنا سوى الطبقة العليا التي تتظاهر وكأنها تهتم بمصالحنا إن ظللنا فقط ندفع الضرائب. إنهم يستهلكون مواردنا ويستعدون أخوتنا الحقيقيين ضدنا من أجل أن يستعبدونا ويذلونا.

لا يمكنكم أن ترسلوا برقية إلى زوجاتكم أو شحنة لأصدقائكم أو تحرروا إيصالًا لأحد المتعهدين إلا إن ظللتم تدفعون الضرائب التي يجمعونها في الأساس من أجل نفقات تسليح أفراد من الممكن أن

يقتلوكم، والذين دون شك يتولون عملية حبسكم في السجون إن لم تدفعوا الضرائب.

الطريقة الوحيدة التي بإمكانها أن تخلصنا من ذلك هي أن نجعل الناس يؤمنون أن القتل غير مباح، وأن نعلمهم أن الشريعة كلها والأنبياء تتلخص في أن تفعل للآخرين ما تود أن يفعلوه لك. يمكنكم أن تواجهوا هذه الطبقة العليا بهدوء، وذلك برفضكم الركوع أمام أصنامها العسكرية. توقفوا عن دعم الوُعَّاظ الذين يعظونكم بالحرب، وتعاملوا مع شعور الوطنية على أنه شعور تافه.

فليذهبوا إلى العمل كما نفعل نحن.

نحن نؤمن بتعاليم المسيح، بينما هم لا. كان المسيح يقول ما يفكر فيه، أما هم فيقولون ما يروق للطبقة العليا التي تحوز السلطة.

لن نلتحق بالخدمة العسكرية، ولن نطلق النار كما يأمروننا. لن نتسلح بالحراب لنهاجم شعبًا وديعًا طيبًا. لن نستمع إلى كلمات سيسل رودس[١٥] ونطلق النار على رعاة الغنم والمزارعين والذين يدافعون عن بيوتهم.

أما صرختكم الكاذبة: «ذئب! ذئب!» فلن تُخيفنا. كنا ندفع الضرائب لأننا كنا مضطرين لذلك، وسنظل ندفعها طالما نحن مجبرون

(١٥) رودس، سيسيل جون، رئيس وزراء مستعمرة الكاب عام ١٨٩٦ـ١٨٩٠م، شهد عصره توسعًا ضخمًا في الإمبراطورية البريطانية. عُرف باسم ملك الألماس، حيث أنشأ شركة دي بيرز، أضخم شركة ألماس في العالم والتي تسيطر اليوم على ٦٠٪ من ألماس العالم، وكانت في فترة من الفترات تسيطر على ٩٠٪ منه.

على ذلك. لن ندفع أي نقود لرجال الكنيسة المنافقين، ولن نعطيهم العشور[١٦]، وسنعلن عن رأينا في كل مناسبة يُتاح لنا فيها أن نفعل ذلك.

سوف نعلِّم الآخرين حقيقة الأمور.

مع مرور الوقت ستزداد قوة وتأثير عملنا الصامت هذا، وحتى مَن يذهبون لأداء الخدمة العسكرية سيترددون عند صدور الأوامر، وبعدها سيرفضون القتال. سننشر هذه الفكرة، التي بمقتضاها ستكون الحياة المسيحية في العالم والتصرف بسلام أفضل من حياة الحرب وإسالة الدماء.

«وعلى الأرض السلام»[١٧]. لا يمكن لذلك أن يحدث إلا عندما لا يعاود الناس الانضمام إلى الجيوش، وتصبح رغبتهم في أن يعاملوا الناس بما يودونهم أن يعاملوهم به».

هذا ما كتبه أحد مواطنين الولايات الأمريكية الشمالية، ومثل هذه الأصوات أصبحت تتعالى الآن من أماكن عديدة.

هذا ما كتبه مثلًا جندي ألماني:

«ذهبت في حملتين عسكريتين مع سلاح الحرس البروسي[١٨]

(١٦) من التقاليد اليهودية القديمة والتي استمرت مع المسيحيين هو تخصيص عشر كل ما يربحه الإنسان من مال لتوزيعه على أغراض خيرية، وكثير من المسيحيين يمنحون عشورهم للكنيسة كي تستخدمها في هذه الأغراض الخيرية، لكن جزءًا كبيرًا منها لا يستخدم في هذه الأغراض مطلقًا، بل يُستخدم في البناء والتشييد والإنفاق على السيارات الفارهة وما إلى ذلك.

(١٧) «الْمَجْدُ للهِ فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ» لوقا ٢: ١٤

(١٨) إشارة إلى مملكة بروسيا: مملكة ألمانية تواجدت منذ عام ١٧٠١ حتى عام ١٩١٨ وضمت أجزاء من ألمانيا الحالية وبولندا وروسيا وليتوانيا والدنمارك وبلجيكا وجمهورية التشيك. وكانت القوة الداعمة لحركة توحيد ألمانيا عام ١٨٧١ والدولة الرائدة في الإمبراطورية الألمانية حتى انهيارها في عام ١٩١٨.

(١٨٦٦- ١٨٧٧) وأنا أكره الحرب من أعماق روحي؛ لأنها جعلتني تعيسًا بدرجة لا يمكنني التعبير عنها. نحن الجنود المجروحون نحصل على النصيب الأكبر من هذه المكافأة البائسة التي كانت تدعو للخزي عندما كنا نشعر بالوطنية فعلًا. على سبيل المثال، فأنا أحصل على ٨٠ بيفينينج[١٩] يوميًّا مقابل الإصابة التي لحقت بذراعي الأيمن أثناء الهجوم على بريفاس[٢٠] في الثامن عشر من أغسطس في عام ١٨٧٠. إنهم في حاجة إلى مبلغ أكثر من ذلك يوميًّا للإبقاء على كلب. أما أنا فقد ظللت أعاني طيلة أعوام من ألم يدي اليمنى التي أُصيبت مرتين. لقد شاركت بالفعل في عام ١٨٦٦ في الحرب ضد النمسا، وقاتلت في ترتنوف[٢١] وكونيجراتس[٢٢] ومررت بكثير من الفظائع. في عام ١٨٧٠، تم استدعائي من قوات الاحتياطي مجددًا، وكما ذكرت فقد أُصبت في الهجوم على بريفاس، فقد أُصيبت يدي اليمنى مرتين. لقد فقدتي عملي، فقد كنت أصنع الخمر، ولم أعد قادرًا على استعادته ثانيًا. منذ تلك اللحظة لم أعد أستطيع النهوض ثانية. تلاشى تأثير المخدر، ولم يتبق شيء لهذا المصاب سوى أن يعيش على الكفاف على هذا المعاش الزهيد الذي يتقاضاه، وعلى ما يحصل عليه من فاعلي الخير.

في عالم كهذا حيث يركض الناس كالحيوانات المدربة، فليس

(١٩) العملة المستخدمة في ألمانيا في ذلك الوقت.

(٢٠) مدينة فرنسية.

(٢١) تروتنوف أو ترُتنوف تقع في إقليم هرادتس كرالوفة منطقة بالجمهورية التشيكية، وقد اندلعت معركة ترتنوف في عام ١٨٦٦ أثناء الحرب النمساوية البروسية.

(٢٢) كانت المعركة الحاسمة في هذه الحرب، وهي مدينة نمساوية هي الأخرى.

بإمكاننا فعل شيء سوى أن نتفادى بعضنا البعض، من أجل حفنة من الأوغاد، ولا يهمني أن يعتبرونني أحمق كما يشاءون، لكني أشعر داخل نفسي بفكرة السلام الإلهية التي تم التعبير عنها على أبلغ ما يكون في الموعظة على الجبل[٢٣]. لديّ قناعة عميقة للغاية أن تلك الحرب هي مجرد نوع من التجارة ولكن على نطاق واسع... إنها تجارة بسعادة الشعوب من قبل أولئك الذين يتمتعون بطموح كبير وقوة هائلة. يا لحجم الكوارث والبلايا التي نعاني منها من جراء ذلك! لن أنسى أبدًا تلك الفظائع وتلك التأوهات الحزينة التي كانت تخترق عظامي.

أولئك البشر الذين لم يفعلوا شرًّا لبعضهم البعض يذبحون بعضهم الآن كالوحوش المفترسة، وهذه الأرواح الرقيقة التي شكلها الله الصالح الراذحة تحت نير العبودية تحرض الآن على مثل هذه الأفعال. حطمت رصاصة فك زميلي المجاور لي. صرخ المسكين من فرط الألم. ركض كالمجنون، ولم يجد حتى بعض الماء كي يرطب من هذا الألم المفزع لجرحه. حينها كتب قائدنا ولي العهد فريدريك (الذي أصبح بعد ذلك سيادة الإمبراطور) في يومياته: «الحرب.. إنها تهكم على الإنجيل وسخرية منه».

(٢٣) الموعظة التي تشمل معظم تعاليم المسيح. راجع إنجيل متى ٥ – ٦ – ٧.

## -٨-

عادة ما يُقال: «ولكن ما الذي سيحدث إن استغنينا عن الحكومات؟».

لا شيء على الإطلاق... لا شيء سوى أننا سنكون قد قمنا بتدمير مؤسسة كانت موجودة منذ زمن طويل، ولم تعد لازمة الآن، بل وشريرة أيضًا... لا شيء سوى القضاء على شيء لم نعد في حاجة إليه.. شيء شرير.

وعادة أيضًا ما يُقال: «ولكن إن اختفت الحكومات سيقتل الناس بعضهم البعض ويرتكبون أفعال عنف».

لماذا؟ لماذا يمكن أن يؤدي تدمير هذه المؤسسة التي ظهرت بالعنف، والتي استمرت جيلًا بعد جيل لترتكب العنف، إلى أن يقوم الناس بقتل بعضهم البعض وارتكاب أعمال العنف؟ يبدو لي الأمر على النقيض من ذلك، فتدمير المؤسسة القائمة على العنف سوف يجعل الناس يتوقفون عن ارتكاب أعمال العنف والقتل تجاه بعضهم البعض.

هناك أناس الآن قد تمت تنشئتهم على نحو خاص؛ كي يكونوا على استعداد لقتل بعضهم البعض، وكذلك لارتكاب أعمال العنف... هناك أناس لديهم حق القتل، وهم يستفيدون من هذه المؤسسة التي تتيح لهم ذلك... إنهم أناس يعتبرون العنف والقتل أمرًا حسنًا وعملًا باسلًا. لذلك فحينما لا يُربَّى البعض على ذلك، ولا يعود لأحدهم الحق في ارتكاب العنف والقتل في حق الآخرين، ولا تعود هناك مؤسسات

قائمة على العنف كما هو الأمر الآن في عالمنا، حينئذ سوف يظل العنف والقتل أفعالًا شريرًا إلى الأبد.

إن حدثت أعمال عنف بعد إزالة الحكومات، فلا بد وأن عددها سيكون أقل كثيرًا من عددها الآن؛ لأننا لدينا أناس مدربون ومتخصصون على أعمال عنف تأمرهم بها منظمات تعتبر العنف والقتل أمورًا صالحة.

لن يؤدي تدمير الحكومات إلا إلى تدمير مؤسسات ليست ذات قيمة؛ مؤسسات متخصصة في أعمال العنف وتبريرها.

«لن تكون ثمة قوانين ولا ملكيات ولا محاكم ولا قوات شرطة ولا تعليم شعبي». هذا ما يقولونه عادة أولئك الذين يخلطون بين السلطة القائمة على العنف وبين أنواع النشاط الاجتماعي المختلفة.

إن إزالة الحكومة والمؤسسات القائمة على العنف لا يستدعي إزالة القوانين والمحاكم والملكيات وحماية الشرطة ولا مؤسسات التنظيم المالي ولا التعليم الشعبي. على النقيض من ذلك، فغياب سلطة الحكومة الغاشمة التي ليس لها هدف سوى الحفاظ على مكتسباتها سوف يدعم المؤسسات الاجتماعية التي ليست في حاجة إلى العنف. أما المحكمة والأعمال الاجتماعية والتعليم الشعبي... كل هذا سيكون بمقدار ما يحتاج إليه الناس، فسوف يُزال فقط كل ما كان مضرًّا ومن شأنه أن يحول من حريات البشر وإرادة الشعوب.

ولكن إن افترضنا أنه في غياب الحكومات سوف تحدث اضطرابات وصراعات داخلية، فستبقى أيضًا على كل حال أوضاع الشعوب أفضل مما كانت عليه إبان وجود الحكومات. من الصعب أن نجد أوضاعًا

أسوأ مما هي عليه الآن. إن الشعب الآن محطم تمامًا، ولا محال سيزداد الحال سوءًا. الأزواج جميعًا قد مضوا إلى عبودية الخدمة العسكرية، وفي كل لحظة ينتظرون الأمر الذي يصدر إليهم كي يقتلوا أو يُقتلوا. ماذا ننتظر؟ هل ننتظر أن نموت جوعًا؟ لقد بدأ الأمر يصل فعلًا إلى هذا الحد في روسيا وإيطاليا والهند. أم أننا ننتظر أن تذهب الزوجات هن أيضًا إلى الجيش؟ حدث ذلك فعلًا في حرب الترانسفال.

وهكذا فإن كان غياب الحكومات يعني فوضوية بالمعنى السلبي للكلمة –وهو أمر بعيد الاحتمال–، فلا يمكن لأي نوع من أنواع الفوضوية أن تكون أسوأ من تلك الأوضاع التي وصلنا إليها الآن بفضل الحكومات.

لذلك فلا بد وأن يكون التحرر من الوطنية «أمرًا مفيدًا» للناس، وكذلك إزالة أنظمة الحكومات المستبدة.

-٩-

انتبهوا أيها البشر وأدركوا أنه من أجل خيركم الروحي والمادي على السواء، ومن أجل خير أشقائكم وشقيقاتكم عليكم أن تتوقفوا قليلًا وتمعنوا التفكير مليًّا فيما تفعلون.

انتبهوا وأدركوا أن أعداءكم ليسوا هم البوير ولا الإنجليز ولا الفرنسيين؛ بل لديكم عدو واحد: أنتم أنفسكم... أنتم الذين تساندون الحكومة بخضوعكم للوطنية... إنها الحكومة التي تضطهدكم وتجور عليكم وتجعلكم تعساء.

تتظاهر الحكومات بالدفاع عنكم من الخطورة المحدقة بكم، وتستغل هذه الحماية الـمُتخيلة حتى تحولكم جميعًا إلى جنود عبيد... تحطمكم جميعًا، وتنهارون أكثر فأكثر، وفي كل دقيقة يمكن أن تتوقعوا -بل ولا بد لكم من هذا- أن يتمزق الحبل الممدود، وحينها ستبدأ المذبحة المروعة لكم ولأطفالكم.

بغض النظر عن حجم المذبحة التي ستحدث أو كيف ستنتهي، فإن الحال سيظل كما هو. وحينها ستستغل الحكومة هذا التوتر العنيف وتسلح أفرادها وتُخرِّب وتفسد جميع أطفالكم، ولا يمكن لأحد أن يوقف ذلك سواكم، فأنتم وحدكم من يمكنكم أن تساعدوا أنفسكم.

يمكنكم أن تساعدوا أنفسكم بطريقة واحدة لا غير؛ ألا وهي أن تدمروا هذا البناء المخروطي المتخصص في إتمام أعمال العنف، فهو بناء يسمح أن يتسلق أحدهم إلى قمته ويتسلط على الشعب بأكمله، وكلما تسلط عليكم كلما ازدادت قسوته ولا إنسانيته، كما نعرف مثلًا عن نابليون ونيقولاي الأول[٢٤] وبسمارك[٢٥] وكافة طغاتنا الذين يحكمون الشعب باسم القيصر.

لدينا طريقة واحدة يمكننا بها أن نقضي على هذا البناء المتماسك؛ ألا وهي أن نستيقظ من هذا التنويم الذي نحن غارقون فيه؛ الوطنية.

---

(٢٤) إمبراطور روسيا الخامس عشر ٦) يوليو ١٧٩٦ - ٢ مارس ١٨٥٥).

(٢٥) أوتو إدوارد ليوبولد فون بسمارك: رجل دولة وسياسي بروسي- ألماني، شغل منصب رئيس وزراء مملكة بروسيا بين عامي ١٨٦٢ و١٨٩٠، وأشرف على توحيد الولايات الألمانية وتأسيس الإمبراطورية الألمانية أو ما يسمى بـ«الرايخ الألماني الثاني»، وأصبح أول مستشار لها بعد قيامها في عام ١٨٧١، حتى عزله ويلهيلم الثاني عام ١٨٩٠.

عليكم أن تدركوا أنكم أنتم مَن صنعتم كل هذا الشر الذي نعاني منه الآن، وقد فعلتم ذلك بخضوعكم لما يخدعكم به الأباطرة والملوك وأعضاء البرلمانات والحكومات والعسكريون وأصحاب رؤوس الأموال ورجال الدين والكتَّاب والفنانون، وجميع مَن يستفيدون من خداعكم بالوطنية حتى يعيشوا عالة عليكم.

عليكم أن تدركوا جميعًا -سواء كنتم فرنسيين أو روسًا أو بولنديين أو إنجليزًا أو إيرلنديين أو ألمانًا أو تشيكيين- أن مصالحكم -سواء كنتم مزارعين أو صُنَّاعًا أو تُجَّارًا أو فنانين أو علماء- وشعوركم بالرضى والسعادة لا تتعارض أبدًا مع مصالح الشعوب والدول الأخرى، وأن في إمكانكم أن ترتبطوا جميعًا بإطار من المساعدة المتبادلة وتبادل الخدمات وفرحة التعامل الأخوي بينكم وبين بعضكم البعض على نطاق واسع، والتبادل، ليس فقط في مجال البضائع، بل أيضًا في مجال الأفكار والمشاعر.

عليكم أن تدركوا أن مسائل من قبيل الاستيلاء على طريق أو ميناء ما من قِبَل حكومتكم أو من قِبَل حكومة أخرى ليس أمرًا ليس ذا أهمية فقط بالنسبة لكم، بل إن كل أنواع الاستيلاءات التي تقوم بها حكوماتكم تضر بكم؛ لأنها تقود لا محالة إلى التأثير عليكم من قبل حكوماتكم تأثيرًا شديدًا؛ كي تشارك في أعمال السرقة والعنف الضروريين للقيام بمثل هذه الاستيلاءات والاحتفاظ بالمكتسبات. عليكم أن تدركوا أن حياتكم لا يمكن أن تصبح أفضل أبدًا إن أصبح إقليم الإلزاس[٢٦]

(٢٦) أراضي الألزاس واللورين الإمبراطورية إقليم أوجدته الإمبراطورية الألمانية في عام ١٨٧١ بعد أن ضمت غالبية منطقة الألزاس ومنطقة موزيل في اللورين بعد انتصارها في الحرب الفرنسية البروسية. يقع الجزء الألزاسي في وادي الراين على الضفة الغربية لنهر الراين وشرق جبال الفوج.

ألمانيًّا أو فرنسيًّا، أو إن تحررت بولندا أو لا، فبغض النظر عن مالكها يمكنكم أن تعيشوا حيثما تشاؤون، وسواء كنتم من الإلزاس أم كنتم إيرلنديين أو بولنديين، عليكم أن تدركوا أن كل فعل من شأنه أن يضرم من عاطفة الوطنية بداخلكم لن يؤدي إلى شيء سوى إلى زيادة سوء الوضع، ولذلك فهذه العبودية التي يرزح الشعب تحت وطأتها هي في الأساس بسبب الوطنية، وكل تجلٍّ لهذه العاطفة في أحد الشعوب من شأنه أن يُضرم من رد الفعل المعارض له. عليكم أن تدركوا أنه بإمكانكم أن تتخلصوا من كل هذه البلايا بتحرركم من فكرة الوطنية البالية، والتي تجعلكم تخضعون للحكومات، وتمكنكم من قبول تلك الفكرة السامية عن أخوة ووحدة الشعوب التي ظهرت منذ وقت طويل، ودعا إليها أناس من كافة أنحاء العالم.

لو يتمكن الناس فقط من فهم أنهم ليسوا أبناء لأي وطن أو حكومة؛ بل أبناء لله، وبالتالي لا يمكنهم أن يكونوا عبيدًا ولا أعداء لأيٍّ من الناس، حينها سيتمكنون من القضاء على هذه المؤسسات المخبولة بأنفسهم... تلك المؤسسات التي لم يعودوا في حاجة إليها... تلك المؤسسات المهلكة التي جاءتهم منذ زمن بعيد، والتي ندعوها «الحكومات»، وحينها ستتلاشى كل هذه المعاناة وأعمال العنف وتلك الجرائم وذلك الإذلال وكل ما يلحقونه ببعضهم البعض.

١٠ مايو ١٩٠٠

* * *

# يا للعار!

في العشرينيات من قرننا الحالي[٢٧]، قرَّر ضباط سيمينوف[٢٨] ألا يستخدموا أي نوع من أنواع العقوبات الجسدية بين قواتهم، وكانوا من زهور ضباطنا اليانعة آنذاك، والجزء الأكبر منهم من الماسونيين، ثم أصبحوا بعد ذلك من الديسمبريين[٢٩]. بالرغم من درجة الانضباط الشديدة التي كانت مطلوبة آنذاك فقد سارت أمور قواتهم على نحو معتدل دون الحاجة إلى أي نوع من العقوبات الجسدية.

ذات مرة التقى أحد قادة قوات سيمينوف بسيرجي إيفانوفيتش مورافيوف، وهو واحد من أفضل الناس في زمانه، وربما في كل زمنٍ. حكى له القائد عن أحد جنوده، وكان لصًّا سكيرًا، قائلًا إنه من

(٢٧) القرن التاسع عشر، فالمقالة مكتوبة في عام ١٨٩٥

(٢٨) مدينة روسية تنتمي لقطاع نيجني جورود.

(٢٩) ثورة الديسمبريين أو انتفاضة الديسمبريين كانت ثورة في الإمبراطورية الروسية في ١٤ ديسمبر ١٨٢٥ . قاد ضباط الجيش الإمبراطوري حوالي ٣٠٠٠ جندي في احتجاج ضد تولي القيصر نيقولا الأول العرش بعد تنحي أخيه الأكبر قسطنطين بافلوفتش عن قائمة ولاة العهد. وبسبب حدوث هذه الأحداث في ديسمبر، سُمي المنتفضون بالديسمبريين. هدفت الحركة في الأساس لإحلال قانون ليبرالي بدلًا من حكم الاستبداد.

المستحيل ترويض هذا الجندي بأي طريقة سوى بالضرب العصي[٣٠]. لم يتفق معه سيرجي مورافيوف فيما ذهب إليه، واقترح أن يضم هذا الجندي إلى سريته.

تم النقل، وفي الأيام الأولى من النقل سرق الجندي الحذاء العسكري لأحد زملائه، وباعه وشرب بثمنه خمرًا. جمع سيرجي إيفانوفيتش السرية، وبعد أن جعل الجندي يتقدم عدة خطوات للأمام أمام بقية السرية قال له: «أنت تعرف أننا لا نعاقب في سريتي لا بالضرب بالعصي ولا بالجلد، وأنا لن أعاقبك. سوف أدفع مالًا من جيبي الخاص ثمنًا للحذاء الذي سرقته، ولكني أطلب منك –ليس من أجلي أنا، بل من أجلك أنت– أن تفكر جليًّا فيما صارت إليه حياتك، وأن تغيِّر منها». ثم أطلقه سيرجي إيفانوفيتش.

ثمل الجندي ثانية وتعارك مع زملائه، وفي تلك المرة أيضًا لم يعاقبه سيرجي إيفانوفيتش، بل اكتفى بمحاولة إقناعه قائلًا: «أنت تخطئ في حق نفسك خطأً عظيمًا. إن أصلحت من حال نفسك ستكون في حال أفضل كثيرًا، ولذلك أطلب منك ألا تعاود مثل هذه الأفعال مجددًا».

تأثر الجندي بشدة من هذه الطريقة الجديدة في التعامل، ومن ثم تغير تمامًا وأصبح نموذجًا يُحتذى به لبقية الجنود.

حكى لي ماتفي إيفانوفيتش تلك القصة، وهو شقيق سيرجي إيفانوفيتش، والذي يعتبر أن العقاب البدني هو أحد بقايا البربرية، وهو

(٣٠) كانت إحدى العقوبات الشهيرة للجنود في ذلك الوقت.

في هذا الأمر يشبه شقيقه وأفضل الناس في زمانه، وهو يرى أن العقاب البدني لا يجلب الخزي والعار لمن يتعرض للعقوبة وحده، بقدر ما يجلبها إلى القائم على العقاب، ولم يستطع أن يمسك نفسه عن البكاء وهو يحكي لي تلك القصة[٣١]، وكان من الصعب جدًّا لمن يسمع قصته أن يُمسك نفسه هو الآخر عن البكاء.

هكذا كان المثقفون الروس ينظرون إلى العقوبة الجسدية منذ خمسة وسبعين عامًا مضت. انقضت الأعوام، وها هم أحفادهم القضاة يجتمعون ويناقشون بهدوء ما إن كان يتوجب إجراء العقوبات الجسدية على البالغين من الناس أم لا، وكم ضربة يجب أن يتعرض لها هذا الشخص، الذي كثيرًا ما يكون أبًا، وأحيانًا ما يكون جدًّا. وتخرج التصريحات من قِبل أكثر التقدميين من هؤلاء الأحفاد الذين يشكلون أعضاء لجان الزيمستفو، ويتقدمون بالخطب والالتماسات التي يناشدون فيها عدم ضرب كافة الفلاحين، بل الاكتفاء فقط بإجراء العقوبات البدنية على مَن لم يُكمل تعليمه من أبناء الفلاحين.

من الواضح جدًّا حجم التغيير الكبير الذي طرأ على تلك الطبقات التي تدَّعى أنها قد نالت تعليمًا راقيًا. في العشرينيات كان الناس يعتبرون أن العقوبة البدنية أمرًا مخزيًا بالنسبة لهم، واستطاعوا فعلًا القضاء على هذه العقوبات داخل الجيش، حيث كانت تُفترض ضرورتها في هذا الوقت، أما معاصرونا فيطبقون العقوبة الجسدية بضمير صاف، ليس

(٣١) هناك حوادث شبيهة تحدث في زماننا هذا حتى الآن في بعض الجيوش العربية، وقد شهدت شخصيًّا بعضها.

فقط على الجنود، بل على كافة الناس الذين يشكلون طبقة معينة من الشعب الروسي، ويُصرِّحون بذلك بحذر ومكر في الاجتماعات وفي اللجان الرسمية مستخدمين كافة أنواع المكر الممكنة وغير الممكنة، ويقدمون الالتماسات للحكومة بشأن أن الضرب بالعصي قد لا يكون مناسبًا من الناحية الصحية، لذلك يجب الحد منه بشكل ما، وقد يكون من المفضل أن يقتصر على أبناء الفلاحين الذين لم يكملوا تعليمهم، أو حتى إعفاء الفلاحين من هذه العقوبة الذين نصَّ عليهم بيان الإمبراطور بمناسبة زواجه.

من الواضح إذنْ أن تغييرًا مريعًا قد حدث بين أوساط ذلك المجتمع الروسي المدعو «المجتمع الراقي»، وأكثر ما يثير الدهشة أن ذلك التغيير قد حدث في غضون الخمسة وسبعين عامًا، وخاصة في الخمسة وثلاثين عامًا الأخيرة منذ إلغاء القنانة[٣٢] بين تلك الأوساط التي كانت تعتبر عقوبة الجلد أو الضرب نوعًا من التعذيب البربري المريع. إنه

(٣٢) القنانة هو وضع اجتماعي اقتصادي لطبقة الفلاحين في ظل الإقطاع، كانت حالة من الرق أو العبودية المعدلة ظهرت أولًا في أوربا خلال العصور الوسطى. كان القن يجبر على العمل في حقول ملاك الأراضي، في مقابل الحماية والحق في العمل في الحقول المستأجرة. لم تكن القنانة تنطوي على عمل الحقول فقط، بل أيضًا مختلف الأعمال المتعلقة بالزراعة، مثل الحراجة والنقل (سواء البري أو النهري) والحرف اليدوية وحتى في الإنتاج. شكلت الضيع الإقطاعية خلال هذه الفترة الوحدة الأساسية للمجتمع، وكل من اللورد وأقنانه ملزمون قانونيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا. الأقنان الذين كان ملزمين بالعمل في الأرض؛ شكلوا الطبقة الاجتماعية الأدنى من المجتمع الإقطاعي. كما عرف القن بأنه رقيق على أرض سيد إقطاعي وتنتقل ملكيته من هذا السيد إلى أيما سيد آخر قد تؤول ملكية تلك الأرض إليه. ونشأ الإقطاع في أوربا من الرق الزراعي أيام الإمبراطورية الرومانية المتأخرة، وانتشر عبر أوربا حوالي القرن العاشر؛ وازدهر في أوربا خلال العصور الوسطى واستمر حتى القرن التاسع عشر.

تغيير ضخم فعلًا، لكنه في الاتجاه المناقض.

في أثناء هذه الأعوام، وبينما ازدادت هذه الطبقات فظاظة، وانحط مستواها الأخلاقي كثيرًا، حتى سمحوا لأنفسهم بكل هدوء بإدراج الجلد داخل بنود القانون، ارتفع المستوى العقلي والأخلاقي للفلاحين، حتى اعتبروا أن تعرضهم لمثل هذه العقوبات البدنية لا يشكل فقط تعذيبًا بدنيًّا، لكنه أيضًا يشكل مشكلة أخلاقية خطيرة.

سمعت وقرأت كثيرًا عن انتحار الفلاحين الذين كان من المزمع تعرضهم لعقوبة الضرب بالعصي. لا يمكنني إلا أن أصدق ذلك؛ لأني شاهدت بعيني كيف شحب وجه فلاح شاب عادي بدرجة مفزعة حينما كان في محاكمة وذُكِرت إمكانية تعرضه لعقوبة جسدية، وكيف فقد قدرته على التحكم في صوته، ومرة أخرى شاهدت فلاحًا يبلغ من العمر أربعين عامًا كان قد حُكِم عليه بعقوبة جسدية، فانخرط في البكاء عندما سألته ما إن كانت العقوبة قد نُفذِّت عليه حقًّا أم لا، وأجابني بالإيجاب.

أعرف أيضًا أحد الأشخاص الأجلاء من معارفي، وهو فلاح كهل، وحُكم عليه بالضرب بالعصي؛ لأنه تشاجر مشاجرة عادية مع ناظر الفلاحين دون أن يرى الأول تلك الشارة الرسمية التي كان يرتديها الناظر. أخذوا الفلاح إلى محكمة المقاطعة، ومن هناك اقتادوه إلى السقيفة حيث سيتم تنفيذ العقوبة. أحضر الحارس العصي، وعرُّوا الفلاح من ثيابه. قال الفلاح لأعلى رتبة موجودة بينما يرتعش جسده بالكامل:

- يا بارمن يرميلتش، أنت تعرف أن لديَّ ابنًا متزوجًا. أليست هناك أي طريقة يمكننا أن نتجنب بها الأمر؟ إنها خطيئة عظيمة.

فأجاب الرجل بارتباك:

- إنها أوامر السلطات يا بتروفيتش. كنت أتمنى أن أجنبك ذلك، ولكن ما باليد حيلة.

خلع بتروفيتش ثيابه، واستلقى، وقال:

- لقد تحمل المسيح الآلام، وقال لنا أن نتحملها نحن أيضًا.

طبقًا لرواية الكاتب الذي حضر الحادثة ورواها لي، فقد ارتعشت أيدي الجميع، ولم يستطيعوا جميعًا أن ينظروا إلى أعين بعضهم البعض مباشرة، شاعرين أنهم يقومون بخطيئة مريعة. هؤلاء هم الناس الذين يعتبر المثقفون أنه من اللازم، بل وقد يكون من النافع أيضًا أن يتعرضوا للضرب بالعصي كالحيوانات، ولكن حتى الحيوانات لا يضربونها بهذه الطريقة.

من أجل خير بلدنا المسيحي المتنور يجب إذنْ تطبيق هذه العقوبة الفظة المريعة، لا على جميع أعضاء هذا المجتمع المسيحي المتنور، بل فقط على إحدى شرائحه؛ الشريحة الأكثر كدحًا وفائدةً من بين جميع الشرائح... الشريحة التي تتمتع بأكبر قدر من الوعي الأخلاقي، والأكبر عددًا عن بقية الشرائح!

بعد مرور تسعة عشر قرنًا على مجيء المسيح، لم تستطع أعلى هيئة حكومية بإمبراطورية مسيحية هائلة أن تجد إجراءً أكثر فائدة وعقلانية وأخلاقية ضد انتهاك القوانين سوى تعرية مَن ينتهكون القوانين من

ثيابهم -حتى وإن كانوا كبار السن- وجعلهم يستلقون على الأرض وضربهم بالعصي على مؤخراتهم[٣٣].

يحظى أولئك الناس الذين يعتبرون أنفسهم أكثر الناس تنويرًا بالاحترام التام... إنهم أحفاد أولئك الذين ألغوا العقوبات الجسدية منذ خمسة وسبعين عامًا. وهم يسألون الآن السادة الوزراء بكل جدية أن يعملوا على تقليل العقوبات البدنية على البالغين من الشعب الروسي؛ لأن الأطباء قد اكتشفوا أنه من غير الصحي ضرب أولئك الذين أنهوا تعليمهم، وأضافوا أنه يجب تجنيب تلك العقوبة للفلاحين الذين كانوا سيتعرضون لها، ولكن الإمبراطور قد وعد بتجنيبهم ذلك بمناسبة زواجه. ولكن حكومتنا الحكيمة تلتزم الصمت أمام مثل هذه التصريحات، بل وتمنعها أحيانًا.

هل يمكن فعلًا أن يتقدم أحد بالالتماسات من أجل مسألة كهذه؟ هل يمكن أن تكون القضية مثارًا حتى للنقاش؟ هناك بعض التصرفات التي تقوم بها مجموعات معينة من الناس أو بعض الحكومات يكون من المستحيل مناقشتها بهدوء وتروٍّ، ولا يكون أمامنا شيء سوى إدانتها بشكل كامل. واحدة من هذه المسائل والقضايا هي السماح بالضرب بالعصي للبالغين من طبقات معينة من الشعب الروسي في زماننا هذا بين شعبنا المسيحي المتنور الوديع. من المستحيل أن نناقش سياسات

(٣٣) ولماذا هذه الطريقة الفظة الغبية التي تسبب ألمًا مبرحًا، وليست طريقة أخرى كالوخز بالإبر مثلًا أو الضرب على الأكتاف أو أي موضع آخر من الجسد؟ لماذا لا يضربون على الركب أو يغلقون الأيدي بعنف أو يضربون على الأقدام أو أي طريقة أخرى؟!! (المؤلف).

الحكومة من الناحية الصحية من أجل وقف هذه الجرائم التي تنتهك كافة القوانين الإلهية والإنسانية، ولا حتى من الناحية التعليمية أو فيما يخص بيان الإمبراطور. لا يجب أن نتحدث بتاتًا عن مثل هذه الأمور، بل نتحدث عن جوهر الموضوع، ولا بد أن يكون حديثنا مشوبًا بالتقزز والهلع. إن قدمنا الالتماسات من أجل عدم ضرب المؤخرات العارية لشريحة معينة من الفلاحين أكملت تعليمها، فهذا يشبه تمامًا أن يكون لدينا قانون يقضي بمعاقبة الزوجات الخائنات بتعريتهن والسير بهن في الشوارع، فنطلب من الحكومة أن تنفذ هذه العقوبة فقط على الزوجات اللاتي لا تستطيعن حياكة الجوارب أو شيئًا من هذا القبيل.

لا يمكن في مثل هذه الأمور أن نقدم بعض الالتماسات الدالة على الاحترام، ولا أن نقف على أطراف أصابعنا كي نطلب منهم ذلك، ولا أي شيء من هذا القبيل! مثل هذه الأفعال لا يجب أن تُقابل سوى بالفضح والكشف. يتوجب علينا أن نفضح مثل هذه الأفعال؛ لأنها عندما تكتسب إطارًا قانونيًّا أو شرعيًّا، فمن شأن هذا أن يصيبنا جميعًا بالخزي؛ نحن الذين نعيش في هذه الدولة التي تقوم بمثل هذه الأفعال. إن كان ضرب الفلاحين إجراءً قانونيًّا، فهذا يعني أن هذا القانون قد صدر لصالحي ومن أجل الحفاظ على هدوئي وسلامي، ومن المستحيل أن نسمح بذلك. لا أريد ولا حتى أستطيع أن أعترف بمثل هذا القانون الذي يخرق كافة القوانين الإلهية والإنسانية، ولا أستطيع أن أتخيل نفسي متضامنًا بأي شكل من الأشكال مع أولئك الذين يناصرون هذه الجرائم في كتاباتهم.

إن تحدثنا عن مثل هذه البشاعة، فيمكن أن نقول شيئًا واحدًا فقط:

لا يمكن لقانون كهذا أن يُوجد، وإنه ما من مراسيم أو مهور أو أختام أو توصيات طويلة يمكنها أن تُحوِّل جريمة ما إلى أمر قانوني؛ بل الأمر على النقيض من ذلك، فإن سمحنا بعقوبة تطبق على البالغين من شريحة من أفضل شرائح المجتمع، فتخضع هذه الشريحة لطبقة النبلاء والموظفين، وتتعرض لعقوبة بذيئة بربرية منفرة، فهذا يشير بشكل واضح إلى أننا ليس لدينا قوانين إذنْ، بل مجرد سلطة استبدادية مقيتة متوحشة طالما من الممكن تقنين مثل هذه الجرائم.

إن كان علينا أن نتحدث فعلًا عن العقوبة الجسدية التي تتم على شريحة معينة من الفلاحين، فعلينا إذنْ ألَّا نؤيد أي حق لمجلس الزيمستفو[٣٤]، وعلينا ألا نتقدم بشكوى للمحافظ الذي قدَّم عريضة

(٣٤) تعني الحكم الذاتي. كان ألكسندر الثاني قبل اغتياله قد استحسن مشروع الدستور الذي وضعه الكونت لوريس ميليكوف والذي قضى بتحديد قيود على الحكم القيصري المطلق ومشاركة ممثلي الحكم الذاتي المحلي (زيمستفا) في ادارة الدولة. لكن الامبراطور الجديد ألكسندر الثالث أقال، وبضغط من معلمه بوبيدونوستسيف، كل من له علاقة بمشروع الدستور واتخذ الاجراءات الرامية الى الحفاظ على النظام والهدوء الاجتماعي، بما فيها منح الشرطة في المحافظات العشر حق التصرف دون ان تخضع لاوامر السلطة المحلية والمحاكم والنيابة العامة. كما منحت السلطات في الاقاليم حق تهجير الأشخاص غير المرغوب بهم وإغلاق المؤسسات التعليمية ووسائل الاعلام والمؤسسات الصناعية والتجارية، الأمر الذي كان يعني في واقع الامر فرض الأحكام العرفية التي ظلت سارية المفعول في روسيا حتى عام ١٩١٧ بالرغم من ان إعلان تلك الاجراءات كان مؤقتًا. في الوقت نفسه تم اعتماد بعض القوانين التي من شأنها تحسين الوضع الصعب الذي كان الفلاحون الروس يواجهونه بعد إصلاح عام ١٨٦١ وإلغاء نظام القنانة في روسيا، بما فيها تأسيس مصرف الفلاحين لعموم روسيا ومنح الفلاحين سلف مالية وتمكينهم من شراء العقارات. فيما تم تشديد الرقابة على الفلاحين، وشهد إصلاح المحكمة تراجعًا. ضم قانون مؤسسات الزيمستفا (الحكم الذاتي) الجديد أحكاما تزيد من نسبة تمثيل النبلاء ومالكي العقارات في إدارتها. تم إلغاء استقلال الجامعات وتم إخضاع المدارس الابتدائية لإدارة الكنيسة الارثوذكسية الروسية. وفرضت الحكومة قيودًا على تمثيل اليهود في مؤسسات التعليم العالي (بنسبة لا تزيد عن ٣٪ في جامعات العاصمتين) واتخذت الاجراءات الرامية الى تهجير بعضهم من المدن الكبرى الى اقاليم البلاد الغربية.

يطلب فيها عدم ضرب الفلاحين المتعلمين، وعلينا ألا نشكو للوزير، ولا لمجلس الوزراء، ولا إلى مجلس الزيمستفو بتامبوف[٣٥]، بل يجب علينا ألا نكف عن الصياح والصراخ قائلين إن تطبيق مثل هذه العقوبات على البالغين من شريحة من أفضل شرائح المجتمع الروسي أمر مخزٍ لنا جميعًا سواء شاركنا فيها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وهي العقوبات التي كففنا منذ وقت طويل عن استخدامها مع الأطفال.

لقد صفح بتروف عن معذبيه... بتروف الذي رشم علامة الصليب واستلقى كي يتلقى ضربات العصي، وقال: «لقد تحمل المسيح الآلام، وقال لنا أن نتحملها نحن أيضًا»، وظل كما هو بعد أن انتهى الأمر. التغير الوحيد الذي طرأ عليه كان شعوره الجديد بازدراء تلك السلطة التي يمكن أن تسمح بمثل هذه العقوبات. ولكن الأمر ليس كذلك مع كثير من الشباب، فمثل هذه العقوبات يمكن أن تُخفض من حسهم الأخلاقي وتفضي بهم إلى حضيض اليأس، وأحيانًا أخرى إلى الوحشية. وحتى هذا الأمر لا يشكل الضرر الرئيس لمثل تلك الممارسات البربرية، فالضرر الرئيس يتمثل في الحالة الروحية لأولئك الأشخاص الذين يسمحون بمثل هذه الممارسات ويشتركون فيها ويصفونها بأنها قانونية... أولئك الذين يهددون الآخرين بالضرب، وكل مَن على قناعة كاملة بضرورة هذه الممارسات من أجل حياة حسنة صالحة. يا لحجم التشوه الأخلاقي اللازم لعقول وقلوب أولئك الناس، والذين كثيرًا ما يكونون شبابًا، ويقولون إنه يمكن أن نعاقب الفلاح بالضرب بالعصي،

(٣٥) مقاطعة روسية تتجاوز في سلطتها سلطة المجلس المحلي الصغير.

وأن الأمر هكذا أفضل للفلاح، وقد سمعتهم بنفسي ورأيتهم أيضًا من واقع حياتي العملية.

مثل هؤلاء هم أكثر مَن يثير الشفقة بسبب درجة التوحش التي سقطوا فريسة لها، وغرقوا في مياهها الآسنة.

إن تحرير الشعب الروسي من فساد مثل هذه الجرائم المقننة عمل ذو أهمية بالغة من كافة النواحي. لن يحدث مثل هذا التحرير عن طريق استثناء مَن أنهى تعليمه أو أي فئة أخرى من الفلاحين من هذه العقوبة، ولا حتى إن أعفينا الفلاحين جميعًا من العقوبة باستثناء فلاح وحيد، ولكن التحرير الحقيقي سوف يحدث عندما تعترف الطبقات المثقفة بخطيئتها، وتقدم عنها توبة باتضاع.

١٤ ديسمبر ١٨٩٥

* * *

# فلسفة اللا فعل

رأى محرر المجلة الباريسية الشهيرة **Revue des revues** -كما كتب في خطابه- أن آراء اثنين من كبار الكتاب المعاصرين عن وضع الفكر المعاصر ربما تحوز اهتمامي، لذا أرسل لي هذين المقتطفين من الجرائد الفرنسية. تحوي الأولى حديث زولا[٣٦]، بينما تضم الأخرى خطابًا من دوماس[٣٧] إلى محرر **Gaulois**[٣٨] . كل الشكر إلى السيد سميث على إرساله له هذين المقتطفين. صدر كلا المقتطفين عن كاتبين لامعين معاصرين، والأهم من ذلك أن التناقض البادي بينهما يثير اهتمامًا كبيرًا، وأنا أريد أن أناقش بعض الأفكار التي ناقشها المقتطفان.

من الصعب أن نجد في الأدب المعاصر تعبيرًا عن هذين القوتين الأساسيتين واللتين تتألف منهما محصلة الحركة الإنسانية في صياغة وجيزة قوية وواضحة كما في هذين المقتطفين. أما القوتان المذكورتان فهما: قوة القصور الذاتي الميتة التي تكافح من أجل أن تُبقي الإنسانية

(٣٦) إميل زولا: أديب وروائي فرنسي من ألمع النجوم التي تألقت في سماء الأدب العالمي في القرن التاسع عشر.

(٣٧) كاتب فرنسي شهير.

(٣٨) اسم المجلة يعني حرفيًّا «الغال أو بلاد الغال».

في طريقها الذي سلكته من قبل كما هي، وقوة العقل الحية التي تجذب الإنسانية صوب الضوء.

هذا حديث زولا كاملًا:

## إلى الشباب

«أيها السادة،

لقد أسعدتموني وشرفتموني باختياري لأترأس هذا الاجتماع السنوي. ليست هناك رفقة أكثر فتنة من رفقة الشباب، والأهم من ذلك أنه ما من حضور أكثر عذوبة من حضور الشباب، والذي يمكن للمرء أن يكشف أمامه مكنونات قلبه والرغبة تملؤه في أن يبادله الحضور الحب وينصتوا إليه جيدًا.

ولكن يا للحسرة! لقد وصلت فعلًا إلى هذا العمر الذي يتحسر فيه الإنسان على انقضاء الشباب، ويبدأ في الاهتمام بالأجيال الصاعدة الآتية من بعده. هذه الأجيال هي التي ستحكم علينا، وفي الوقت نفسه ستُكمل المسيرة.

يمكنني أن أستنشق فيهم عبير المستقبل، وكثيرًا ما أطرح على نفسي سؤالًا والقلق يساورني: ما الذي سيبقون عليه من إرثنا وما الذي سيرفضونه؟ وما الذي ستصبح عليه أعمالنا بين أيديهم، فلا شيء من أعمالنا يمكنه أن يستمر إلا ما سيرضون به، فيفسحون له المكان حتى يصل إلى منتهاه. ولهذا فإني أتابع حركة الفكر بين شبابنا المعاصر بكل حماسة، وأطَّلع على الصحف والمجلات التقدمية، محاولًا أن أتعرف

على الروح الجديدة، ومدارس الفكر المعاصرة، وأن أدرك في نهاية الأمر إلى أين تمضون جميعًا... أنتم الذين تشكلون عقل وإرادة المستقبل. الحقيقة أيها السادة أن الأنانية تلعب دورها في الأمر... لن أُخفي عليكم ذلك. أنا أشبه عاملًا أنهى بناء منزل أراد أن يقضي فيه البقية القليلة المتبقية من عمره، شاعرًا بالقلق من التغيرات الممكنة التي يمكن أن تلحق بحالة الطقس. أليس من الممكن أن تضر الأمطار بحوائط بنايته؟ أليس من الممكن أن تهب فجأة ريح شمالية تقتلع سقف المنزل من فرط قوتها؟ الأهم من ذلك هل قام ببناء منزل يمكنه أن يصمد في وجه العواصف؟ هل دعَّم البناء بما يكفيه لمواجهة مثل هذه الظروف السيئة؟ لا أقول ذلك بغرض أن أقول إنه يمكن لأي شيء من عمل الإنسان أن يكون كاملًا ويستمر إلى الأبد، فأعظم أعمال البشر لا تتواءم سوى مع لحظة واحدة وسط التطور المستمر للعقل الإنساني. يكفينا تمامًا أن نكون حاملي الكلمة في جيل من أجيال الإنسانية لفترة قصيرة من التاريخ البشري. وكما أنه من المستحيل أن نُكبِّل الأدب بالقيود لأن كل شيء يتطور دون توقف، ويبدأ من جديد، فعليكم أيضًا أن تكونوا على أهبة الاستعداد لرؤية الجيل الجديد الذي سيخلفكم، والذي قد يجلب النسيان إلى ذكراكم. لا أريد القول بتاتًا إن المحارب القديم القابع بداخلي لا يشعر بالرغبة في مقاومة التغييرات التي تهاجم عمله، ولكن في الحقيقة فإني أشعر بالفضول أكثر من الغضب فيما يخص هجوم المئوية القادمة علينا... إنه شعور أقوى من القلق الشخصي. فلنتلاشَ جميعًا.. أنا وجيلي كله إن كنا لا نفعل شيئًا سوى سد هذه الثقوب التي

تملأ الطريق صوب الضوء، والذي تتبعونا صوبه.

أيها السادة، دائمًا ما أسمع هذه المناقشات التي تصرح بأن الوضعية[٣٩] تلفظ أنفاسها الأخيرة، وأن المذهب الطبيعي[٤٠] قد انتهى فعلًا، وأن العلم قد أشهر إفلاسه لأنه لم يستطع أن يمد الإنسانية لا بالأخلاق ولا بالسعادة، وهو ما كان قد وعد به سابقًا. أنتم تدركون جيدًا أني لم آخذ على عاتقي أن أحسم الأمر هنا حول قضايا عظيمة من هذا القبيل. أنا شخص محدود المعرفة جدًّا، وليس لديَّ الحق في أن أتحدث باسم العلم والفلسفة. ببساطة إن كنتم راغبين في معرفة ذلك، فأنا ببساطة روائي... كاتب، أحيانًا ما يستطيع أن يتنبأ بالقادم، وكل أهميتي تنبع في الأساس من أني قد قمت بكثير من الملاحظات والأعمال. وقد سمحت لنفسي أن أحدثكم عن جيلي الذي وصل أعضاؤه من العمر الآن إلى الخمسين عامًا كمجرد شاهد عيان، والذي ستدعوه أجيالكم سريعًا «أسلافنا».

---

(٣٩) الفلسفة الوضعية: هي إحدى فلسفات العلوم التي تستند إلى رأي يقول إنه في مجال العلوم الاجتماعية -كما في العلوم الطبيعية- فإن المعرفة الحقيقية هي المعرفة والبيانات المستمدة من التجربة الحسية، والمعالجات المنطقية والرياضية لمثل هذه البيانات والتي تعتمد على الظواهر الطبيعية الحسية وخصائصها والعلاقات بينهم والتي يمكن التحقق منها من خلال الأبحاث والأدلة التجريبية. كما تعد قسم من أقسام «نظرية المعرفة». نشأت كنقيض لعلوم اللاهوت والميتافيزيقيا الذين يعتمدان المعرفة الاعتقادية غير المبرهنة. وضع الفيلسوف والعالم الاجتماعي الفرنسي الشهير أوغست كونت هذا المصطلح في القرن التاسع عشر وهو يعتقد بأن العالم سيصل إلى مرحلة من الفكر والثقافة بأنه سوف تنفي كل القضايا الدينية والفلسفية وسوف تبقى القضايا العلمية التي أثبتت بالحس والخبرة الحسية أو بالقطعية والوضعية، وفي ذلك العصر سوف يزول الدين من ساحة المجتمعات البشرية.

(٤٠) مذهب نشأ في فرنسا في القرن الثامن عشر، وذهب أصحابه إلى القول بحرية الصناعة والتجارة وبأنّ الأرض هي مصدر الثروة كلها.

في الأيام القليلة الماضية شعرت بتعجب شديد عند افتتاح أحد المعارض بساحة دي مارس[٤١]. كثيرًا ما نفترض أن اللوحات الفنية جميعًا تشبه بعضها البعض، ولكن هذا غير حقيقي، فعملية التطور تحدث ببطء، ولكن كم كان المرء سيشعر بالدهشة إن كان بإمكانه أن يعيد تشييد المعارض القديمة! فيما يتعلق بي، فأنا أذكر تمامًا المعارض الأخيرة، الأكاديمية منها والرومانسية التي أقيمت في عام ١٨٦٣. لم يكن العمل في الهواء الطلق قد نجح بعد، وكانت هناك مسحة عامة من اللون الأحمر. كان الأمر نوعًا من الجنون، خاصة مع سيطرة تلك الألوان القريبة من حمرة المغيب. ثم مر خمسون عامًا وانتصر مانيه[٤٢] وانتشر تأثيره على نطاق واسع، وأتذكر تلك المعارض الجديدة حيث كانت تلمع تلك الألوان المشرقة كالشمس. بدا الأمر وكأنه فيضان من الشمس، واهتمام كبير بالحقيقة حوَّل كل إطار نافذة إلى فتحة واسعة على عالم الطبيعة الغارق في لمعان ساطع. بالأمس، وقد مر خمسون عامًا، كان بإمكاني أن أرى كيف ظهر بين هذه الأعمال المشرقة شيء مشوب بالغموض الصوفي. هناك نفس الاهتمام بالرسم، ولكن الواقع نفسه قد تغير، فقد استطالت الأجسام بطريقة ما، وأثارت الحاجة إلى الأصالة والإبداع خيال الفنان إلى ما يتجاوز حدود الحلم.

---

(٤١) ساحة دي مارس هي ساحة عامة خضراء، تقع بالحي السابع من مدينة باريس، في المساحة المحصورة بين برج إيفل والمدرسة العسكرية علي طول المحور الممتد جنوب- شرق/ شمال- غرب. وتعتبر من أشهر الساحات في فرنسا؛ ليس فقط لما تعطيه من جمال بصري علي طول هذا المحور، ولكن أيضًا نظرًا لما شهدته من أحداث كثيرة منذ إنشائها.

(٤٢) إدوارد مانيه: هو رسام فرنسي يعتبر أحد رواد المدرسة الانطباعية.

إن كنت أحدثكم عن هذه المراحل الثلاث في الفن المعاصر، فذلك بسبب أنها تبدو لي جميعًا أنها تُعبِّرُ بوضوح عن حركة زماننا. في الحقيقة لقد حاول جيلي من بعد الجيل الشهير الذي كان يتبعه، أن يفتح النافذة على آفاق الطبيعة على آخرها، كي يُعبِّر عن كل ما يراه ويقوله. لقد وصلت الفلسفة الوضعية والعلم التحليلي والتجريبي إلى أقصى تحقق له بين كنف جيلنا، حتى بين غير الواعين بذلك. كنا متخمين بالعلم الذي يحيط بنا من كافة النواحي... لقد عشنا في كنفه، وتنفسنا هواء روح العصر. الآن يمكنني الاعتراف بذلك: لقد كنت منشقًّا عمن حولي، وكنت أحاول أن أنقل إلى الأدب منهجًا علميًّا صارمًا، ولكن أين هو هذا الإنسان الذي لا يتجاوز في حربه أقصى مما يجب ويكتفي بالنصر دون أن يتجاوز حدوده؟ ومع ذلك فإني لا أشعر بالرثاء على شيء، وأواصل إيماني بقوة العاطفة التي تريد وتفعل. يا لحجم الحماسة والآمال التي لدينا! نود أن نعرف كل شيء، ونستطيع كل شيء، وكذلك ننتصر على كل شيء! نود أن نجعل الإنسانية أكثر رفعة وسعادة بفضل الحقيقة. وهنا يأتي دوركم أيها السادة الشباب كي تعتلوا خشبة المسرح. أقول: الشباب، وهو تعبير غامض بعيد، وعميق كالبحر؛ لأنه ببساطة أين هو الشباب؟ كيف سيصير جيل الشباب في واقع الأمر؟ ومَن هو المدعو للتحدث باسم هذا الجيل؟ عليَّ أن أعالج هذه الأفكار التي قمت بطرحها هنا، ولكن إن كانت هذه الأفكار لا تروق لكثيرين منكم، فإني أرجو هؤلاء مسبقًا أن يعذروني، وأحيلهم إلى أولئك الذين خدعونا بحقائق مشكوك فيها ربما تتفق أكثر مع رغباتهم أكثر مما تتفق مع الواقع.

هكذا يؤكدون لنا أيها السادة أن جيلكم يختلف تمامًا عن جيلنا، وأن جيلكم لم يعد يتعلق بتلك الآمال التي علقناها على العلم، وأنكم قد اكتشفتم خطورة اجتماعية وأخلاقية حقيقية في تشييد كل شيء على أساس العلم، وأنكم قد اتخذتم قرارًا بالعودة إلى الماضي كي تستطيعوا العثور على إيمان حي حقيقي بين بقايا معتقدات الأسلاف الإيمانية. ليس الحديث بالطبع عن قطيعة كاملة مع العلم، فقد افتُرض أنكم تقبلون كافة نتائجه ومكتسباته، وأنكم تهدفون أيضًا إلى توسيع مجال هذه المكتسبات، ولكن بافتراض أنكم تدركون الحقائق المثبتة، وأنكم سوف تبذلون الجهود من أجل أن تجعلوها متوافقة مع عقائد القدماء. في واقع الأمر فإن العلم يقاوم الإيمان. إنه يشق طريقه ليزيحه جانبًا ويستولي على مكانه. لقد كان العلم ببساطة بمثابة تدريب للعقل وبحوث افتراضية مسموح بها طالما لم تمس الظواهر الخارقة ومواضيع ما بعد الموت. يقولون إن التجربة قد أُجريت، وإن العلم ليس بمقدوره أن يعيد إسكان السماء الخربة، ولا بمقدوره أن يعيد السعادة لتلك الأرواح التي حطَّم سلامها. لقد مضى زمان هذا الإجلال الكاذب الذي كان يتمتع به العلم، وعليه الآن أن يتسم بالتواضع؛ لأنه ليس بمقدوره أن يعرف كل شيء، وليس بمقدوره أن يغني كل شيء ويعالج كافة المشاكل. وإن كانت الطبقات المثقفة من الشباب ليس بمقدورها بعد أن تُلقي بكتبها وتفارق معلميها، إلا أن قديسين وأنبياء قد ظهروا بالفعل بين الناس يشيدون بفضيلة الجهل ووضوح البساطة، ويعلنون حاجة الإنسانية المثقفة العاجزة إلى اختبار الشعور بالتعافي في أعماق قرية

ما قبل التاريخ التي سبقت كل نوع من أنواع المجتمعات أو المعرفة.

أنا لا أنكر تلك الأزمة التي نُعاني منها الآن؛ إنها أزمة السخط والكلل في نهاية هذا القرن، بعد كل هذا العمل الجبار والمحموم، الذي كان يهدف إلى معرفة وإعلان كل شيء. لقد بدا أن العلم الذي حطَّم ملامح العالم القديم لا بد وأن يعيد بناء العالم على مثال جديد ندركه جميعًا... لا بد وأن يبني العالم ثانية على أساس من العدالة والسعادة. لقد انتظرنا عشرين عامًا... انتظرنا خمسين؛ بل ومائة عام، وعندما رأينا أن العدالة لم تَسُدْ على عالمنا، وأن السعادة لم تحل على عالمنا نفد صبر الكثيرين، وسقطوا في قاع اليأس، وأنكروا أننا يمكننا أن نصل إلى السعادة عن طريق المعرفة. إنها ظاهرة معروفة، فلا فعل دون رد فعل، ونحن الآن نشاهد نتيجة حتمية للإنهاك الذي نشعر به الآن، وهو نتاج حتمي لرحلتنا الطويلة. الناس جالسون على أطراف الطرق، يتطلعون إلى بداية القرن الجديد الذي ينبسط أمام أعينهم، وقد سقطوا في هوة اليأس من الوصول إلى أي هدف من أهدافهم... وقد خامرتهم الشكوك حتى بشأن الطريق نفسه الذي يسلكون فيه، ويشعرون بالأسف لأنهم لم يستلقوا في الحقول إلى الأبد. إلى أين يمكن أن يذهب المرء إن كان هدفه يبتعد عنه باستمرار؟ ما المعرفة التي يمكنه أن يحصل عليها إن كان لا يمكنه أن يعرف كل شيء؟ من الأفضل إذنْ أن يظل المرء في بساطته الطاهرة، وسط هذه الحالة الطفولية من الجهل. وهكذا يبدو للناس أن العلم الذي كان قد وعدهم بالسعادة قد أشهر إفلاسه.

ولكن هل حقًّا وعدنا العلمُ بالسعادة؟ أنا لا أعتقد ذلك. لقد وعدنا العلم بأن يمدنا بالحقيقة، والسؤال هو: هل يمكن أن ننال سعادتنا من الحقيقة؟ لا شك أننا في حاجة إلى جرعة ضخمة من الرواقية؛ حتى نشعر بالرضى من الحقيقة، وإنكار كامل للأنا، وإلى رضى بالعقل، وهو الأمر الذي لا يمكننا أن نجده سوى في عدد قليل جدًّا من الناس. ولكن يا لصرخة اليأس التي تخرج من معاناة الإنسانية في ذلك الوقت! كيف يمكننا أن نحيا دون أكاذيب وأوهام؟! إن لم يكن هناك عالم آخر حيث تسود العدالة، وحيث ينال الأغنياء العقاب، والفقراء الثواب، فكيف يمكننا أن نعيش دون أن نشعر بالعذاب من هذه الحياة الإنسانية المقززة؟ الطبيعة قاسية وغير عادلة، والعلم يبدو كما لو أنه يقودنا صوب حقيقة سيادة القوة القبيحة، وهكذا يتهدم أي نظام أخلاقي، وستتجه المجتمعات صوب الاستبداد. ولكنا في قلب رد الفعل الحادث هذا، ووسط هذا الإنهاك الناجم عن كثرة المعارف التي أتحدث عنها، ثمة تراجع أيضًا أمام الحقيقة يتم تفسيره على نحو سيئ، ويبدو أمام أعيننا أمرًا قاسيًا، فهي لم تتعود على إدراك هذه القوانين والنفاذ إلى كنهها. لا... لا... فلنعد إلى حلمنا الهادئ الغارق وسط ظلمات الجهل!

الحقيقة اتجاه فاسد، وعلينا أن نقتلها وننكرها، فما من شيء لدينا سوى الجريمة والفساد، والناس يلقون بأنفسهم في قلب الحلم، وما من خلاص سوى لدينا سوى في مفارقة هذا العالم والأمل في عالم آخر بعد الموت نحظى فيه في النهاية بالأخوة والعدالة.

هذه هي الدعوة اليائسة إلى السعادة التي يُمكننا أن نسمعها اليوم، وهي تؤثر فيَّ بشدة. ويبدو أنها تصدر من جميع البلدان كصرخة بائسة وسط حركة العلم الهائلة التي لا تتوقف عجلتها عن التحرك. كفانا من الحقيقة، ولندع أنفسنا للأوهام. لن ننال الهدوء إلا عندما نحلم بما هو غير موجود ونُحلِّق في سماء الأبدية، وهناك فقط يمكن لهذه البراعم الغامضة أن تزدهر، ويُهدِّئ عبيرها من ألم معاناتنا الشديدة. وقد استجابت الموسيقى إلى هذا النداء، وهكذا يكافح الأدب من أجل إشباع هذه الحاجة الجديدة، ويُشكل الفن التشكيلي أسلوبًا جديدًا. لقد حدثتكم عن المعرض الذي افتُتِح في ساحة دي مارس، وبإمكانكم أن تشاهدوا هناك ازدهار براعم الأسلوب القديم في الفن التشكيلي في النوافذ، وصور العذراء التي تبدو نحيلة شاحبة، ومناظر غارقة في ظلال باهتة، ووجوهًا ناتئة العظام ذات ملامح بدائية. كل هذا عبارة عن رد فعل ضد المذهب الطبيعي الذي مات ودُفِن كما يقولون لنا. ولكن الحركة مستمرة دون شك؛ لأنها قد أخذت على عاتقها مهمة التعبير عن كافة تجليات الروح، ولا بد أن نضعها في اعتبارنا وندرسها ونوضحها إن أردنا ألا نقع فريسة لليأس من الغد.

من جانبي أيها السادة، ككهلٍ وضعي صلب، فأنا أرى في ذلك مجرد مرحلة توقف لا مفر منها وسط رحلة من التقدم. وفي الحقيقة ما من توقف فعلي؛ لأن مكتباتنا ومعاملنا ومدرجاتنا ومدارسنا لم تفرغ من طلابها. ما يشي إليَّ أيضًا بالثقة هو أن تربتنا الاجتماعية لم تتغير، فقد حافظت على نفسها لتبقى تربة ديموقراطية كما كانت تنمو عليها براعم

أعوامنا. كي يتمكن نوع مختلف من الفن أن يزدهر، وحتى يتلاشى إيماننا بحركة الإنسانية، فلا بد لهذا الإيمان الجديد من تربة مختلفة يمكنه أن ينمو فيها، فلا يمكن لمجتمع جديد أن ينشأ دون تربة جديدة يتمكن فيها الإيمان من الانبعاث ثانية، لكننا لا يمكننا أن نخرج بشيء من تلك الأديان الميتة سوى ببعض الأساطير.

ولذلك فإن القرن الجديد لن يكون سوى تأكيد لاندفاعنا في طريقنا صوب العلم والديموقراطية. كل ما يمكنني أن أؤكده هو أننا قد حددنا كثيرًا من آفاق الأدب.

أشعر بشكل شخصي بالأسف أني كنت منشقًّا في مجال الفن، ولا أريد شيئًا سوى التمسك بالحقائق المثبتة. أما اللاحقون لي فقد عملوا على توسيع آفاق الفن ثانية ليشمل الأسرار الغامضة، وحسنًا فعلوا. فمن بين الحقائق الراسخة التي كشفها لنا العلم والتي ستخلص عالم الغد من قبضة المجهول ثمَّ حقل غير محدد من الشكوك والأبحاث التي تنتمي إلى الأدب والفن كما يبدو لي.

وهناك يمكننا أن نقوم بدورنا كطليعة تقدمية في تفسير حركة هذه القوى المجهولة لأنفسنا ولعقولنا. فما هو المثال والنموذج سوى أمر لا يمكن تفسيره، وهو في ذلك شأنه شأن هذا العالم غير المحدود الذي نجد أنفسنا غارقين بداخله دون أن ندركه حقًّا. وإن كان بمقدورنا أن نتخذ بعض القرارات التي من شأنها أن توضح ما هو غامض، فهل يمكن أن نسمح لأنفسنا بالشك في هذه القوانين التي نعرفها جيدًا ونعتبرها على غير ما هي عليه ومن ثم ننكرها؟ لا شك أنه كلما يتقدم

العلم كلما يتراجع المثال، ويبدو لي أن معنى الحياة الوحيد يكمن في تلك الفرحة الطبيعية التي يجب أن نجدها في الحياة، والتي نكتسبها عبر انتصاراتنا البطيئة، حتى وإن كان لدى المرء هذا اليقين الكئيب من أننا لا يمكننا أن نعرف شيئًا أبدًا.

وفي هذه الأوقات الغامضة التي نحيا فيها الآن أيها السادة، وفي قلب الشعور بالإنهاك والبحث المستمر ظهر رعاة الروح الذين ساورهم القلق وعرضوا بكل حمية الإيمان على جيل الشباب. إنه عرض كريم، ولكن هذا الإيمان للأسف قد تغير وتم تحريفه بشكل يتسق مع النبي الذي يعرضه. لدينا أنواع كثيرة من الأنبياء، ولكن لا يبدو ولا واحد منهم واضحًا لي أو حتى يمكنه أن يتخذ شكلًا محددًا. إنهم يرجون منكم أن تؤمنوا، دون أن يقولوا بوضوح ما الذي يجب عليكم أن تؤمنوا به تحديدًا. قد يكون من المستحيل أن يقولوا لكم تحديدًا ما الذي يجب عليكم الإيمان به، وقد يكونون لم يتخذوا قرارهم بعد بشأن ذلك الأمر. إنهم يدعونكم إلى الإيمان كي تتمتعوا بفرحة الإيمان، والأهم من ذلك كي تتعلموا الإيمان. الدعوة ليس خاطئة في حد ذاتها، فلا شك أننا سوف ننعم بسعادة وفيرة تخت مظلة يقينية الإيمان، حتى إن يكن هناك وجود حقيقي لها، ولكن المشكلة كلها في أن الإنسان لا يمكنه أن يسترشد بمثل هذه النعمة، فهي كالريح، تهب حيث تشاء.

بهذا قد أكون قد قدمت رؤيتي وقد طرحت أمامكم إيمانًا آخر، فأنا أرجو أن تؤمنوا بالعمل. اعملوا واكدحوا أيها الشباب! أعرف جيدًا كم تبدو هذه النصيحة مبتذلة للغاية، فما من خطبة لم تتكرر فيها مثل

هذه النصيحة وسط لا مبالاة من قبل المستمعين، لكني أطلب منكم أن تفكروا مليًّا فيها، وأسمح لنفسي -أنا الذي لم أفعل شيئًا سوى العمل- أن أحدثكم عن هذه النعمة التي اكتسبتها عبر العمل الطويل طوال حياتي. لقد كانت حياتي صعبة. اختبرت الفقر واليأس، ثم عشت في صراع -لا أزال أعيش فيه حتى الآن- ورُفِضت وأساؤا إليَّ، ولماذا كل ذلك؟ كان لديَّ إيمان ومصدر قوة وحيد: إنه العمل. لم يدعمني شيء سوى العمل الهائل الذي قمت به، وقد وضعت أمام عيني دائمًا هذا الهدف الذي أتحرك صوبه، وكان ذلك كافيًا كي يرفع من شأني، ويمنحني الشجاعة في الأوقات التي كادت فيها ظروف الحياة السيئة أن تسحقني. إن العمل الذي أتحدث عنه هو العمل المستمر والواجب اليومي... إنه الدرس... الواجب الذي وضعته لنفسي، والذي أسير فيه كل يوم خطوة إلى الأمام. كم مرت جلست فيها في الصباح برأس غائمة وفم مرير، وألم حارق يعذبني، سواء كان جسديًّا أم أخلاقيًّا! وفي كل مرة، وبغض النظر عن حجم العذاب الذي أشعر به، كان واجبي هو ما يمنحني القوة والعزاء. كنت أجد العزاء طوال الوقت في واجباتي اليومية، صحيح أنني قد أجد العزاء مكسور الفؤاد، ولكن دون أن أسقط، وكنت أجد القدرة على الاستمرار في الحياة حتى الغد.

إنه العمل أيها السادة! فكروا فيه وحده، فهو قانون الحياة الوحيد، وهو ما يمثل النظام الذي يقود الكائنات الحية صوب أهدافها. ما من هدف آخر في الحياة، وما من أسباب أخرى، فنحن نأتي إلى الحياة كي نقوم فقط بواجبنا، ثم نمضي بعيدًا. ما الحياة سوى تلك الحركة التي

تدب وتتلاشى، والتي هي في واقع الأمر لا شيء سوى العمل وفعل الأشياء العظيمة التي تتم في كافة القرون. ولذلك كيف لا نتحلى بالتواضع؟ كيف لا يقبل كل منا العمل الذي مُنِح إياه ويتراجع عن كبرياء أناه التي تشكل مركز حياته وينضم إلى بقية الصفوف؟

يبدو لي أنه ما إن نقبل هذا الواجب حتى يشعر كل إنسان بالهدوء والسلام، حتى أكثرنا عذابًا. أعرف أن هناك عقولًا تعذبها أفكار الغامضة والتفكير في الأبدية، وأنا أتوجه إليهم كأشقاء لي، وأنصحهم بأن يشغلوا حياتهم بعمل هائل يكون من الحسن لو لم يصلوا إلى نهايته أبدًا. سوف يكون هذا العمل بمثابة القوة التي تدفعهم إلى الأمام... سوف يكون بمثابة إلهاء دائم... حبوب تُلقى إلى العقل كي يطحنها ويصنع منها غذاءه الأساسي عن وعي قانع بتنفيذ واجبه. بالطبع هذا لا يسمح بدخول أي قضايا ميتافيزيقية إلى مجاله، فالمجال هنا مفتوح فقط للقضايا الإمبريقية التي يمكن لمعالجتها أن تجعل الإنسان يحيا بشرف في هدوء وسلام إلى حد كبير. ولكن هل هو أمر قليل الشأن أن يكتسب الإنسان صحة جسدية وأخلاقية ويهرب من خطورة الأحلام، مفسحًا المجال للعمل كي يجعله يصيب أكبر قدر ممكن من السعادة على هذه الأرض؟

إني أعترف لكم أني لم أُوْلِ الأوهام ثقتي أبدًا. لا شيء يمكنه أن يضر الإنسان أكثر من الأوهام، والأمر كذلك أيضًا بالنسبة للشعوب، فالأوهام مضللة: إنها تدمر الجهد، وتضعف صاحبها، وهي قوت غرور الضعفاء. إن واصلنا التمسك بالأساطير، فستُحجب عنا الحقيقة،

وسنؤمن أنه يكفينا أن نحلم بالقوة كي نصبح أقوياء. لقد رأينا إلى أين يمكن أن يُفضي بنا هذا. إنه يفضي بنا إلى كوارث مفزعة. إنهم يخبرون الشعوب أن ينظروا إلى السلطة العليا ويتبعون المثال المرسوم لهم.

لا... لا... في بعض الأحيان تبدو لي هذه الأحاديث شديدة الوقاحة، فالشعب القوي هو الذي يكدح، والعمل وحده هو ما يمنحه الشجاعة والإيمان. كي تنتصر يجب أن تكون ترسانات أسلحتك معبأة عن آخرها، وأسلحتك على أهبة الاستعداد للعمل ومصقولة، ولا بد أن يكون جيشك قد خضع للتدريب، وأولى الرجال ثقتهم لرؤسائهم ولأنفسهم أيضًا. أنت في حاجة إلى كل ما سبق، وكي تتمكن من أن تقوم بكل ذلك فأنت في حاجة إلى النية الطيبة والوسيلة المناسبة. العمل وحده هو ما سيصنع القرن القادم والمستقبل غير المحدود. لا تشك في هذا. ألم نرَ فعلًا في تصاعد الاشتراكية بذرة قانون المستقبل الاشتراكي؛ قانون العمل للجميع؛ العمل المحرر وصانع السلام؟

أيها الشباب... ابدأوا العمل. ليقم كل منا بواجبه الذي يجب أن يملأ حياته كلها. ومهما كانت درجة تواضع هذا العمل، فسيكون مفيدًا على الدوام، فهو لن يؤدي إلى شيء سوى إلى رفعتنا. وعندما تقومون بالعمل دون كلل أو ملل، وتؤدون منه الكمية التي تستطيعون القيام بها في كل يوم، فسيمنحكم إمكانية الحياة الكريمة والسعيدة، وسيجنبكم عذاب التفكير في اللا متناهي. يا لعظمة وسعادة مجتمع يتحمل كل عضو منه بعقلانية نصيبه من العمل! مَن يعمل دائمًا ما يكون صالحًا. لذلك فانا على قناعة أن الإيمان الوحيد الذي يمكنه أن ينقذنا هو الإيمان

ببذل أقصى قدر من الجهد. من الرائع أن نحلم بالأبدية، ولكن الإنسان الشريف يكفيه أن يقوم بعمله في هذه الحياة».

إميل زولا.

لا يوافق السيد زولا إذنْ على أن يقدم المعلمون الجدد لأجيال الشباب إيمانًا بشيء ما غير محدد وغير واضح، وهو محق تمامًا في هذا الأمر، لكنه للأسف يقدم هو الآخر من ناحيته إيمانًا آخر غير واضح ولا محدد؛ إنه الإيمان بالعلم والعمل.

يخبرنا السيد زولا أنه يتوجب على الجميع أن يعملوا بمثابرة، وأن العمل سيجعل حياتهم أفضل وأكثر سعادة، وسينقذهم من عذاب التفكير في الأبدية. العمل! ولكن ما العمل الذي يتوجب علينا القيام به؟ هل يتوجب علينا أن نعمل في تصنيع أو تجارة الأفيون أو التبغ أو البراندي، أم نضارب في أسواق الأوراق المالية، أم نعمل في اختراع وتصنيع الأسلحة، أم ننشغل في العمل في الجيوش والسجون والإعدامات؟ الجميع يعلمون، ولكن من الواضح أن حالة البشرية كان من الممكن أن تكون أفضل من ذلك إن توقف كل هؤلاء عن العمل!

ولكن ربما يشير السيد زولا إلى نوعية معينة من العمل؛ تلك التي يلهمها العلم. في الحقيقة كان معظم خطابه يهدف إلى رفعة العلم، فهو يعتقد أن العلم يتعرض للهجوم.

العمل من أجل العلم! ولكن هذه الكلمة لها معنى واسع جدًّا وغير محدد تقريبًا، فيمكن لواحد من الناس أن يعتبر العلم عملًا في غاية الأهمية، بينما يعتبره الآخرون الذي يشكلون العدد الأكبر من الناس -وهم جميعًا من الطبقات العاملة- محض حماقات لسنا في حاجة إليها على الإطلاق. من المستحيل أن نقول إن السبب الوحيد لمثل هذه الأقاويل هو الجهل الذي ترزح الطبقات العاملة تحت وطأته، والتي لا يمكنها أن تدرك المعنى العميق للعلم، فالعلماء نفسهم يناقضون بعضهم البعض باستمرار. البعض يعتبرون أن العلم الحقيقي هو الفلسفة واللاهوت وعلم القانون، والاقتصاد السياسي، بينما آخرون يعتبرون أن العلوم الحقيقية هي العلوم الطبيعية، ويعتبرون أن كل ما سلف مجرد تفاهات غير علمية، فالوضعيون يعتقدون أن العلوم الروحية والفلسفة واللاهوت مضرة، أو على أقل تقدير غير مفيدة على الإطلاق. علاوة على ذلك لدى كل نظام كهنوتي من العلوم المدافعون عنه والمتحمسون له، وخصوم لهم نفس الكفاءة يؤكدون على كل ما يناقضه بكل ما لديهم من قوة. علاوة على ذلك ففي كل مجال من مجالات العلم يكتشفون فجأة أن تلك الحقائق العلمية التي استمرت أحيانًا عامًا، وأحيانًا أخرى لعشرات الأعوام، هي محض ضلالات، وينسون سريعًا تلك المواضيع التي أخذوا يثيرون الضجيج حولها.

جميعنا يعرف جيدًا أن ما اعتبره الرومان علمًا فذًّا وأمرًا غاية في الأهمية وافتخروا به كثيرًا، واعتبروا أن البشر الذين ليس لديهم علم مثله هم محض برابرة كان فن الخطابة... إنها تلك الممارسة التي نسخر

منها الآن، وهي في نظرنا ليست ممارسة غير علمية فحسب؛ بل إنها محض تفاهة. نعرف أيضًا أن ما اعتبروه علمًا في القرون الوسطى، بل وأهم شيء لديهم في تلك الفترة كانت الفلسفة المدرسية، والتي تثير سخريتنا اليوم. أعتقد أن الأمر لا يتطلب شجاعة فكر كبيرة حتى يمكننا أن نتنبأ أنه هناك الكثير من بين هذا العدد الكبير من المعارف التي يعتبرها عالمنا شديدة الأهمية ويطلقون عليها «علم» سوف تتعامل معها الأجيال اللاحقة كما تعاملنا نحن مع ما كان يعتبره أسلافنا أمرًا شديد الأهمية والخطورة؛ أقصد مثلًا فن الخطابة والفلسفة المدرسية، وحينها سوف تهز الأجيال اللاحقة أكتافها بلا مبالاة أمام ما كنا نعتبره أمرًا خطيرًا.

في زماننا هذا لم يلحظ البشر الذين تحرروا من نوع من الخرافات أنهم قد سقطوا فريسة لنوع آخر منها، لا تستند هي الأخرى على أي أساس، بالإضافة إلى ضررها الشديد، الذي يوازي تمامًا ضرر النوع الأول من الخرافات التي تحرروا منها. بعد أن تحرروا من خرافات الأديان القديمة سقط الناس فريسة لخرافات العلم. في البداية قد يبدو أنه ليس هناك أي شيء مشترك بين إيمان اليهود القدماء بأن العالم قد خُلِق في ستة أيام، وأن خطايا الآباء سوف يتوارثها الأبناء، وأنه هناك بعض الأمراض التي يمكن للإنسان أن يبرأ منها بالنظر مليًّا إلى حية معلقة، وإيمان البشر الآن بأن العالم قد نشأ من دوران المادة حول المراكز، ومن أن المخلوقات قد نشأت من الصراع فيما بينها، وأن النزعة إلى الجريمة متوارثة جينيًّا، وأن هناك بكتيريا على شكل «فاصلة اللغة» وهي

التي تنتج الأمراض... إلخ. يبدو أن لا شيء مشتركًا بين ما سبق، ولكن هذا ما يبدو لنا فقط.

من الضروري أن نحاول تخيل الحالة العقلية التي كانت لدى اليهودي القديم، حينما عرض عليه كهنته أسباب خلق العالم؛ لأن ذلك من شأنه أن يجعلنا ندرك أن ما يقبله الناس في زماننا هذا من أمور علمية لا يتشابه فقط مع ما قبله اليهودي قديمًا، بل يكاد يتطابق.

كما أن إيمان اليهودي في القديم لم يقتصر على تصديقه لخلق العالم في ستة أيام وإمكانية شفاء المرض بالنظر إلى الحية المعلقة، بل أيضًا صدَّق أن هناك فئة خاصة من الناس تعرف قطعًا حقيقة الإنسان السامية، ولذلك حسنٌ أن نؤمن بهؤلاء الناس... هكذا أيضًا هو الأمر في زماننا، فالأمر ليس أن الناس يؤمنون بنظرية داروين ونظرية توارث الجينات أو حتى بالبكتيريا التي تشبه شكل الفاصلة اللغوية، بل إنهم يؤمنون بكل ما يقدمه إليهم كهنة العلم على أنه الحقيقة، وتبقى معرفتهم بالقواعد التي يتأسس عليها نشاطهم مجهولة كما كان الحال مع اليهود القدامى في علاقتهم بكهنتهم.

وأنا أسمح لنفسي بالقول أني قد لاحظت مرارًا وتكرارًا أنه إن كان كهنة اليهود قد سمحوا لأنفسهم بأن ينحرفوا عن طريق الحقيقة ويقولوا أي شيء يتبادر إلى ذهنهم، فإن أولئك المدعوين «علماء» يفعلون الأمر ذاته بنفس الكفاءة.

لقد كان مجمل حديث السيد زولا موجهًا ضد معلمي الأجيال الشابة الذين يدعونهم إلى إيمان الأسلاف، ويعتبر السيد زولا نفسه من

المناهضين لهم. في الحقيقة ليس هناك فارق يُذكر بين ممثلي العلم الذي يضم السيد زولا نفسه إليهم، وبين المؤمنين، أو بالأحرى الذين يريدون أن يؤمنوا بما آمن به الأسلاف، وإن تأملنا جيدًا ذلك الصراع الدائر بين المعسكرين فسنكتشف أن ما يحدث بينهما هو بمثابة «صراع المحبين»[٤٣] كما يقول السيد دوماس. هؤلاء وآخرون يبحثون عن أساس الحياة، ومحركها الرئيس، ليس في أنفسهم ولا في عقولهم، ولكن في الأشكال الخارجية الإنسانية من الحياة: بعضهم يبحث فيما يدعونه «الدين»، وآخرون فيما يدعونه «العلم». النوع الأول يبحث عن الخلاص في الدين، وينقلون ما استلموه من معارف أناس آخرين من أسلافهم، ويريدون أن يؤمنوا بهذه المعارف القديمة الغريبة عنهم، أما الآخرون الذين يبحثون عن الخلاص فيما يطلقون عليه «العلم» فلا يقبلون معارف قد اكتسبوها هم، بل يؤمنون بما آمن به أناس آخرون وصدقوه على أنه هو العلم. النوع الأول يرى خلاص البشرية في مسيحية نصف يهودية نصف وثنية تم إعادة تقديمها، بينما يرى آخرون خلاص البشرية في مجموعة من المعارف المختلفة غير المهمة والمختارة بطريقة اعتباطية والتي يطلقون عليها «العلم»، وهو ما يعتبرونه شيئًا أصيلًا فاعلًا مفيدًا، وبالتالي فهذه المعارف ستقوم لا محالة بتصحيح كافة نواقص الحياة، وتمنح الإنسانية خيرها الأسمى الذي تحتاجه. النوع الأول يبدو كما لو أنه لا يريد أن يرى أن ما يريدونه أن ينبعث ثانية ويطلقون عليه «الدين» هو حقل فارغ قد هجرته الفراشات منذ زمن

(٤٣) بالفرنسية في الأصل: **querelles d'amoureux**.

بعيد وذهبت لتضع بيوضها في مكان آخر، وأن الأمر لا يقتصر على أن بعث هذا الدين لا يمكنه أن يساعد البشر في حل مشاكلهم اليوم، بل إنه سوف يزيد من حدتها، بإبعاد نظر الناس عن الحل الحقيقي. والقطاع الآخر لا يريد أن يدرك أن ما يدعونه «العلم» عبارة عن مجموعة من المعارف المختارة اعتباطًا لا تشغل أحدًا في الوقت الحالي سوى مجموعة من الناس الذين يحيون حياة بطَّالة خالية من العمل، ولا تقوم بشيء سوى شغل وقت مجموعة من الأغنياء، أو في أفضل الأحوال أداة للشر أو الخير، بحسب اليد التي سوف تقع بينها هذه المعارف، ولكنها في حد ذاتها لا تستطيع أن تصحح من شيء. في الحقيقة أنه في أعماق أرواح هذه الفئة أو الأخرى فهم لا يؤمنون بتلك الوسائل التي يقترحونها، وهؤلاء أو أولئك يريدون شيئًا يمكنه أن يُحوِّل أبصارهم عن الهاوية الماثلة أمامهم، والتي سيسقطون فيها لا محالة إن استمر الأمر على هذا المنوال. يلهي البعض أنفسهم في الدين أو في التصوف، وآخرون يلهون أنفسهم فيما دعا إليه زولا، ألا وهو العمل الدؤوب من أجل العلم.

ليس هناك فارق بين المؤمنين بالدين والمؤمنين بالعلم سوى أن الفئة الأولى التي تؤمن بحكمة قديمة، هي في الحقيقة تؤمن بنوع من الكذب الذي فقد قوته، أما الفئة الثانية التي تؤمن بحكمة جديدة، فهي في واقع الأمر تؤمن بنوع من الكذب لم يفقد مكانته بعد، ولذلك فهو لا يزال قادرًا على جعل بعض السذج يشعرون نحوه بالتقوى والورع. لذلك فالخرافة الكامنة فيما يدعونه «العلم» لا تقل عن نظيرتها الكامنة

فيما يدعونه «الدين». يكمن الفارق الوحيد في أن أحدهما عبارة عن خرافة الماضي، بينما الآخر خرافة الحاضر.

أليست نصيحة السيد زولا هي الأخرى التي تقضي بتكريس الحياة لخدمة ما يعتبرونه في عالمنا هذا في الوقت الحاضر «العلم» أمرًا خطيرًا؟ كيف أُكرِّس حياتي كلها من أجل دراسة ظواهر الوراثة طبقًا لنظريات لومبروزو[٤٤] أو أدرس تشكل طبقات الأرض عن طريق نشاط الديدان أو حالات المادة الأربع... إلخ، ثم أدرك فجأة قبل الموت أن ما كرست له حياتي بأكملها كان محض حماقات، وقد تكون حماقات مضرة أيضًا، بينما ليس لديَّ سوى حياة واحدة!

هناك فيلسوف صيني لا يتمتع بشهرة كبيرة يُدعى لاو تسي، وقد تأسست ديانته على «التاو» وهي كلمة قد تُرجمت كالآتي: «الطريقة العاقلة- الفضيلة». إن اتبع البشر قانون التاو فسوف ينالون السعادة. صدرت أول وأفضل ترجمة لكتابه بعنوان: «عن طريق الفضيلة» من ترجمة ستانيسلاوس جوليان **Stanislaus Julien**، ولكن التاو طبقًا لترجمة السيد جوليان لا يمكن الوصول إليها سوى بـ«اللا فعل».

طبقًا للاو تسي فإن الكوارث التي تلحق بالبشر لم تكن بسبب أنهم أهملوا القيام بأفعال معينة ضرورية، بل لأنهم قاموا بأفعال غير ضرورية. فكما يقول إن قام البشر بالتدريب على فلسفة «اللا فعل» فلن يقتصر الأمر فقط على أن يتجنبوا الكوارث الشخصية التي تلحق بهم،

(٤٤) سيزار لومبروزو: طبيب إيطالي شهير وعالم جريمة، يرجع له الفضل في نشأة المدارس التكوينية، وأطلق البعض عليها اسم «في نظريات تفسير السلوك الإجرامي».

لكنهم أيضًا سوف يتجنبون كل أشكال الحكومات التي توارثوها، وهو الموضوع الذي عالجه الفيلسوف الصيني بشكل خاص.

أنا أعتقد أن هذا الفيلسوف الصيني على حق تمامًا. الجميع يعملون بجد، فماذا إذنْ؟ ها هو مصرفي ومضارب بسوق الأوراق المالية يعود إلى منزله بعد أن عمل بكد، وها هو جنرال يعمل بكد في تدريب الناس على القتل، وصاحب المصنع يعود إلى منزله بعد أن عمل بكد شديد في مصنعه حيث يتلف آلاف العمَّال حيواتهم في تصنيع مرايا، وفي إنتاج التبغ والفودكا. كل هؤلاء يعلمون بكد، ولكن هل يمكننا أن نمتدح عملهم؟

ولكن هل يجب علينا أن نتحدث فقط عن العاملين في مجال العلم؟

حسنًا... يحدث كثيرًا أن تصلني باستمرار كتيبات ومخطوطات وكتب مطبوعة من كُتاب لا يحظون بشهرة كبيرة، وتضم هذه الكتابات جميعًا نتاج أعمالهم العلمية.

يقول واحد منهم إنه قد توصل أخيرًا إلى حل بخصوص فلسفة المعرفة في المسيحية، وآخر قد ألف كتابًا عن الإثير الكوني، وثالث قد حسم المسألة الاجتماعية، ورابع يحرر مراجعة ثيوصوفية، وخامس قد حل مشكلة نقلة الفارس في الشطرنج، وقد قام بذلك في مجلد ضخم!

جميع هؤلاء الناس يعملون بكد، يعملون باسم العلم، لكني لا أظنني مخطئًا إن قلت أن عمل ووقت هؤلاء الناس، وآخرين أيضًا، بلا

فائدة تقريبًا؛ بل إنه مؤذٍ أيضًا، فهو يضر بآلاف من البشر الذين يعملون في صناعة الورق، ويقومون بإعداد المقاسات المطلوبة لحاجات المطابع من أجل طباعة مثل هذه الكتب، وكي يوفروا الطعام والسكن لكل هؤلاء العاملين بالعلم. ولا يشعر هؤلاء المؤلفون بالذنب أمام المجتمع، فكيف يمكنهم ذلك وهم مشغولون بلعب الورق، وبدلًا من أن يشعروا بالذنب يواصلون عملهم الذي لا يفيد أحدًا بضمير صاف.

مَن لا يعرف أولئك البائسين الذين كثيرًا ما يكونون قساة القلب، ومشغولون تمامًا إلى درجة أنهم دائمًا ما لا يكون لديهم وقت؟ الأمر الرئيس هنا يتعلق بما إن كان ما يفعلونه ويكدحون في العمل عليه يفيد أم يضر الآخرين. تقولون لهم: «عملكم يمكن أن يكون مفيدًا أو مضرًّا حسب كذا وكذا... فانتظروا وتمعنوا الأمر»، لكنهم لن ينصتوا لكم، بل إنهم حتى سوف يعارضونكم بسخرية قائلين: «تمعنوا أنتم التفكير كما تريدون عندما تنعمون بوقت فراغ، لكننا مشغولون جدًّا. نحن نعمل الآن من أجل اكتشاف كم مرة استُخدمت الكلمة الفلانية من الكُتَّاب القدماء، أو نعمل على تحديد تركيب الذرات أو حول نظرية التخاطر»... إلخ.

بالإضافة إلى ذلك دائمًا ما كنت أشعر بدهشة شديدة من الرأي الغريب الصادر من غرب أوربا، والذي يؤكد على أن العمل في حد ذاته هو نوع من الفضيلة، وقد عبَّر زولا عن هذا الرأي بوضوح في خطبته، وكنت أتساءل دائمًا عن المعنى الغريب الذي ينسبونه إلى العمل.

يمكن أن يحدث ذلك فقط مع نملة محرومة من العقل والسعي إلى

الفضيلة في قصة خرافية تعتقد أن العمل في حد ذاته فضيلة، وأنه أمر يمكنها أن تفخر به.

يقول السيد زولا إن العمل يجعل الإنسان فاضلًا، لكني لاحظت العكس دائمًا، فالعمل الدائم، وذلك الفخر النملي بالعمل، لا يجعل الإنسان فقط شبيهًا بالنمل، بل يُقسّي أيضًا من طباعه. أكثر الناس شرًّا في تاريخ الإنسانية من قبيل نيرون- بطرس الأول كانوا مشغولين دائمًا وقلقين، ولم تكن تتبقى لهم دقيقة واحدة دون عمل أو لهو.

ولكن حتى إن كان حب العمل لا يشكل نقيصة واضحة في حد ذاته فهو لا يعبر أيضًا عن أي فضيلة. العمل مثل الغذاء... قليلًا ما يكون أمرًا فاضلًا. العمل حاجة ملحة، وفي غيابه تظهر المعاناة، لكنه لم يكن أبدًا فضيلة في حد ذاته. إن الحديث عن أن العمل أمر فاضل في حد ذاته أمر كريه يوازي تمامًا القول بأن الغذاء في حد ذاته أمر فاضل. لم يكن من الممكن للمعنى المنسوب إلى العمل في مجتمعنا أن يظهر إلا كرد فعل ضد الكسل والحياة البطَّالة التي هي سمة أساسية من حياة النبلاء، وتعتبر حتى يومنا هذا أمرًا محمودًا بين ذلك العدد الضئيل من الطبقات الغنية. ثمة حاجة دائمة لدى الإنسان للعمل وتدريب أعضائه، تمامًا مثلما تقفز العجول حول الأوتاد المربوطة إليها، ولكن أفراد الطبقات الغنية -شهداء الرياضات البدنية والألعاب الهوائية، وكل أنواع اللعب الأخرى: لعب الورق- الشطرنج- التنس، ليس بإمكانهم أن يجدوا أي ممارسات عقلانية يمكنهم بها تدريب أعضائهم.

العمل ليس فضيلة في حد ذاته، ولكن في مجتمعنا الذي تأسس

على الباطل يمكن له أن يصبح مخدرًا أخلاقيًّا فعالًا بدلًا من التبغ والخمر، بهدف إخفاء بطلان حياة المرء وتشوهها عن النفس.

«في الوقت الذي أنا في حاجة إليه إلى التحدث معكم عن الفلسفة والأخلاق والدين، أنا في حاجة لإصدار الجريدة اليومية التي تضم ما يقرب من نصف مليون مشترك... أنا في حاجة إلى تنظيم القوات العسكرية... أنا في حاجة إلى بناء برج إيفل، وتنظيم معرض في شيكاغو، والإبحار في خليج بنما وكتابة ثمانية وعشرين مجلدًا من المقالات ورسم لوحتي وإتمام تأليف الأوبرا التي أنا عاكف عليها». لا يستطيع معاصرونا أن يعيشوا تلك الحياة التي يعيشونها الآن دون ذريعة دائمة من العمل الذي يلتهم حياتهم بأكملها. بفضل هذا العمل وحده يمكنهم أن يعيشوا حياة تافهة، والقيام بأعمال الجزء الغالب منها شرير، وفي الوقت ذاته يخفون ذلك عن أنفسهم تلك المتناقضات التي يحيون فيها. بفضل هذا وحده يمكن للناس أن يعيشوا تلك الحياة التي يحيونها الآن.

هذه بالضبط هي الوسيلة التي يقدمها السيد زولا إلى مستمعيه. إنه يقول بشكل مباشر: «المجال هنا مفتوح فقط للقضايا الإمبريقية التي يمكن لمعالجتها أن تجعل الإنسان يحيا بشرف في هدوء وسلام إلى حد كبير. ولكن هل هو أمر قليل الشأن أن يكتسب الإنسان صحة جسدية وأخلاقية ويهرب من خطورة الأحلام، مفسحًا المجال للعمل كي يجعله يصيب أكبر قدر ممكن من السعادة على هذه الأرض؟».

هذه هي النصيحة التي يقدمها السيد زولا لجيل الشباب! أما السيد دوماس فيقدم للشباب نصيحة أخرى تمامًا.

هذا هو نص خطابه الذي أرسله إلى محرر الـ **Gaulois**:

«سيدي الكريم،

تسألني عن رأيي فيما يخص الاتجاهات السائدة بين شباب المدارس، والمسائل المتعلقة بها التي سبق وحدثت في السوربون. كنت أفضل ألا أفصح برأيي بخصوص ذلك، فأنا أعرف أنا رأيي لن يؤثر في الأمر بشيء، فالفئة التي اتفقت معي في الرأي ستظل على رأيها ذلك لمدة أخرى، أما الفئة التي لديها آراء مختلفة، فسوف تتمسك بها أكثر فأكثر. كان من الأفضل ألا نتجادل مطلقًا، فكما قال أحد الرجال الفاضلين من رفاقي: «الآراء كالمسامير... كلما تدق عليها أكثر كلما تنغرز أعمق فأعمق».

ليس الأمر أني ليس لديَّ رأي بخصوص ما يطلقون عليه: «القضايا العالمية الكبيرة» والصيغ الفكرية المختلفة للعقل البشري في زماننا. هذا الرأي صحيح بشكل لا يقبل الجدل ومحدد تمامًا، حتى إني كنت أفضل أن أحتفظ به من أجل أن أسترشد به بشكل شخصي دون أي نية في خلق أو تدمير شيء. كان عليَّ أن أعود إلى تلك القضايا السياسية والاجتماعية والفلسفية والدينية العظيمة، وهذا كان من شأنه أن يمضي بنا بعيدًا جدًّا، بينما عليَّ أن أتبعك في مناقشة هذه الظواهر الخارجية التي

لا تتمتع بأهمية حقيقية، والتي يثيرها كل جيل جديد بطبيعة الحال. في الحقيقة يأتي كل جيل جديد بأفكار ورغبات قديمة قدم الحياة نفسها، في الوقت الذي يظن فيه كل جيل أنه أتى بما لم يأتِ به جيل من قبل، وذلك لأنه للمرة الأولى يسقط تحت تأثير هذه الأفكار أو الرغبات، وبالإضافة إلى ذلك يعتقد كل جيل أنه قد صنع كل ما هو موجود.

على امتداد آلاف السنين حاولت البشرية أن تجد حلًّا لهذه المشكلة العظيمة المتعلقة بالسبب والتأثير، والتي ربما تستغرق من الإنسانية آلافًا أخرى من السنين كي تتوصل فيها إلى حل. بخصوص هذه المشكلة أعلن صبية لم يتجاوزوا العشرين من العمر أنهم قد توصلوا إلى حل نهائي بعقولهم الشابة الفتية. بدأوا عملهم بالتصادم مع الآراء التي لا تتفق معهم. هل ذلك يوجب علينا أن نعود بالمجتمع بأكمله إلى المثال الديني الذي تم تجاهله وهجره؟ أم أن المسألة تقتصر فقط على مجرد سؤال فيزيولوجي عن درجة حرارة الدم وقوة العضلات كما يدعي رُسل الشباب الجدد، ومثلما انخرطت الشبيبة كلها في تلك الحركة المقابلة؟ أشعر بالميل إلى الافتراض الأخير.

لقد أخطأ خطأً فاحشًا مَن أراد أن يرى في هذا العمر الصغير المليء بالحيوية دليلًا على التطور النهائي، أو حتى دليلًا محتملًا. في هذا العمر ليس لدى الإنسان سوى الهجوم الذي تشنه عليه حمى الشباب. أيًّا كانت طبيعة تلك الأفكار التي يمزق بسببها الشباب بعضهم البعض، فبإمكاني أن أراهن على أنهم سوف يعارضون تلك الأفكار سريعًا عندما يجدونها لدى أطفالهم. العمر والتجربة هما المسؤولان عن ذلك.

كثيرون من الأعداء في اللحظة الراهنة سيلتقون آجلًا أو عاجلًا في تقاطعات طرق الحياة، وسيشعرون حينها بالإنهاك وخيبة الأمل بعض الشيء من الصراع مع الواقع، وسيمسكون بأيدي بعضهم البعض ويعودون إلى الطريق الرئيس، معترفين بحزن أنه بغض النظر عن قناعاتهم السابقة، ظلت الأرض دائرية، وظل كل شيء يدور في مداره، وعاودت الآفاق ذاتها الظهور تحت نفس السماء اللا نهائية الثابتة.

بعد أن ظلوا يتجادلون ويتصارعون، البعض منهم باسم الإيمان، وآخرون باسم العلم كي يثبتوا أن الله موجود أو غير موجود –وهما فكرتان يمكن أن تتصارعا إلى الأبد– اتفقوا في النهاية أن المرء لا يعرف عن هذا الأمر أكثر من الآخرين، ولكنهم يعرفون جيدًا أن الأمل لازم للإنسان إن لم يكن أكثر من ذلك، وأنه يعرف أنه يعاني بشكل رهيب من فرط عدم اليقين الذي يحيط به حول الأشياء الأكثر إثارة لاهتمامه، وأنه يبحث دائمًا عن الوضع الأمثل، وأنه يجب أن يحظى بالحرية الكاملة للبحث عن ذلك الوضع، خاصة في مجال الفلسفة.

كان العالم موجودًا قبل وجوده، وسيبقى بعد زواله، وهو يعلم أن هذا العالم أبدي، وأنه يود لو أن بإمكانه أن يشارك في هذه الأبدية. منذ أن وطأت أقدامه الحياة وهو يشعر بأنه مدعو للمشاركة في نصيبه من أبديتها التي تحيط به وتحفزه وتسخر منه وتحطمه. إنه يعرف أنه ليس أزليًّا، لكنه يريد أن يكون خالدًا. إنه ينادي بصوت عالٍ، ويناشد بصوت هادئٍ أن تتحقق تلك الأمنية التي تنسل من بين يديه باستمرار، وهو يقوم بذلك من أجل أن ينال السعادة؛ لأن المعرفة الحقيقية كانت

لتكشف له عن الهدوء والموت. وهو لا يمكنه أن ينال هذه الإمكانية بسبب أن أقوى طاقة محركة للإنسان مجهولة، ولذلك فهو يتعلق بمُثل غير محددة، ومهما مضى بعيدًا في انجذابه صوب الشك والإنكار نتيجة للكبرياء والفضول والخبث والأنماط الشائعة، سيعود دائمًا إلى الأمل، الذي لا يمكنه أن يحيا دونه. الأمر يشبه صراعًا بين الأحبة يستمر مدة قصيرة.

هكذا يحدث أن تكتنف الغيوم المثال الذي يسعى الإنسان خلفه، لكنه لا يتلاشى تمامًا. قد تحجب بعض غيوم الفلسفة اكتمال البدر، لكن الضوء الأبيض يواصل الانبعاث، ويلوح فجأةً لامعًا رائعًا. هذا الاحتياج الملح صوب المثال والنموذج داخل الإنسان يوضح لماذا يُلقي الإنسان بنفسه بكل هذه الثقة والبهجة ودون فحص عقلي إلى أحضان العقائد الدينية المختلفة التي تقدم له الوعود بالأبدية وتقدم له كل ما هو في حاجة إليه من أجل الوصول إلى هذا المثال والنموذج وفقًا لطبيعته ووضعه.

ولكن منذ قرون، وخاصة في المائة عام الأخيرة، حدث أن خرج البعض من خلف هذه الغيوم مع كل محطة من محطات حركة الإنسانية، وبأعداد تتزايد أكثر فأكثر، وأنكر هؤلاء الناس الحقائق القديمة باسم العقل والعلم والملاحظة، ويعلنون أنها حقائق نسبية، ويريدون تحطيم هذه النماذج القديمة التي تحوي هذه الحقائق.

مَن الـمُحِقُّ في هذا الصراع؟ جميعهم على حق طالما يبحثون، وجميعهم على باطل حينما يُهدِّدون. لا مكان للقوة بين الحقيقة التي

تمثل الهدف، وحرية البحث التي لدى الجميع الحق فيها على الرغم من الأمثلة الشهيرة التي توضح العكس.

لا تقوم القوة بشيء سوى إبعاد الهدف... هذا كل ما تستطيع أن تفعله. إنها لا تتمتع فقط بالقسوة، لكنها أيضًا مضرة؛ لأنها تشكل أكثر العيوب تأثيرًا في مسيرة الحضارة. لا يمكن لأي قوة -مهما بلغت شدتها- أن تثبت أو تنكر وجود الله.

مجمل القول أن هذه القوة التي شكلت العالم مهما كانت طبيعتها -فكما يبدو لي لا يمكن للعالم أن يتشكل من تلقاء نفسه- بعد أن جعلتنا أدوات لها، أبقت لنفسها حق معرفة لماذا قد خلقتنا وإلى أين تقودنا. يبدو أن هذه القوة تريد أن تحتفظ بسرها، بغض النظر عن كافة النوايا التي نسبناها إليها، وكافة البراهين التي قدمناها، ولذلك يبدو لي -وأنا هنا أعبر عن كل ما يجول في خاطري- أن الإنسانية سوف تتوقف عن محاولة اختراق هذا السر. لقد توجهت الإنسانية صوب الأديان التي لا تقدم لها شيئًا؛ لأنها مختلفة فيما بينها، وتوجهت إلى الفلسفات التي لا يمكنها أن تفسر لها شيئًا آخر؛ لأنها جاءت متناقضة. إنها تحاول الآن أن تشق طريقها وسط هذه المصاعب بنفسها، معتمدة في ذلك على غرائزها البسيطة وحسها المشترك، ولذلك فهي لا تزال حية على الأرض دون أن تعلم الهدف من حياتها، وهي تحاول أن تحظى بالسعادة بقدر الإمكان عن طريق تلك الوسائل المتوفرة على كوكبنا هذا.

منذ فترة قصيرة ألقى زولا خطبة لامعة على التلاميذ، وقدَّم لهم فيها وصفته الطبية التي تعتمد دواءً لكافة منغصات الحياة؛ ألا وهو العمل.

بإمكان العمل المتواصل الذي لا يكل أو يمل أن يتغلب على كافة الصعوبات. إنه دواء معروف، والأمر ليس أنه دواء غير حسن، لكنه لن يكون كافيًا أبدًا. حتى إن عمل الإنسان بكل ما لديه من جهد عضلي وعقلي، فلا يمكن أن يكتفي باهتمامه بتوفير قوت يومه أو كسب المال أو حتى نيل المجد. حتى إن حقق كل هذه الأهداف فهو يشعر دائمًا أن ثمَّ شيئًا ما ينقصه، فالحقيقة أنه مهما قلنا أو مما قالوا لنا، فالإنسان لا يتألف من جسد فقط يجب أن يطعمه، وعقل يجب أن يهذبه ويطوره، بل لديه أيضًا روح بلا شك لها مطالب هي الأخرى. هذه الروح في حالة عمل دائمة، وفي تطور مستمر وسعي حثيث صوب النور والحقيقة. وطالما لم تنل بعد النور كاملًا، ولم تحصل على الحقيقة كاملة، ستستمر في تعذيب الإنسان.

حسنًا... لم يحدث أن عذَّبت الروح الإنسان وشغلته بهذه الطريقة مثلما يحدث الآن في زماننا. إنها -إن جاز التعبير- في كل نفس هواء يتنفسه أبناء هذا العالم. نجحت هذه الأرواح القليلة المنفصلة التي تمنت إعادة انبعاث جديدة تدريجيًّا في العثور على بعضها البعض، ونادت، واقتربت واتحدت وأدركت مكنونها وشكلت مجموعة تعد بمثابة مركز جاذبية تسعى إليه الآن بقية الأرواح الأخرى من بقية أطراف العالم الأربعة كما تطير العصافير صوب مرآة، وهي بهذه الطريقة تشكل روحًا واحدة عامة جامعة، حتى يمكن للأرواح الأخرى أن تعي في المستقبل بطريقة متعذر كبحها تلك الوحدة المقبلة وتَقدُّم الأمم... تلك الأرواح

التي كانت متعادية في السابق. إني أرى هذه الروح الجديدة وأدركها في ظواهر مختلفة قد تبدو أنها أكثر ما ينكرها.

عملية التسليح التي تقوم بها كافة الشعوب، وتلك التهديدات التي تهدد بها كل أمة الأخرى، وهذه الاضطهادات المتجددة لأجناس وجماعات بعينها، وهذه العداوات التي تندلع بين المواطنين، بل وحتى أولئك الشباب الذين بالسوربون... كل هذا قد يبدو أنه يعبر عن ظواهر سيئة، لكنها في الحقيقة ليست نذير سوء؛ بل إنها الانتفاضات الأخيرة لما يجب أن يتلاشى. يحاول الجسد في هذه الحالة طرد هذا المرض المميت عن طريق هذا الجهد.

أولئك الذين استفادوا كثيرًا من الضلالات التي انتشرت في الماضي وأملوا أن يستمر بهم الوضع على هذا المنوال طويلًا يتحدون الآن بهدف منع أي تغيير، ويظهر ذلك في صورة تلك الظواهر السالفة مثل التسليح والتهديدات والاضطهادات، ولكن إن تأملتم بمزيد من التمعن فسوف ترون أن كل هذه الظواهر خارجية... صحيح أنها ضخمة للغاية لكنها فارغة من داخلها. إنها لا تحوي روحًا، فقد مضت الروح إلى مكان آخر.

تلك الملايين المسلحة من البشر التي تتدرب كل يوم على الانخراط في حروب مهلكة لم تعد تشعر بالكراهية صوب العدو الذي من المفترض أن تقاتله، ولم يعد أحد من قادتها قادرًا على إعلان الحرب. أما فيما يتعلق بالمظالم التي يُعاني منها المظلومون في قاع

المجتمع، فقد بدأت طبقات المجتمع العليا أخيرًا في الشعور بعدالة دعاويهم وعمق آلامهم.

الفهم المتبادل آتٍ لا محالة في وقت محدد، وقد اقترب أكثر مما نتخيل. لا أعرف ماذا سيحدث؛ ربما لأني راحل سريعًا عن هذا العالم أو لأن الضوء الذي يلوح من خلف الأفق ويضيء لي طريقي قد أربك رؤيتي، لكني أظن أن عالمنا قد اقترب من ذلك العصر الذي ستتحقق فيه تلك الكلمات: «أحبوا بعضكم بعضًا»، بغض النظر ما إن كان قائل هذه العبارات إنسانًا أم إلهًا.

إن الحركة الروحية التي يمكن ملاحظتها الآن في كافة أنحاء العالم، والتي يظن كثير من أولئك السذج الذين يتمتعون بطموح كبير أنهم يمكنهم أن يسيطروا عليها، لا بد أنها ستكون لا محالة حركة إنسانية. الناس الذين لا يفعلون شيئًا باعتدال سيصابون بالجنون. إنه جنون حب الناس لبعضها البعض. من الواضح أن هذا لن يحدث في البداية بسهولة، فسيظهر على السطح كثير من سوء التفاهم، ومن الممكن أيضًا أن تسيل الدماء، فقد تربينا وتعودنا على كراهية بعضنا البعض، حتى من قبل أولئك الذين كانوا مدعوين لتعليمنا المحبة. من الواضح أن قانون أخوة البشر العظيم لا بد وأن يتحقق يومًا ما، وأنا على قناعة أن هذا سيحدث حينما تصبح رغبتنا فيه غير محتملة».

إلكسندر دوماس

١ يونيو ١٨٩٣

كان حديث زولا موجهًا في الأساس إلى الشباب، وبدا بالضبط كما لو أنه ينحني أمامهم، وهي ظاهرة غير لطيفة أصبحت شائعة جدًّا في زماننا، كما ينحني الكتَّاب تمامًا أمام النساء، أما خطاب دوماس فلم يكن موجهًا إلى الشباب، ولم يغرقهم بالمجاملات؛ بل على النقيض من ذلك، أشار إليهم إلى خطأ الشباب المعتاد في الإفراط في الثقة بالنفس، ووضح لهم عواقب ذلك، بدلًا من أن يشي لهم أنهم شديدو الأهمية، وأن لديهم قوة هائلة، وهي قوة لا تلزم للقيام بشيء ذي بال، وهو لا يُعلِّم الشباب فقط هنا، بل أيضًا البالغين والكبار... كل هذه الاختلافات الخارجية لا تشكل الفارق الرئيس، فهو يكمن في أن حديث زولا يدعم الناس على السير في الطريق الذين هم سائرون فيه، ويساعدهم على ذلك بإخبارهم أن ما يعرفونه هو ما هم في حاجة إلى معرفته، أما خطاب دوماس فيوقظ الناس ويشير إليهم إلى حقيقة أن حياتهم ليست على ما يرام، وإلى أنهم لا يعرفون الشيء الرئيس الذي هم في حاجة حقيقية إلى معرفته. لهذا فإن دوماس لا يثق كثيرًا في خرافات الماضي، مثلما لا يثق أيضًا في خرافات الحاضر. لهذا تحديدًا فهو يهتم بالملاحظة والتفكير، ولذلك يمكنه أن يرى بوضوح ليس الحاضر فقط؛ بل أيضًا المستقبل، كما رآه دائمًا أولئك الذين كان يطلق عليهم في الماضي «الأنبياء». قد يبدو هذا غريبًا للقراء الذين يقرؤون الجانب الخارجي والظاهر فقط من كتابات المؤلفين، دون أن يتفطنوا إلى الجانب الروحي من كتاباتهم... يبدو من الغريب إذنْ لهم أن إلكسندر دوماس الذي ألف **Dame aux Camelias** و**Affaire Clémencea** وغيرها من الأعمال هو الذي يرى المستقبل الآن ويتنبأ به.

قد يبدو هذا غريبًا لنا، ولكن تظل النبوة هي النبوة، حتى وإن لم يتردد صداها بين شاطئي نهر الأردن من فم نبي يرتدي فرو أحد الوحوش، بل أصبح من الممكن قراءتها الآن على صفحات إحدى الجرائد. إن كلمتا دوماس هي بمثابة نبوة حقًّا، وتتوفر فيها كافة سمات النبوة: أولًا فهي تناقض تمامًا المزاج العام للناس الذين يتلقونها. ثانيًا: على الرغم من ذلك يتفق معها أولئك من يسمعونها دون أن يعرفوا سببًا لذلك. ثالثًا وهو الأهم: تساعد النبوة الناس على إدراك ما يرتجى.

إن دوماس يتنبأ بأنه عندما ينتهى البشر من تجربة كل شيء دون جدوى، فإنهم سيعتنقون بجدية قانون أخوة البشر في الحياة، وأن هذا التغيير سوف يحدث أسرع مما نتوقع. قد يتساءل المرء عن صحة اقتراب هذا الموعد، أو حتى إمكانيته من الأساس، ولكن من الواضح أنه عندما يحل هذا التغيير فإنه سوف يُسوِّي كافة المتناقضات ويحل جميع المصاعب، ويشتت كافة قوى الشر التي نراها الآن في نهاية القرن كمصدر حقيقي للتهديد.

الاعتراض، أو حتى السؤال الوحيد الذي قد يتساءل عنه المرء بشأن حديث دوماس من الممكن أن يكون كالآتي: «إن كان حب الآخر ممكنًا، وإن كان مغروسًا في الطبيعة البشرية، فلماذا انقضت عدة آلاف من السنين دون أن يتمكن البشر الذين يعرفون هذا القانون من تنفيذه؟ ولنلاحظ أن وصية حب الله وحب القريب لم يبدأ التبشير بها منذ زمن المسيح، بل قد جاءت في الأساس منذ زمن موسى. ما الذي يحول بين تجلي مثل هذا الوجدان الفطري والمتعاون لدى الإنسانية؟ من الواضح

أنه لا يكفي على الإطلاق أن نقول: «أحبوا بعضكم بعضًا» فقد قيل هذا قبل ثلاثة آلاف عام مضت، وتكررت هذه المقولة من فوق كافة المنابر الدينية أو حتى العلمانية، ومع ذلك استمر الناس في إبادة بعضهم البعض بدلًا من ممارسة الحب. لم يعد أحد في زماننا هذا تساوره الشكوك أنه بدلًا من أن يمزق كل واحد الآخر شر تمزيق، فكل يبحث عن رخائه أو رخاء أسرته أو رخاء بلاده، فإنه يجب على الناس أن يساعدوا بعضهم البعض، ويستبدلوا الأنانية بالمحبة، وينظِّموا أمور حياتهم على المبادئ التكافلية بدلًا من الفردية، كما يعبر الاشتراكيون عن الأمر بلغتهم الطنانة المثيرة للرثاء. فإن أحب الناس بعضهم البعض كما يحبون أنفسهم، أو على الأقل لم يفعلوا بالآخرين ما لا يودون أن يفعله الآخرون بهم، كما قيل ذلك منذ ألفي عام، فإن نصيب السعادة الفردية التي سوف يحصل عليها كل إنسان سوف يزداد، وستصبح الحياة الإنسانية بشكل عام معقولة وسعيدة بدلًا من وضعها الحالي كمحل للمعاناة والمتناقضات.

لا أحد تساوره الشكوك أنه إن استمر البشر في انتزاع ملكية الأرض من بعضهم البعض، وانتزاع نتاج عمل الآخرين، فإن انتقام أولئك من حُرِموا من الأرض لن يتأخر كثيرًا، وأن المقموعين سوف يستولون ثانية على ما انتزع منهم بالعنف والانتقام. لا أحد تساوره الشكوك أن تسليح الأمم سوف يقود إلى مذابح مريعة وهلاك كافة البشر الموجودين داخل دائرة التسليح هذه. لا أحد تساوره الشكوك أنه إن استمر النظام القائم الآن بضعة سنين أخرى، فإنه سوف يؤدي إلى انهيار عام. ليس علينا شيء سوى أن نفتح أعيننا كي نرى تلك الهاوية التي نتقدم صوبها. ولكن يبدو

أن الناس في زماننا تنطبق عليهم كلمات النبوة التي استشهد بها المسيح ذات مرة: «لَهُمْ أَعْيُنٌ وَلاَ يُبْصِرُونَ. لَهُمْ آذَانٌ وَلاَ يَسْمَعُونَ»(٤٥).

إن معاصرينا يواصلون الحياة بنفس الطريقة التي تعودوا على الحياة طبقًا لها، وهم لا يتوقفون عن فعل أشياء لا بد حتمًا وأن تؤدي بهم إلى الدمار. الأكثر من ذلك أن البشر في زماننا هذا إن لم يكونوا مدركين لقانون المحبة الديني، فعلى الأقل يدركون القاعدة الأخلاقية لهذا المبدأ المسيحي: «لا تفعل بالآخرين ما لا تود أن يفعلوه بك»، لكنهم لا ينفذون هذه القاعدة. من الواضح إذنْ أن سببًا قويًّا للغاية يحول بينهم وبين تنفيذ ما من شأنه أن يحقق مصالحهم وينقذهم من هذه المخاطر المريعة، ويحول دون تنفيذ القانون الذي كشفه الله لهم، والذي تمليه عليهم أيضًا ضمائرهم. هل علينا أن نقول إن إمكانية الحب في الحياة هي محض أوهام؟ إن كان الأمر كذلك، فكيف سمح الناس لأنفسهم طيلة قرون طويلة أن ينخدعوا بهذا الحلم المتعذر تحقيقه؟ كان من المفترض أن تدرك البشرية ذلك، لكنها لا تستطيع أن تتبع قانون الحب في الحياة اليومية، وفي نفس الوقت لا تستطيع أن تهجره. ما السبب في هذا التناقض إذن الذي استمر منذ قرون طويلة؟ الأمر ليس أن البشر ليسوا قادرين على تمنى أو تنفيذ ما يمليه عليهم حسهم السليم، ونداء الله لهم عبر ضمائرهم، ولكن المشكلة أنهم يفعلون كما يقول السيد زولا تمامًا؛ إنهم مشغولون... إنهم دائمو العمل على شيء ما قد بدأ منذ

(٤٥) الإشارة إلى نبوة أرميا والتي استشهد بها المسيح أيضًا ذات مرة: «اِسْمَعْ هذَا أَيُّهَا الشَّعْبُ الْجَاهِلُ وَالْعَدِيمُ الْفَهْمِ، الَّذِينَ لَهُمْ أَعْيُنٌ وَلاَ يُبْصِرُونَ لَهُمْ آذَانٌ وَلاَ يَسْمَعُونَ». أرميا ٥: ٢١

زمن طويل من المستحيل عليهم أن يتوقفوا أثناء عمله حتى يستجمعوا شتات تفكيرهم ويتأملوا مليًّا فيما يجب أن يفعلوه[٤٦]. تجري كافة الثورات العظيمة في حياة البشر في الأساس داخل فكر الإنسان، ثم يتبعها الفعل بعد ذلك في الاتجاه الذي يمليه الفكر، كما لا بد وأن تتبع السفينة الاتجاه الذي تدفعها إليه دفة القيادة.

كلما يزداد إيمان الناس في أنهم قادرون على الاسترشاد بشيء ما خارجي، له فاعلية في حد ذاته، ومنفصل عن إرادتهم كالدين أو العلم، وأن هذا الشيء من شأنه أن يحدث تغييرًا يُحسِّن من حياتهم، كلما يصعب تحقيق هذا التغيير صوب الأفضل. هذه هي المشكلة الرئيسة في حديث زولا. على النقيض من ذلك، كلما يزداد إيمان الناس فيما يشير إليه دوماس، أنه لا محالة سوف يحل ذاك الوقت الذي سيشعر فيه البشر بالانجذاب الشديد نحو محبة بعضهم البعض، ويكرسون أنفسهم إلى ذلك الحب، فسوف يغيرون بإرادتهم كل مظاهر الحياة القائمة الآن، وكلما يحل هذا الوقت سريعًا. في هذا تكمن جدارة خطاب دوماس. ينصح زولا الناس ألا يغيروا من نمط حياتهم؛ بل أن يزيدوا من دعم نشاطهم في نفس الاتجاه، وبهذا فهو يشي لهم بعدم إجراء أي تغيير حقيقي في حيواتهم. أما دوماس في تنبئه بتغيير داخلي سوف يحدث في مشاعر الناس، فهو يشي إليهم به.

(٤٦) هذه الفكرة تتبعها بعمق شديد عالم النفس والمحلل الاجتماعي إريش فروم، والذي يتفق أحيانًا مع تولستوي في كثير من الآراء ويضيف له بشرح مفصل لماهية التغييرات التي يحدث بها التنويم المغناطيسي للبشر، فلا يختارون ما هو في صالحهم ويخضعون لغواية تدمير الذات.

يتنبأ دوماس أن البشر بعد أن يجربوا كل شيء، سيقومون في النهاية بالالتفات بجدية إلى تطبيق قانون «أحبوا بعضكم بعضًا» في الحياة، وكما يعتقد سوف يستولي عليهم جنون الحب. يقول أيضًا إن بإمكانه أن يرى عبر الظواهر التي تهدد البشرية سمات هذا المزاج الجديد الذي يعد بحلول الحب بين الناس، ويرى أن الشعوب التي تتسلح لا تكن كراهية لبعضها البعض، ويرى أيضًا في حرب الطبقات الغنية مع الفقيرة لم تعد تظهر مشاعر الفرحة بالنصر، بل أصبح المنتصر الآن يشعر بمعاناة حقيقية من أجل المهزوم، ولم يعد يشعر بالرضى؛ بل أصبح يشعر بالخزي من انتصاره. يرى دوماس أيضًا -وهو الأمر الأهم- تشكل بعض المراكز المشبعة بالحب وكيف يزداد حجمها ككومة من الثلج، وأنها لا محالة ستجذب صوبها كل ما تلتقيه في طريقها من الأحياء، حتى يكتمل اتحادهم جميعًا بها، وهذا سوف يتسبب في تغيير المزاج العام بتدمير كافة الشرور التي يُعاني بسببها البشر.

أعتقد أنه إن كان يمكن للمرء أن يجادل بشأن اقتراب موعد هذ التغيير الذي يشير إليه دوماس، أو حتى بشأن إمكانية انجذاب الناس من الأساس إلى محبة بعضهم البعض، فلن يجادل أحد أنه إن حدث ذلك فعلًا فلا محالة ستتخلص الإنسانية من القطاع الأكبر من كل ما يثبط من همتها وينذرها بمزيد من الكوارث. يستحيل ألَّا نعترف أنه إن قام الناس بما قيل لهم منذ آلاف السنين، ليس فقط من قِبل المسيح، ولكن من قِبل كافة حكماء العالم، بألا يكتفي المرء بأن يحب الآخرين كما يحب نفسه، بل أيضًا ألا يفعل للآخرين ما لا يود أن يفعلوه به، وإن

اعتنق الناس الإيثار بدلًا من الأنانية، وإن تغيرت حصة البشرية من النزعة الفردية صوب النزعة الجماعية التضامنية كما يتم التعبير عن هذه الفكرة بشكل سيئ في شعارات الناس وعلومهم، فسوف ينعم الناس بالسعادة بدلًا من المصائب والبلايا. علاوة على ذلك يقر الجميع أن نمط الحياة الموجود الآن، والـمُؤسَّس على أساس تلك القواعد البربرية الوثنية سوف يقود الإنسانية لا محالة إلى أفظع الكوارث، وأن هذا الوقت قد اقترب. يدرك الجميع أنه كلما تزداد وتيرة انتزاع الأراضي من بعضهم البعض، وكذلك الاستيلاء على نتاج عمل الآخرين، كلما تزداد حدة المرارة داخل القلوب، وأنه آجلًا أو عاجلًا سوف يقوم أولئك الذين فقدوا أراضيهم بإعادة الاستيلاء عليها ثانية، وحينها سيقومون بالانتقام بالعنف من كل ما عانوه. منذ زمن بعيد والناس قادرة على إدراك هذه الحماقة الواضحة المثيرة للسخرية التي تتجلى في تسلح الشعوب، والتي ستُنهي على بعضها البعض لا محالة، وإن لم يحدث ذلك في معارك مريعة لا تنتهي، فعلى الأقل سينتهي الأمر بهلاك كافة المشاركين في عمليات التسليح هذه. بالإضافة إلى ذلك، يعترف كافة معاصرونا بأهمية قانون الحب المسيحي لأنفسهم، أو حتى يعترفون بأهمية ذلك القانون العلماني المؤسس هو الآخر على قانون المسيحي الحب، والذي يقضي باحترام حياة الآخر وشخصيته وبقية حقوق الإنسان.

حينما بدأ المسيح بشارته لم يقل الناس أن عليهم أن يفعلوا كذا وكذا أو أن يشعروا بكذا أو كذا، لكنه قال للناس: توبوا (**μετανοεἰτε**)، غيِّروا من فهمكم للحياة. لم يقل للناس: «أحبوا بعضكم بعضًا»، فقد

قال هذه العبارة بعد ذلك لتلاميذه وللناس الذين فهموا تعاليمه، لكنه قال للناس نفس ما قاله لهم يوحنا المعمدان: توبوا! غيِّروا من طرقكم وفهمكم للحياة... توبوا وإلا جميعكم تهلكون. قال لهم: لا يمكن أن تكون فكرتكم عن الحياة أن يبحث كل منكم عن خيره الشخصي أو خير مجموعة معينة من الناس، وذلك لأن هذا الخير لن يناله الواحد منكم إلا على حساب أذى الآخرين. عليكم أن تدركوا أن معنى حياتكم هو تنفيذ إرادة مَن أرسلكم إلى هذه الحياة، وقد طلب منكم أن تنفذوا مقاصده هو لا مقاصدكم أنتم، ومقصده هو تأسيس الوحدة والمحبة بين كافة المخلوقات، وإقامة ملكوته السماوي هنا على الأرض، وحينها «يسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي» كما قال النبي قديمًا[٤٧]. غيِّروا مفهومكم عن الحياة، وإلا ستهلكون جميعًا.

ولكن البشر لم يستمعوا إلى كلمات المسيح، ولم يُغيِّروا من فهمهم للحياة من وقتها وحتى الآن. بغض النظر عن تعقد شكل الحياة وتطور وعي الناس في زماننا، فهذا الفهم المزيف لحقيقة الحياة، الموجود بين الناس، هو السبب الحقيقي الذي جعل الناس لا يتبعون قانون الحب، رغم أنهم قد وعوا الخير الذي يمكن أن ينالوه من الحب، والخطورة الشديدة التي تكتنف الحياة المناقضة لهذا القانون، بالإضافة إلى معرفتهم أن قانون الحب هو قانون الله أو قانون الحياة.

في الحقيقة أين يمكن أن تكون هناك فرصة للإنسان الآن الذي يعتبر هدف حياته هو خيره الشخصي أو خير أسرته أو شعبه، والذي

(٤٧) الإشارة إلى سفر أشعياء.

لا يمكن تحقيقه سوى بالصراع مع الآخرين الذي يسعون هم أيضًا إلى الهدف ذاته، وسط مؤسسات عالمية قد قنَّنت كل نوع من أنواع الصراع والعنف؟ أين يمكن أن تكون فرصته كي يحب أولئك الذين يقفون دائمًا في طريقه، والذي يتوجب عليه أن يتخلص منهم لا محالة كي يتمكن من الوصول إلى أهدافه؟

يمكن لأي إنسان في زماننا هذا أن يدرك أن هذه محض أوهام إن توقف للحظة عن الانشغال الدائم وفكَّر مليًّا في حقيقته وحقيقة العالم من حوله، وما الذي يجب عليه أن يفعله. لذا فإن كانت لديَّ نصيحة صغيرة أحب أن أوجهها للآخرين، فسأقول لهم: «توقفوا... توقفوا للحظة أرجوكم... أوقفوا العمل وانظروا من حولكم وفكِّروا في حقيقتكم وفيما يجب عليكم أن تفعلوا... فكروا في هذا المثال».

يقول السيد زولا إن الناس لا يتوجب عليهم أن ينظروا إلى ما هو شديد العلو، ولا أن يؤمنوا بقوة عُليا أو يحاولوا التمثُّل بمثال ما. ربما ما يفهمه السيد زولا من كلمة «مثال» إما شيء خارق للطبيعة مثل ذلك الهراء اللاهوتي عن عقيدة التثليث والكنيسة وعصمة البابا... إلخ، أو ربما يفهم من الكلمة – كما قال سابقًا– تلك القوة غير المدركة لذلك العالم الواسع الذي وجدنا أنفسنا فيه، وبهذا سوف يُسدي البشر خيرًا لأنفسهم إن اتبعوا نصيحة السيد زولا. ولكن الحقيقة هي أن المثال ليس شيئًا خارقًا للطبيعة ولا حتى غير مُدرك، بل على النقيض من ذلك؛ إنه أكثر الأشياء طبيعية في العالم، ولن أقول إنه أكثر الأشياء قابلية للإدراك، ولكنه من النوع الذي يمكن للإنسان أن يكون متيقنًا منه تمامًا.

في الهندسة يكون المثال هو أكثر الخطوط استقامة أو الدائرة التي تتساوى تمامًا أنصاف أقطارها. أما المثال في العلوم فهي الحقيقة الدقيقة، وفي الأخلاق هي الفضيلة الكاملة. ومع أن كل هذه الـمُثل: الخط المستقيم- الحقيقة الدقيقة- والفضيلة الكاملة لم يحدث أن وُجدت أبدًا، لكنها ليست فقط أكثر الأمور طبيعية في العالم، والأكثر قابلية للفهم والتفسير أكثر من كافة معارفنا الأخرى، بل إنها أيضًا هي الأشياء الوحيدة التي نعرفها حقًّا ونشعر أننا متيقنون منها تمامًا.

كثيرًا ما يُقال إن الحقيقة هي ما هو موجود، أو ما هو موجود وحده هو الواقع. في واقع الأمر النقيض من ذلك بالضبط هو الصحيح، فحقيقة الواقع التي نعرفها حقًّا هي ما لم يوجد أبدًا. المثال هو الشيء الوحيد الذي نعرفه بكامل اليقين، ورغم ذلك لم يحدث أن وُجِد في عالمنا أبدًا. أي شيء يمكننا أن نعرفه في هذا العالم فهو بفضل المثال وحده، لذلك فهو وحده ما يمكنه أن يرشد حياتنا، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي. ظل المثال المسيحي أمامنا لثمانية عشر قرنًا، وهو يسطع اليوم بقوة شديدة تتطلب منا جهدًا كبيرًا كي نتمكن من أن نشيح بأبصارنا عن حقيقة أن كل البلايا التي ألمت بنا هي في الحقيقة بسبب أننا لم نسترشد بهذا المثال. ولكن كلما تزداد صعوبة تجنب إدراك ذلك، كلما يزيد الناس من جهودهم كي يقنعونا أن نفعل كما يفعلون؛ أي أن نغلق أعيننا حتى نتجنب رؤية الحقيقة. يقولون: «كي يتمكن المرء من الوصول إلى الميناء فعليه قبل كل شيء أن يرمي بالبوصلة إلى البحر ويتوجه إلى الأمام». يشبه أفراد عالمنا المسيحي أناسًا يبذلون كافة

جهودهم للتخلص من شيء ما يفسد حياتهم، ولكن وسط عجلتهم الشديدة لم يكن لديهم الوقت حتى يتفقوا على الطريقة التي يلقون بها هذا الشيء، فأخذ كل منهم يجذبه من اتجاه مختلف. كان من الممكن أن يكتفي الإنسان اليوم بالتوقف عما يفعله وإمعان الفكر في المقارنة بين متطلبات العقل والضمير من ناحية، وبين ظروف حياته الحقيقية، وكان من شأن ذلك أن يجعله يدرك أن حياته بأكملها وكافة أفعاله في تناقض كامل جلي لمتطلبات العقل والضمير. اسأل كل إنسان الآن على حدة عن القواعد الأخلاقية لسلوكه، وجميعهم سيخبرونك أنها المبادئ الأخلاقية المسيحية، أو على الأقل مبادئ العدالة. وعندما يجيبونك بهذا فهم مخلصون فعلًا، فطبقًا لما تمليه عليهم ضمائرهم فعلى البشر أن يعيشوا وفقًا للمثال المسيحي، ولكن انظر كيف يسلكون في الحياة: إنهم يسلكون في الحياة كالوحوش. ولذلك فحياة الغالبية العظمى من الناس في عالمنا المسيحي لا تنسجم على الإطلاق مع متطلبات عقولهم وضمائرهم، فهي مختلفة تمامًا عن هذه المتطلبات، ولكن السبب الحقيقي لهذا الوضع القائم هو كل هذا الضجيج الذي يعيش فيه الناس الآن، والذي لا يترك لهم الفرصة للتفكير مليًّا.

في الأزمان السالفة حينما لم تكن شرور الحياة الوثنية قد أصبحت شديدة الوضوح بعد، خاصة عندما لم تكن المبادئ المسيحية قد تم قبولها على مستوى واسع، كان الناس قادرين على دعم العبودية وقمع البشر للبشر وقوانين العقوبات، وعلاوة على كل ذلك: دعم الحرب. أما الآن فقد أصبح من المستحيل تفسير سبب وجود مثل هذه المؤسسات.

يمكن للناس في زماننا هذا أن يواصلوا الحياة على النمط الوثني، لكن لا يمكنهم أن يبرروها.

حتى يمكن أن تحدث تغييرات حقيقية في المشاعر والأفعال على السواء، لا بد وأن تحدث أولًا تغييرات حقيقية في الفكر، وحتى يحدث ذلك لا بد على الإنسان أن يتوقف قليلًا ويتمعن التفكير فيما يحتاج إلى فهمه بكل صحيح. حتى يمكن للبشر الذين يندفعون صوب الهاوية أن يستمعوا وسط كل هذا الصراخ وصرير العجلات إلى الهتافات الصارخة لأولئك الذين يريدون أن ينقذوهم من السقوط، عليهم قبل كل شيء أن يتوقفوا أولًا. هكذا هو الأمر أيضًا مع الإنسان، فكيف يمكنه أن يُغيِّر من أفكاره وفهمه للحياة دون أن يتوقف، ويظل في طريقه والحماسة تملؤه، مدفوعًا من الأشخاص الذين يؤكدون له أنه على الطريق الصحيح، وهو يعمل على أساس هذا الفهم الخاطئ للحياة الذي يحتاج في الأساس إلى تغييره؟

إن توقف الناس في عالمنا المسيحي عن العمل وفكروا مليًّا في ظروف حياتهم، فسيقبلون طوعًا المفهوم المسيحي للحياة، وهو مفهوم طبيعي جدًّا، بسيط للغاية، يتجاوب تمامًا مع احتياجات العقل والضمير الإنسانيين، حتى إنه سيتضح بجلاء من تلقاء نفسه أمام كل إنسان قد حرَّر نفسه -ولو للحظة واحدة- من الفخاخ التي قد علق بها بسبب تعقيدات عمله وعمل الآخرين.

الوليمة معدة منذ ثمانية عشر قرنًا، ولكن أحدهم لن يأتي لأنه قد اشترى لتوه قطعة أرض، وآخر قد تزوج، وثالث اشترى ثورًا، ورابع

يشيد سككًا حديدية أو مصنعًا، وخامس مشغول في مهمة تبشيرية، وسادس مشغول في البرلمان أو في البنك أو في عمل علمي أو فني أو أدبي[٤٨]. على مدار ألفي عام لم يجد أحد وقتًا لفعل ما نصح به المسيح في بداية إرساليته؛ أي أن ينظر حوله ويفكر في نتائج عمله ويسأل نفسه: مَن أنا؟ لماذا أنا موجود؟ هل من المحتمل أن تكون القوة التي خلقتني بالعقل والرغبة في أن أحب الناس ويحبوني هم أيضًا قد فعلت ذلك لتخدعني فقط، بحيث أجد نفسي في صراع مع عقلي ورغبتي في أن أحب الآخرين ويحبوني هم أيضًا، عندما يبدو لي أن وجودي الشخصي هو الهدف الحقيقي من حياتي، وأنها تنتمي لي، وأن لديَّ الحق في تنظيمها كما يتراءى لي، وهو ما لدى الآخرين الحق في فعله أيضًا بحيواتهم، وأخيرًا في استنتاج أن هذه السعادة (الشخصية أو التي لأسرتي أو لأمتى) التي كنت أسعى إليها لا يمكنني الوصول إليها، وأني كلما أحاول أن أنالها كلما أشعر بمزيد من الوهم والمعاناة؟

(٤٨) الإشارة إلى المثل الذي قاله المسيح طبقًا لإنجيل متى ٢٢، وكان كالآتي: «يشبه ملكوت السماوات إنسانًا ملكًا صنع عرسًا لابنه ٣ وأرسل عبيده ليدعوا المدعوين إلى العرس فلم يريدوا أن يأتوا. ٤ فأرسل أيضًا عبيدًا اخرين قائلًا: قولوا للمدعوين: هو ذا غدائي أعددته. ثيراني ومسمناتي قد ذبحت وكل شيء معد. تعالوا إلى العرس! ٥ ولكنهم تهاونوا ومضوا واحد إلى حقله وآخر إلى تجارته ٦ والباقون أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم. ٧ فلما سمع الملك غضب وأرسل جنوده وأهلك أولئك القاتلين وأحرق مدينتهم. ٨ ثم قال لعبيده: أما العرس فمستعد، وأما المدعوون فلم يكونوا مستحقين. ٩ فاذهبوا إلى مفارق الطرق وكل مَن وجدتموه فادعوه إلى العرس. ١٠ فخرج أولئك العبيد إلى الطرق وجمعوا كل الذين وجدوهم أشرارًا وصالحين. فامتلأ العرس من المتكئين. ١١ فلما دخل الملك لينظر المتكئين رأى هناك إنسانًا لم يكن لابسًا لباس العرس. ١٢ فقال له: يا صاحب، كيف دخلت إلى هنا وليس عليك لباس العرس؟ فسكت. ١٣ حينئذ قال الملك للخدام: اربطوا رجليه ويديه وخذوه واطرحوه في الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان. ١٤ لأن كثيرين يدعون وقليلون ينتخبون».

أليس الأمر الأكثر احتمالًا يمكن أن يبدو كالآتي: طالما لم نأتِ إلى العالم بإرادتنا، بل بإرادة مَن أوجدنا فيه، فعقولنا ورغبتنا المغروسة بداخلنا التي تحثنا على حب الآخرين والرغبة في مبادلتهم لنا ذلك الحب أن تكون هي المرشد لنا في تنفيذ إرادة مَن أرسلنا إلى العالم؟

هذا هو الفهم المسيحي للحياة والذي تطلبه روح كل إنسان في زماننا هذا. حتى يتحقق ملكوت الله لا بد وأن يبدأ كافة البشر في محبة بعضهم البعض دون تفريق بين الأشخاص ولا الأسر ولا بين الشعوب. حتى يتمكن الناس من محبة بعضهم البعض يلزمهم أن يستجمعوا شتات أنفسهم، ويلزمهم قبل كل شيء أن يتوقفوا عن هذا النشاط الصاخب الذي يتطلبه الفهم الوثني للحياة، وعليهم أن يتحرروا مما يطلق عليه الهنود «السامسارا أو السانسارا»[٤٩]، من ضجيج الحياة التي تعوقنا أكثر من أي شيء آخر عن فهم الهدف من وجودنا.

لقد أصبحت البلايا التي تجلبها لنا الحياة الوثنية واضحة تمامًا للعيان، وقد انتشر الوعي المسيحي للحياة في زماننا هذا إلى الدرجة التي يتوجب فيها على الناس أن يتوقفوا فقط عن هذا الضجيج، وسوف يتمكنون من إدراك عبثية النشاط الذي يقومون به بوضوح كامل، وسيجدون أنه لا مفر لهم من اعتناق المفهوم المسيحي للحياة، مثلما لا يمكن للثلج إلا أن يسيل، وفور أن يتوقفوا عن الحركة حتى يتشكل المفهوم داخل أذهانهم. يلزم الناس فقط أن يتبنوا هذا المفهوم للحياة

(٤٩) كلمة سنسكريتية، تعني: التسكع بلا هدف، وتشير أيضًا إلى دورات الحياة المتعددة (تناسخ الأرواح).

ويحبوا بعضهم البعض؛ يحبوا كافة البشر والمخلوقات، وهذا الحب كامن داخل أرواحهم، ولا بد له حتمًا أن يتجلى في نشاطهم ويصبح المحرك الحقيقي لكافة أفعالهم، كما يظهر حب الذات وحب الأسرة وحب الوطن في الفهم الوثني للحياة الموجود الآن.

يلزم فقط أن يتجلى هذا الحب المسيحي في حياة الناس، وحينها ستتحطم أطر الحياة القديمة دون بذل أدنى مجهود، وتتأسس بدلًا منها أشكال جديدة للحياة، مع غياب هذه العوائق الرئيسة التي كانت تحول بين الناس وبين تحقيق ما أملته عليهم عقولهم وضمائرهم من زمن طويل.

إن وجَّه الناس فقط جزء بسيط من المائة من الطاقة التي يوجهونها الآن في إتمام أعمال مادية مختلفة غير مبررة تعمل على تعتيم وعيهم، في استجلاء وعيهم وتحقيق ما يتطلبه منهم هذا الوعي، فسوف يحل ملكوت الله بسرعة أقصى مما نتخيل... ملكوت الله الذي طلب منهم الله أن يحققوه على الأرض، وحينها سيجد الناس ذلك الخير الذي وعدهم به الله.

ابحثوا عن ملكوت الله وعن الحقيقة، وأي شيء آخر سوف يتبعهما.

٩ أغسطس ١٨٩٣

* * *

# لماذا يُخدِّر النَّاسُ أنفسَهم[٥٠]؟

## -١-

لماذا يلجأ الناس إلى ما يُخدِّر قواهم مثل الفودكا والنبيذ والجعة والحشيش والأفيون والتبغ، ووسائل أخرى أقل ذيوعًا كالإتير[٥١] والمورفين وعيش الغراب الزجاجي[٥٢]؟ لماذا بدأ ذلك الأمر، ولماذا انتشر -ولا يزال- بين مختلف أنواع البشر؛ المتحضرين والبربريين على السواء؟ ماذا تعنى حقيقة أننا إن لم نجد في أحد الأماكن فودكا أو نبيذ أو جعة، فلا بد وأن نجد الأفيون والحشيش وعيش الغراب الزجاجي وغيرها؟ لماذا يشعر الناس بالحاجة إلى أن يُخدِّروا أنفسهم؟

إن سألت أي شخص لماذا بدأ شرب الخمر، ولماذا هو مستمر في ذلك إلى الآن، فسيجيبك كالآتي: «آآه.. إنه أمر يبعث فيَّ السرور، والجميع يشربون أيضًا». وقد يضيف أيضًا: «من أجل المتعة». البعض من أولئك الذين لم يكلفوا أنفسهم يومًا عناء التفكير فيما إن كان من

---

(٥٠) كتب تولستوي هذه المقالة كمقدمة لكتاب عن السكر كتبه الطبيب: **P.S. Alexeyef**.

(٥١) سائل سريع الالتهاب يُستخدم كمخدر.

(٥٢) يشتهر باسم ذباب الغارقيون أو ذباب الأمانيت، عبارة عن فطر باسيديميسيتي (**basidiomycete**) سام وله مفعول نفسي، وهو واحد من العديد من الكائنات في جنس **Amanita**.

الصواب أو لا أن ينخرطوا في شرب الخمر، سوف يضيفون أيضًا إلى ذلك أن الخمر مفيدة للصحة، وتمنح صاحبها القوة... أي أنهم سيرددون كل ما قد أُثبِت خطؤُهُ من زمن بعيد.

وإن سألت مدخنًا لماذا بدأ في تدخين التبغ، ولماذا يدخن حتى الآن، فسيجيبك قائلًا: «بدافع من الملل... الجميع يدخنون».

بنفس الطريقة قد يجيب مَن يلجأون إلى الأفيون والحشيش والمورفين وعيش الغراب الزجاجي.

«هكذا... بدافع من الملل- لأجل المتعة- الجميع يفعلون هكذا». ولكن إن كان الأمر يتعلق بالملل، فيمكن للإنسان أن ينشغل في اللعب بأصابعه مثلًا أو يُصفِّر أو يغني أغنية أو يعزف على الناي أو ما إلى ذلك... وذلك يعني أنه ليس في حاجة إلى تدمير ثروات الطبيعة من أجل القيام بشيء كذلك، وليس في حاجة أيضًا إلى تبديد قوى عدد ضخم من العمال، ولن يقوم بشيء يجلب له ضررًا واضحًا ولا إلى الآخرين. ولكن إنتاج التبغ والخمور والحشيش والأفيون يتطلب عمل ملايين وملايين من البشر، بالإضافة إلى مساحات هائلة من الأرض، وغالبًا ما يكون سكانها في حاجة ماسة إليها، يزرعون في هذه الأراضي الفطر والبطاطس والكروم والحشيش والخشخاش والتبغ، ويتطلب ذلك أن يُبدِّد ملايين الناس -يصل عددهم في إنجلترا مثلًا إلى ثُمن عدد السكان- حياتهم بأكملها في إنتاج كل أنواع المخدرات. بالإضافة إلى الضرر الواضح للعيان من استخدام كل هذه المخدرات، فإنها تنتج كوارث مريعة يعرفها الجميع ويعترفون

بها، ومن جراء هذه الكوارث المريعة تهلك أعداد من البشر أكبر من الأعداد التي تهلكها الحروب والأمراض الخبيثة. الناس يدركون ذلك جيدًا، لذلك لا يمكن أن يكون سبب استخدامهم لكل هذه المواد هو مجرد شعور بالملل، ولا حتى الرغبة في المتعة، ولا بسبب أن الآخرين يفعلون الأمر ذاته.

لا بد إذنْ وأن هناك سببًا آخر. لا بد وأنك تلتقي على الدوام في كل مكان بأناس يحبون أطفالهم، ومستعدون للقيام بكل أنواع التضحيات من أجل خيرهم، وفي الوقت ذاته ينفقون على شرب الفودكا والنبيذ والجعة، وتدخين الأفيون أو الحشيش، أو حتى التبغ وحده ما كان يُمكِّنهم من سد رمق أطفالهم الجوعى، أو على الأقل ما يمكن أن يُخلِّصهم من العوز. من الواضح إذنْ أنه إن وجد إنسان نفسه أمام اختيار حتمي بين معاناة وحرمان أسرته التي يحبها، وبين الامتناع عن كافة أنواع المخدرات، فهو يختار الاختيار الأول، لذلك فما الذي يدفعه إلى هذا الاختيار؟ لا بد وأنه بالطبع أمر أكثر أهمية من أنه يفعل ذلك بسبب أن الأمر يبعث فيه السرور، أو بسبب أن الجميع يفعلون ذلك. من الواضح جدًّا أن السبب في ذلك ليس الملل، وليست الرغبة في الحصول على المتعة، بل هو سبب أكثر أهمية من كل ذلك بكثير.

سأوضح الآن السبب في ذلك، وقد أدركت السبب بقدر ما فهمت من القراءة عن هذه الظاهرة، وأيضًا من ملاحظاتي التي دوَّنتها عن الآخرين، وخاصة تلك الملاحظات التي كنتُ أنا موضوعها عندما كنت أشرب الخمور وأدخن التبغ.

في الفترة التي يبدأ فيها الإنسان في الوعي بحياته، كثيرًا ما يلاحظ داخل نفسه كيانين منفصلين عن بعضهما البعض: الأول أعمى جسدي، والآخر مبصر روحي. هذا الكيان الحيواني الأعمى يأكل ويشرب ويستريح وينام ويتكاثر ويتحرك، كما تفعل أي آلة بشكل نمطي، أما الكيان الروحي المبصر المرتبط بالكيان الأول الحيواني، فلا يفعل شيئًا، لكنه يكتفي فقط بتقييم نشاط الأول، ويمضي معه عندما يوافق على نشاطه، وينفصل عنه عندما لا يوافق على نشاطه.

يمكننا أن نقارن ذلك الكيان الروحي المبصر بمؤشر البوصلة، الذي يشير طرفه إلى الشمال، وطرفه الآخر إلى الجنوب، وثمَّ شريط غير مرئي يغطي السهم بحيث يتحرك حامل السهم في نفس اتجاهه، وما إن يظهر حتى يبتعد حامله عن الاتجاه الذي يشير إليه السهم.

بنفس الطريقة يشير لنا دائمًا ذلك الكيان الروحي الذي عادةً ما نطلق عليه «الضمير» بأحد طرفيه إلى الخير، ويشير الطرف الآخر لنا إلى النقيض من ذلك؛ إلى الشر، ونحن لا ندرك ذلك طالما لا نزال نسير في الاتجاه الذي يُشير لنا إليه ذلك الكيان الروحي؛ أي الاتجاه من الشر إلى الخير. ولكن إن قمنا بفعل ما يناقض الضمير، فحينها سنعي ذلك الكيان الروحي الذي يشير لنا إلى انحراف النشاط الحيواني عن الاتجاه الذي يشير لنا الضمير إليه. وكما أن الربان لا يمكنه أن يكمل التجديف أو توجيه الشراع وهو يدرك أنه لا يسير في الاتجاه الذي يجب أن يبحر فيه، إلا عندما يتخذ تلك الوجهة التي يشير إليها مؤشر البوصلة، ولا يمكنه أيضًا أن يُخفي عن نفسه وعيه بهذا الانحراف، فهكذا هو الأمر

أيضًا مع كل إنسان، فبعد أن يعي انحراف نشاطه الإنساني عن الجهة التي يُشير إليها ضميره، لا يمكنه أن يواصل نشاطه بهذه الطريقة حتى يعود في النهاية إلى التوافق مع ضميره، ولا يخفي عن نفسه صوت ضميره الذي يعرب عن عدم موافقته على سلوكه الحيواني.

يمكننا أن نقول إن حياة البشر تتألف من نوعين من النشاط: النشاط الموافق للضمير، والآخر الذي يخفون عنه أصوات ضمائرهم حتى يتمكنوا من مواصلة الحياة.

يقوم البعض بالنوع الأول من النشاط، وآخرون بالنوع الثاني. لا يتطلب منا النشاط الأول سوى وسيلة واحدة: التنوير الأخلاقي؛ أي زيادة النور الذي بداخلنا والانتباه إلى ما يكشفه لنا هذا النور. أما النشاط الثاني؛ ألا هو إخفاء صوت الضمير عن أنفسنا، فيمكننا أن نقوم به بنوعين من الوسائل: خارجية- داخلية. تتألف الوسائل الخارجية من كل ما من شأنه أن يشتت انتباهنا عن صوت الضمير، أما الوسائل الداخلية فتعتمد في الأساس على عملية تعتيم ضمائرنا.

يستطيع الإنسان بطريقتين مختلفتين أن يخفي عن باصريه شيئًا موجودًا: الطريقة الأولى خارجية وهي أن يُنحي بصره بعيدًا عن ذلك الشيء وينظر إلى شيء آخر أكثر إثارة للانتباه، والطريقة الثانية داخلية وهي أن يحول شيء بينه وبين البصر فلا يعود يبصر. وهكذا الأمر أيضًا مع الضمير، فالإنسان لا يمكنه أن يخفي عن نفسه صوت ضميره سوى بوسيلتين: الأولى خارجية وهي أن يشتت انتباه الضمير بمختلف أنواع المشاغل والاهتمامات واللهو والتسلية، والوسيلة الثانية داخلية، وهي

توقف قدرة الضمير نفسه على الإدراك. كثيرًا ما تكون عوامل التشتيت الخارجية كافية لأولئك الذين يتمتعون بحس أخلاقي متبلد وضعيف، بحيث لا يعود بمقدورهم أن يسمعوا أصوات ضمائرهم بشأن الحياة الشريرة. أما أصحاب الحس الأخلاقي الحاد، فلا تكفيهم هذه الوسائل كي تحول بينهم وبين أصوات ضمائرهم التي تُنَدِّد بالحياة الشريرة.

لا يمكن لوسائل التشتيت الخارجية أن تبعد الوعي تمامًا عن متطلبات الضمير. من شأن هذا الوعي أن يحول دون سير الحياة بشكل سلس، لذلك يلجأ الناس إلى وسائل داخلية لإعتام الضمائر بشكل فعَّال؛ ليتمكنوا من مواصلة الحياة على نفس النمط، وتتألف هذه الوسائل في الأساس من أنواع المخدرات المختلفة التي تُخدِّر العقل الإنساني.

أحيانًا ما لا تسير الحياة كما كان لا بد لها وأن تسير وفقًا لمتطلبات الضمير. ولا يكون لدى الإنسان قوة كي يجعل حياته تتوافق مع هذه المتطلبات. ولا تكفيه وسائل التشتيت كي تلهي وعيه عن تناقض حياته ومتطلبات ضميره، أو يمكن أن تكون حتى قد فقدت قوتها السابقة، ولذلك فلكي يتمكن الإنسان من مواصلة الحياة، بغض النظر عن صوت ضميره الذي يُشير إليه بتناقض حياته ومتطلبات ضميره، يلجأ الناس إلى كل ما من شأنه أن يخدرهم، وبهذا يوقفون نشاط هذا العضو الذي يتبدَّى عن طريقه صوت الضمير، كما يفعل الإنسان حينما يحجب الرؤية عن عينيه حتى لا يعود يرى ما لا يود أن يراه.

-٢-

السبب الحقيقي إذنْ خلف انتشار تعاطي الحشيش والأفيون والخمور والتبغ في العالم كله لا يتعلق بالمذاق أو بالمتعة أو بالتسلية؛ لكنه في الأساس يتعلق بالحاجة إلى إخفاء صوت الضمير عن النفس.

ذات مرة كنت سائرًا في الشارع، وبينما كنت أمرُّ بالقرب من بعض الحوذية، سمعت أحدهم يقول للآخر: «بالطبع يخجل المرء أن يفعل ذلك إن لم يكن ثملًا».

حينما لا يكون المرء ثملًا إذنْ يشعر بالخزي من شيء يمكنه أن يقوم به وهو ثمل دون شعور بالخزي. تفصح هذه الكلمات عن السبب الرئيس والحقيقي الذي يجعل الناس يهرعون إلى وسائل التخدير المختلفة. الناس يهرعون إليها حتى لا يعودوا يشعرون بالخزي عندما يقومون بفعل ما يناقض ضمائرهم، أو كي يضعوا أنفسهم في المستقبل في حالة تجعل من الممكن أن يرتكبوا أفعالًا معينة مناقضة للضمير، تجذبهم صوبها طبيعتهم الحيوانية.

عندما لا يكون المرء ثملًا، فإنه يشعرُ بالخزي من ملاحقة امرأة فاسقة، وكذلك يشعر بالخزي من السرقة، وبالطبع من القتل. أما السكير فلا شيء من ذلك يجعله يشعر بالخزي، لذلك فإن أراد الإنسان أن يقوم بفعل ما يُحرِّمه عليه ضميره، فعليه أن يُخدِّر نفسه.

أتذكر حجم الصدمة التي شعرتُ بها عندما سمعت شهادة رجل قتل قريبتي، وكان يعمل طبَّاخًا ويعيش معها، أما قريبتي فكانت سيدة عجوزًا. حكى الطباخ في شهادته أنه عندما أرسل عشيقته التي تعمل خادمة في المنزل بعيدًا، وحان الوقت، مضى إلى غرفة النوم ممسكًا بالسكين، لكنه شعر أنه لن يستطيع أن يقوم بالأمر دون أن يثمل: «يخجل المرء أن يفعل ذلك إن لم يكن ثملًا». عاد وتناول كأسين من الفودكا، وحينها فقط شعر أنه مستعد للأمر، وقام به.

إن تسعة أعشار الجرائم تحدث على هذا المنوال: «اشرب حتى تستجمع شجاعتك».

لا تستطيع نصف النساء الساقطات القيام بعملهن إلا تحت تأثير الخمر. لا يذهب الناس إلى بيوت الدعارة تقريبًا إلا وهم سكارى. الناس يدركون قدرة الخمر على حجب صوت الضمير عن النفس، ويستخدمون تلك الخاصية عن وعي لهذا الهدف تحديدًا. الأمر لا يقتصر على أن الناس يخدرون أنفسهم حتى لا يعود بإمكانهم سماع أصوات ضمائرهم، ولكن لأنهم يدركون ماذا تفعل الخمر تحديدًا، فإنهم يجبرون الآخرين عن طريقها أن يقوموا بأفعال تناقض ضمائرهم، ويخدرونهم عن عمد، أي أنهم يقومون بإسكارهم أو تخديرهم حتى يحرمونهم من ضمائرهم. يسكر الجنود دائمًا في الحروب عندما يقاتلون آخرين وجهًا لوجه. كان كافة الجنود الفرنسيين سكارى تمامًا حينما قاموا بالاعتداءات على أهالي سيباستوبول(٥٣).

(٥٣) حرب القرم (١٨٥٣- ١٨٥٦).

عندما يسقط مكان حصين، ولا يقوم الجنود بنهبه، وذبح الشيوخ والأطفال الذين فيه، عادة ما تصدر الأوامر بتقديم الخمر للجنود حتى الثمالة، وحينها سيقومون بما هو مطلوب منهم.

جميعنا يعرف أناسًا انخرطوا في الشرب بعد قيامهم بجريمة ما تعذب ضمائرهم. بإمكان الجميع أن يلاحظوا أن مَن يحيون حياة لا أخلاقية ينجذبون أكثر من غيرهم إلى كل ما من شأنه أن يُخدِّر الإنسان. لا يمكن للسرَّاق واللصوص والعاهرات أن يحيوا دون خمر.

الجميع يدركون ويقرون بأن لجوءهم إلى كل ما من شأنه أن يخدر الإنسان عادة ما يكون إثر تأنيب الضمير، وأنهم يستخدمون هذه المخدرات بسبب سمتها اللا أخلاقية التي تجعلها قادرة على إطفاء الضمائر. يدرك الجميع أيضًا ويقرون أن استخدام المخدرات يطفئ الضمير، وأن السكير قادر على القيام بما لا يستطيع الواعي حتى أن يفكر فيه. الجميع إذنْ متفقون على ذلك، ولكن الغريب جدًّا هو أنه عندما لا تحدث جرائم مثل السرقة والقتل وما إلى ذلك إثر هذه المخدرات، وعندما يتم الإقبال على أنواع المخدرات المختلفة لا بسبب أي من هذه الجرائم البشعة، بل بوصفها جزءًا من وظيفة البعض الرسمية؛ أولئك الناس الذين لا يعتبرون أنفسهم مجرمين، وعندما يتم الإقبال على أنواع المخدرات المختلفة بكميات معتدلة باستمرار، لا بكميات هائلة، حينها فقط يُفترض أن هذه المخدرات لا تعمل على إطفاء الضمير!

وهكذا يُفترض أنه عندما يشرب ثري روسي كأسًا من الفودكا قبل كل وجبة يوميًّا، ويشرب كأسًا من النبيذ مع الطعام، وعندما

يشرب الفرنسي الأفسنتين[٥٤]، والإنجليزي النبيذ الأحمر والبُرتر[٥٥]، والألماني جعته، وعندما يتناول الثري الصيني جرعته المتوسطة من الأفيون والتبغ، فإن كل ذلك يحدث بدافع من الرغبة في المتعة فقط، لكنه لا يؤثر على الضمير بتاتًا.

وهكذا افتُرض أنه إن لم تحدث جريمة سرقة أو قتل أو أي من تلك الأفعال الغبية والشريرة الشهيرة بعد تناول جرعة معتدلة من أي من أنواع المخدرات المختلفة هذه، فهذا يعني أن هذه الأفعال لم تنتج عن اعتياد تناول هذه المخدرات، بل إنها حدثت من تلقاء نفسها. وافتُرِض أيضًا أنه إن لم تحدث جريمة من قبل هؤلاء الناس، فليس لديهم سبب إذنْ كي يحاولوا إطفاء ضمائرهم، وأن الحياة التي يحياها هؤلاء الناس، الذين يخدرون أنفسهم بصورة مستمرة، هي حياة صالحة، وكانت لتصبح هي هي الحياة التي كانوا سيحيونها إن لم يقبلوا على أيٍّ من هذه المخدرات. افتُرِض أيضًا أن استخدام المخدرات الدائم لا يمكنه أبدًا أن يُطفئ صوت الضمير.

بغضِّ النظر عن أن كل إنسان يعرف من واقع خبرته الخاصة أن المزاج الإنساني يتغير من الإقبال على الخمر والتبغ، وأنه يجعل صاحبه يتوقف عن الشعور بالخجل مما كان يخجله دون نشوة المخدر، وأن الإنسان بعد كل شعور بتأنيب الضمير -مهما كان صغيرًا- يجد نفسه منجذبًا صوب تناول أي نوع من أنواع المخدرات، وأنه تحت تأثيرها

(٥٤) شراب مسكر.

(٥٥) ضرب من الجعة الثقيلة الداكنة.

يكون من الصعب جدًّا على الإنسان أن يفكر في حياته وفي وضعه، وأن الاستخدام الدائم والمنتظم للمخدرات ينتج في صاحبه تأثيرًا فيسيولوجيًّا يماثل التأثير الذي تنتجه الجرعات الكبيرة، إلا أنه لا يبدو للذين يشربون الخمر ويدخنون باعتدال أنهم يقومون بذلك بهدف إطفاء ضمائرهم بتاتًا، بل فقط بدافع من التلذذ بمذاقها أو بدافع من السرور الذي تضفيه هذه المواد عليهم.

ولكن يلزم المرء فقط أن يفكر في الأمر بجدية وموضوعية دون أن يحاول التماس الأعذار لنفسه، وحينها سيدرك الآتي:

أولًا: إن كان استخدام المخدرات بجرعات كبيرة يُطفئ الضمير، فإن الاستخدام المعتدل المتواصل لا بد وأن ينتج نفس الأثر؛ لأن تأثير هذه المواد الفيسيولوجي واحد دائمًا، فهي تعمل في البداية على إثارة النشوة في صاحبها، ثم تصيب عقل صاحبها بالبلادة، سواء تناولها الإنسان بجرعات كبيرة أم صغيرة.

ثانيًا: إن كانت هذه المواد قادرة على إطفاء الضمير، فإنها تقوم بذلك طوال الوقت، ولذلك يمكن تحت تأثيرها القيام بالقتل والنهب وأعمال العنف، ويمكن تحت تأثيرها أيضًا التفوُّه بكلمات لا يُمكن للإنسان التفوه بها دون الوقوع تحت تأثيرها، ولا كان من الممكن حتى التفكير فيها أو الشعور بها دون ذلك التأثير.

ثالثًا: إن كان تأثير هذه المواد لازمًا من أجل إطفاء ضمائر اللصوص والسُرَّاق والمومسات، فهو لازم أيضًا للناس الذين يشغلون

مهنًا تدينها ضمائرهم، حتى وإن كانت هذه المهن شرعية وتحظى باحترام المجتمع.

موجز القول أنه من المستحيل ألَّا ندرك أن استخدام هذه المواد سواء بكميات كبيرة أو صغيرة، بانتظام أو من حين لآخر، وسط مجموعات كبيرة أو صغيرة من الناس، له نفس الهدف دائمًا، وهو الحاجة إلى إطفاء صوت ضمير الإنسان حتى لا يعود يرى كم ابتعدت حياته عن متطلبات وعيه.

-٣-

هذا وحده ما يُفسِّر ازدياد الإقبال على المواد المخدرة من البعض، والتدخين من البقية، وقد يكون الأخير هو الأكثر انتشارًا والأكبر ضررًا.

افترض الناس أن التبغ من شأنه أن يبعث البهجة في المدخن، ويعمل على جلاء أفكاره، وأن المدخن يُقبل عليه كما يقبل على أي عادة أخرى، وأنه لا يحدث أبدًا تحت أي ظرف من الظروف أن يعمل التدخين على إطفاء الضمير، مثلما هو الأمر مع الخمر.

كل ما يلزمنا هو أن ننتبه جيدًا للظروف التي تظهر فيها رغبة ملحة للتدخين، حتى نصبح على قناعة من أن تأثير التبغ المخدر يماثل تمامًا تأثير الخمر، وأن له أثرًا على الضمير، وأن الناس يهرعون عن عمد وقصد إلى هذا التأثير المخدر، خاصة عندما يكونون في حاجة إليه. إن كان تدخين التبغ يعمل على جلاء الأفكار وإثارة انتباه صاحبه، لما

كانت هذه الحاجة الملحة إليه في ظروف معينة ومحددة، ولما قال الناس إنهم مستعدون لحرمان أنفسهم من الخبز أكثر من التبغ، وبالفعل كثير منهم يفضل تدخين التبغ على تناول الطعام.

يقص هذا الطاهي الذي ذبح سيدته أنه عندما دخل الغرفة وبدأ في جز عنقها بالسكين، وسقطت تتعالى منها حشرجات الموت وتدفقت الدماء في كل مكان، حينها شعر بالتردد. يقول الطاهي: «شعرت أنني لا يمكنني أن أتم الأمر. وحينها خرجت من غرفة النوم وجلست قليلًا في غرفة المعيشة ودخنت سيجارة». وعندما سرى فيه خدر التبغ، شعر فقط أنه قادر على إتمام مهمته، وعاد إلى غرفة النوم، وجز عنق العجوز تمامًا، وبدأ في جمع أغراضها بهدف السرقة».

من الواضح تمامًا أن الرغبة الملحة في تدخين التبغ في تلك اللحظة لم تكن بهدف أن صاحبها يريد أن يستجلي أفكاره أو يشعر بالبهجة، بل إنها الرغبة في إطفاء شيء ما يحول بينه وبين إتمام عمل شرير.

بإمكان كل مدخن أن يلاحظ في نفسه هذه الحاجة الملحة لتخدير نفسه بالتبغ في لحظات معينة شديدة الصعوبة. أذكر جيدًا الأوقات التي كنت أشعر فيها برغبة ملحة في التدخين، حينما كنت لا أزال أدخن التبغ. دائمًا ما كانت هذه الرغبة تظهر في تلك اللحظات التي لا أريد فيها التفكير في تلك الذكريات التي تتداعى إلى ذاكرتي... في تلك اللحظات التي أريد فيها أن أنسى شيئًا ما ولا أفكر فيه. كنت أجلس وحدي، لا أفعل شيئًا، عالـمًا أنه عليَّ البدء في العمل، لكني لا أرغب في ذلك، وحينها أظل في مكاني وأنخرط في التدخين. كنت قد وعدت

أحدهم بالذهاب إليه في الخامسة، ومع ذلك ظللت في مكاني. تذكرت أني تأخرت عن موعدي، لكني لا أريد أن أفكر في ذلك، فأخذت أدخن. شعرت بالضيق وتحدثت بطريقة غير لائقة مع أحدهم عالمـًا أني أفعل أمرًا سيئًا، مدركًا أنه عليَّ التوقف عن ذلك، لكني شعرت أني أود أن أفسح المجال لغضبي وسخطي... استمررتُ في التدخين والغضب. في مناسبة أخرى ألعب الورق وأخسر أكثر مما انتويت أن أخاطر بخسارته، فأدخن. مرة أخرى أضع نفسي في موقف صعب، فقد تصرفت على نحو شرير، وأخطأت، وعليَّ الآن أن أدرك وضعي حتى أتمكن من الخروج منه، لكني لا أريد الاعتراف بذلك، وحينها أسيء للآخرين وأنخرط في التدخين. أكتب شيئًا ذات مرة ولا أشعر بالرضى عنه. عليَّ أن أُلقي بما كتبته، لكني أريد الانتهاء من الأمر، لذا أنخرط في التدخين. في مناسبة أخرى أنخرط في مناقشة مع أحدهم، وأرى أننا لا يمكننا أن نصل إلى تفاهم مع بعضنا البعض، ومع ذلك أريد أن أستمر في التعبير عن أفكاري، فأواصل التحدث مع التدخين.

ما يُميِّز التبغ عن بقية أنواع المخدرات الأخرى، بالإضافة إلى سهولة استخدامه والاعتقاد في عدم وجود أضرار له، هو سهولة حمله وإمكانية استخدامه في مواقف بسيطة ومنفصلة، ناهيك عن أن تعاطي الأفيون والحشيش وشرب الخمور يتطلب بعض الترتيبات الأخرى قد لا تكون متوفرة دائمًا، أما تدخين التبغ فأمر سهل، يمكن دائمًا توفر ورق التبغ مع المرء، وبينما يثير مدخن الأفيون أو مدمن الكحوليات الفزع في الناس، فمدخن التبغ لا يلقى أي نوع من أنواع الرفض، كما

أن تناول جرعات من الأفيون والحشيش والخمور يؤتي بأثره على المشاعر والأفعال التي ينتجها المرء أو يستقبلها في فترة معينة محدودة من الزمن، بينما يمكن توجيه تأثير التبغ إلى كل ظرف من الظروف على حدة. إن أردت أن تقوم بما لا يتوجب عليك أن تقوم به، فدخِّن سيجارة ودع الخدر يتسلل إليك بقدر ما تريد حتى تتمكن من فعل ذلك، وبعدها ستجد نفسك قد عدت إلى وعيك، وحينها يمكن أن تفكر وتتحدث بوضوح، أو حتى تشعر أنك فعلت ما لم يكن عليك فعله، لذا عليك حينها أن تعاود تدخين سيجارة أخرى، وسيتلاشى هذا الشعور السيئ وتأثير ذلك الفعل الأخرق، ويمكنك بعدها أن تنشغل بشيء آخر وتنسى كل شيء.

ولكن بعيدًا عن تلك المرات المحددة التي لا يُهرع فيها كل مدخن إلى التدخين بدافع من العادة وتمضية الوقت، بل بهدف إطفاء الضمير أمام أفعال يتوجب أن يقوم بها، أو يمكن أن يكون قد قام بها فعلًا، ألا نستطيع أن نرى بوضوح علاقة واضحة ومحددة بين نمط حياة الناس وشعورهم بالرغبة في التدخين؟

متى يبدأ الصبية في التدخين؟ يحدث ذلك دائمًا عندما يفقدون براءتهم. ولماذا يستطيع المدخنون أن يتوقفوا سريعًا عن التدخين حينما يعيشون حياة أكثر أخلاقية، ويعاودون التدخين مجددًا حينما يعاودون الاختلاط بأوساط منحطة؟ لماذا يُقبل كافة لاعبي القمار تقريبًا على التدخين؟ ولماذا تكون النساء اللاتي يعشن حياة لائقة أقل عرضة للتدخين؟ ولماذا تدخن المومسات جميعًا وكذلك المخبولات؟ العادة

هي العادة، ولكن من الواضح أن هناك ارتباطًا قويًّا بين التدخين والرغبة في إطفاء الضمير[٥٦].

إلى أي مدى يمكن للتدخين أن يطفئ من صوت الضمير؟ هذا ما يمكننا أن نلاحظه في كافة المدخنين تقريبًا. عندما يستسلم كل مدخن لشهوته يتناسى أكثر ضروريات الناس من حوله أهمية، والتي كان يطالب بها الآخرين، ويحاول أن يحافظ عليها في كافة الظروف طالما التبغ لم يُطفئ صوت ضميره بعد. أي إنسان قد نال تعليمًا متوسطًا يقر ويعترف أنه من غير المباح له، بل ويُعتبر من سوء الأدب إلى حد أنه يُعتبر أيضًا سلوك وحشي أن ينتهك المرء هدوء وراحة الآخرين من حوله، والأكثر من ذلك أن يضر بصحة الآخرين. لا أحد يمكن أن يسمح لنفسه أن يغرق غرفة يجلس فيها الناس بالماء، أو أن يثير ضجيجًا ويصرخ أو

(٥٦) ولكن ما تفسير أننا كثيرًا ما نجد أناسًا من غير المقبلين على التدخين وشرب الكحوليات في مستوى عقلي وأخلاقي أدنى للغاية من أولئك الذين يقبلون على الشرب والتدخين؟ ولماذا يبدي المدخنون والمقبلون على الشرب كثيرًا أعلى السمات العقلية والروحية؟ الإجابة على ذلك الأمر كالآتي:

أولا: نحن لا نعلم المستوى الذي كان يمكن أن يصل إليه المدخنون والمقبلون على شرب الكحوليات إن لم يكونوا مقبلين عليها. أما أن أولئك الذين يعرضوا أنفسهم لتأثير المواد المخدرة ومع ذلك يقومون بأمور عظيمة، فلا يمكننا أن نستنتج من ذلك إلا أمرًا واحدًا؛ ألا وهو أنه كان بإمكانهم أن يقوموا بما هو أعظم من ذلك إن لم يكونوا قد تعرضوا إلى تأثير هذه المواد المخدرة. من المحتمل جدًّا كما أخبرني أحد المعارف أن كتب كانط كانت من الممكن أن تظهر بلغة أفضل من تلك اللغة الغريبة والسيئة التي كتبها بها إن لم يكن يدخن كثيرًا إلى هذا الحد.

ثانيًا: علينا ألا ننسى أنه كلما ينخفض المستوى العقلي والأخلاقي للإنسان كلما يقل شعوره بالتناقض بين وعيه وبين حياته، وبالتالي يقل شعوره بالحاجة إلى المواد المخدرة، وهذا هو السبب في أن أصحاب الطبائع الحساسة الذين يشعرون بألم مضنٍ من جراء التناقض بين وعيهم وضمائرهم ينغمسون في المخدرات ويموتون من جرائها. (المؤلف).

أن يملأها بالهواء البارد أو الساخن، أو يعبئها بالرطوبة، أو أن يرتكب أي فعل يزعج راحة الآخرين ويضر بهم. لكننا لا نجد ولا حتى واحدًا فقط من بين ألف مدخن يتردد لثانية واحدة في أن يملأ الغرفة بدخان ضار تتنفسه النساء غير المدخنات والأطفال. وإن سأل المدخنون بطريقة تلقائية من معهم بالمكان: «أتمانع في أن أدخن؟» فهم جميعًا يعلمون أن الإجابة ستكون: «لا على الإطلاق»، بغضِّ النظر عن أن غير المدخن لا يمكنه ألا يتضرر من تنفس دخان فاسد ومن أن يجد بقايا السجائر في الكؤوس أو الأكواب أو الأطباق أو على الشمعدان أو حتى في الطفايات. ولكن حتى إن كان من بالمكان بالغين غير مدخنين، بإمكانهم أن يتحملوا دخان التبغ، فلا يمكن للأطفال ألا يتضرروا أو أن يصيبوا أي فائدة من ذلك. رغم ذلك فكافة أفراد الطبقات الراقية من الناس، الذين يتعاملون بإنسانية في كافة المواقف الأخرى، نجدهم يدخنون في حضور الأطفال وعلى طاولة الغداء، وفي الغرف الصغيرة، ويملؤون الهواء بدخان التبغ، ولا يشعرون مع ذلك بأقل قدر من تأنيب الضمير.

عادة ما يُقال -وحتى أنا قد قلت ذلك من قبل- إن التدخين يُسهِّل العمل الذهني. وهذه حقيقة لا شك فيها إن نظرنا فقط إلى كمية العمل الذهني. يبدو للإنسان المدخن الذي يتوقف بعد ذلك عن فحص وتقييم أفكاره أن أفكارًا كثيرة قد راودت رأسه فجأةً ولكن الأمر ليس كذلك على الإطلاق، فكل ما في الأمر أنه قد فقط السيطرة على أفكاره.

عندما يعمل الإنسان فإنه دائمًا ما يدرك بداخله كيانين مختلفين:

الأول هو العامل، والآخر هو مَن يُقيِّم عمله. كلما تشتد قوة التقييم، كلما تقل سرعة العمل، وتزداد جودته، والعكس أيضًا صحيح، بمعنى أنه إن سقط الكيان المسؤول عن التقييم تحت سلطان المخدِّر فإن سرعة العمل تزداد، وتقل كفاءته في الوقت ذاته.

عادة ما يقول الكثيرون، وأنا شخصيًّا كنت منهم: «لا أستطيع الكتابة دون تدخين. لا أستطيع الاستمرار دون تدخين، فأنا أبدأ الكتابة ولا أستطيع أن أكمل». ماذا يعني هذا؟ هذا يعني أنه إما أنك ليس لديك ما تكتبه، أو أن ما تريد أن تكتبه لم يختمر في ذهنك بعد، وليس لديك عنه سوى صورة ضبابية، والناقد الذي يعيش في داخلك، الذي لم يتخدر بالتبغ، يقول لك ذلك. إن لم تكن قد دخنت، فإما أنك كنت ستترك ما كتبته وتنتظر بعض الوقت حتى يتخمر في ذهنك، أو أنك كنت ستحاول التفكير مليًّا في الفكرة التي طرحت نفسها بشكل ضبابي على عقلك، ولكنت قد أمعنت الفكر في الاعتراضات التي أُثيرت أمامك، ولأجهدتَ ذهنك من أجل استجلاء أفكارك. لكنك تدخن وأنت جالس على مقعدك، ويشعر الكيان الناقد الذي بداخلك بالخدر، ويتلاشى أي حاجز بينك وبين إكمال عملك، وكل ما كان يبدو لك من دون تبغ أمرًا ضئيل الأهمية، سيبدو لك مجددًا أمرًا شديد الأهمية، وكل ما بدا لك غير واضح لن يعود كذلك، وكل ما كان يحول بينك وبين الاستمرار في عملك سيزول، وستواصل الكتابة، وستكتب أكثر وأسرع.

## -٤-

عادة ما يُقال: «ولكن هل يمكن لتغيير بسيط وتافهٍ جدًّا إثر جرعة بسيطة جدًّا من الأفيون أو تَعاطي الخمور أو التبغ بكميات بسيطة معتدلة أن يؤدي إلى نتائج ضخمة بهذه الطريقة؟ من المفهوم طبعًا أنه إن قام الإنسان بتدخين الأفيون والحشيش وشرب الخمور حتى يتهاوى ويفقد قدرته على الإحساس، فمن شأن عواقب هذا التخدير أن تكون ذات شأن، ولكن عندما يتناول المرء جرعةً بسيطةً جدًّا من الأفيون أو التبغ، فلا يمكن أن يُحدث ذلك مثل هذه التغييرات الضخمة». يعتقد الكثيرون أن الجرعات الطفيفة من المخدرات، أو إطفاء الوعي بدرجة قليلة جدًّا لا يمكنها أن تؤدي إلى نتائج ذات شأن، ولكن التفكير بهذه الطريقة يشبه تمامًا أن نعتقد أن ارتطام ساعة بالصخر من شأنه أن يضر بها، ولكن وضع بعض التراب داخل قلبها لا يمكنه أن يُضر بها.

العمل الرئيس المحرك لحياة البشر أجمعين لا تنتجه حركة اليدين أو القدمين ولا الظهر، بل وحده الوعي هو ما ينتجه. كي يقوم الإنسان بفعل ما مستخدمًا يديه أو قدميه، لا بد وأن يكون قد حدث تغيير ما في وعيه قبل ذلك. وهذا التغيير من شأنه أن يحدد كل أفعال الإنسان التالية له، ودائمًا ما تبدو هذه التغييرات ضئيلة جدًّا إلى درجة أنها تبدو غير ملحوظة تقريبًا.

ذات يوم صحَّح بريولوف[٥٧] بحثًا لطالب لديه. وبعد أن فحص

(٥٧) كارل بريولوف (١٧٩٩ - ١٨٥٢): رسام روسي شهير.

الطالبُ التصحيحات، قال له: «لقد أجريت على بحثي تغييرًا طفيفًا للغاية، ورغم ذلك تغير تمامًا». فأجابه بريولوف: «الفن الحقيقي يبدأ مع هذه الدرجة الطفيفة للغاية من التغيير».

وهذه العبارة صحيحة تمامًا، ليس فقط فيما يخص الفن، ولكن في الحياة بأكملها. من الممكن أن نقول إن الحياة الحقيقية لا تبدأ سوى مع هذا التغيير الطفيف، والذي تبدأ معه سلسلة لا نهائية من التغييرات الطفيفة. لا تبدأ الحياة الحقيقية حيث تحدث تغييرات خارجية ضخمة، ولا حيث يتعارك الناس ويصطدمون ويتشاجرون ويقتلون بعضهم البعض، لكنها تبدأ فقط حينما تبدأ تلك التغييرات المتفاوتة الضئيلة جدًّا جدًّا في الحدوث.

لم تبدأ حياة راسكولنيكوف[٥٨] الحقيقية حينما قتل العجوز أو شقيقتها. فحينما قتل المرابية العجوز، والأكثر منها شقيقتها، لم يكن يحيا حياته الحقيقية، بل كان يتحرك كالآلة، ويقوم بما لم يكن من الممكن له ألا يقوم به، وقد أطلق أخيرًا من داخله تلك القذيفة التي لقَّم بها نفسه منذ زمن طويل. ها قد قُتِلت امرأة، وامرأة أخرى واقفة أمامه، والبلطة في يده!

لم تبدأ حياة راسكولنيكوف الحقيقية في الوقت الذي التقى فيه بشقيقة العجوز؛ بل في اللحظة لتي لم يكن قد التقى فيها بعد بالعجوز، ولم يكن قد اقتحم بعد شقة إنسان غريب بهدف القتل، ولم يكن قد حمل البلطة بعد في يده، ولم تكن لديه أنشوطة يربط فيها البلطة داخل

(٥٨) راسكولنيكوف هو بطل رواية دوستويفسكي الشهيرة (الجريمة والعقاب).

معطفه؛ في اللحظة التي لم يكن قد فكَّر فيها بعد في العجوز، وكان مستلقيًا على الأريكة، دون حتى أن يفكر فيما إن كان من المباح لإنسان أن يزيل من على وجه الأرض إنسانًا آخر لا يحتاج إليه بل ويتضرر من وجوده أم لا... بدأ الأمر في اللحظة التي كان يفكر فيها ما إن كان يتوجب عليه أن يعيش في سان بطرسبرج أم لا... في اللحظة التي كان يفكر فيها ما إن كان يتوجب عليه أن يأخذ أموالًا من أمه أم لا، وأمور أخرى من هذا القبيل، غير مرتبطة على الإطلاق بمسألة العجوز. وحينها فقط في تلك اللحظة التي تدخل ضمن نطاق النشاط الحيواني للإنسان، حُسم أمر قتل العجوز من عدمه. إن هذه المسائل لم تُحسم عندما وقف والبلطة في يده أمام امرأة أخرى بعد أن قتل العجوز... لم تحسم هذه المسألة بتاتًا عندما بدأ في ارتكاب الفعل، بل حُسِمت فقط عندما كان جالسًا لا يفعل شيئًا سوى التفكير؛ عندما كان وعيه يعمل بكثافة، وفي هذا الوعي جرت تغييرات طفيفة للغاية. في مثل هذه الأوقات يكون من المهم جدًّا من أجل التوصل لقرار صحيح بخصوص مسألة ما أن يفكر الإنسان بأقصى قدر من الوضوح والصفاء، وحينها فقط يمكن لكأس واحد من الجعة، أو سيجارة واحدة أن تحول بين الإنسان وبين قراره المهم هذا، ومن الممكن أن تطفئ صوت ضميره، ويتم اتخاذ القرار لصالح الطبيعة الحيوانية داخل الإنسان كما حدث مع راسكولنيكوف.

يمكن لتغييرات طفيفة جدًّا جدًّا أن تنتج عواقب ضخمة مريعة إلى أقصى حد. فعندما يقوم إنسان بفعل ما، من الممكن أن يحدث إثر فعله هذا تغييرات مادية هائلة... من الممكن أن تنهدم منازل، وأن تزول

ثروات، وتهلك أجساد بشر، ولكن لا شيء يمكن أن يحدث أكبر مما يتوارى في وعي الإنسان. فأقصى حدود لما يمكن أن يحدث موجودة سلفًا داخل الوعي.

ولكن منذ اللحظة التي تبدأ فيها تغييرات طفيفة للغاية في الحدوث داخل إطار الوعي يمكن أن تحدث عواقب لا يمكن تصور جسامتها... عواقب لا حدود لها.

لا تظنوا أن ما أقوله الآن له أي علاقة من قريب أو من بعيد بمسألة الجبرية وحرية الإرادة، فالحديث عن هذا الموضوع بعيد عما أريد أن أناقشه، وبعيد عن الموضوع بشكل عام. أنا لا أتساءل الآن هل يمكن للإنسان أن يتصرف كما يريد أم لا، فأنا أعتقد أن هذا السؤال بهذه الصياغة غير صحيح من الأساس، لكني أناقش الآن كيف يمكن للنشاط الإنساني أن يتحدد طبقًا لتغييرات طفيفة تحدث في الوعي، سواء اعترفت بما يُطلق عليه «حرية إرادة» أم لم تعترف بها، عليك أن تولي انتباهًا كبيرًا إلى هذه الحالة التي تحدث فيها هذه التغييرات الطفيفة للغاية، تمامًا كما تولي انتباهًا دقيقًا للموازين التي نزن بها الأشياء. علينا أنا نحاول بقدر ما نستطيع أن نجعل أنفسنا والآخرين في هذه الظروف التي يمكننا فيها أن نفكر بوضوح ودقة، وهي الشروط اللازمة لعمل الوعي بشكل صحيح، ولا نفعل العكس محاولين أن نُعقِّد ونُزيد من صعوبة عمل الوعي بتعاطي المواد المخدرة.

يحوي الإنسان بداخله كيانين مختلفين: روحي وحيواني. من الممكن للإنسان أن يسلك وفقًا لكيانه الروحي، ومن الممكن أن يسلك

وفقًا لكيانه الحيواني. كذلك هو الأمر مع الساعات، فمن الممكن لها أن تتحرك بعقاربها أو عن طريق عجلتها الرئيسة. ومثلما من الأفضل فيما يخص الساعة أن تكون حركتها نابعة من آلية داخلية فيها، فكذلك من الأفضل للإنسان أن يتحرك بإرشاد من وعيه الداخلي. ومثلما يتوجب على الإنسان أن يصون العنصر الموجود داخل الساعة والمسؤول عن عملها، فكذلك على الإنسان أن يحافظ على طهارة وجلاء وعيه، الذي هو أفضل ما يمكن أن يسترشد به في حياته. لا يمكن أن تساورنا الشكوك بشأن ذلك الأمر، والناس جميعًا يدركون ذلك جيدًا، ولكن هناك حاجة لخداع النفس بشأن ذلك الأمر. الناس لا يريدون أن يعمل الوعي بطريقة سليمة، حتى يبدو لهم أنهم يفعلون الصواب، ولذلك يستخدمون عن عمد موادًا تحول دون عمل الوعي بطريقة صحيحة.

-٥-

البشر لا يشربون الخمور، ولا يدخنون بدافع من الملل، ولا من أجل المتعة، ولا من أجل أن ذلك يبعث فيهم السرور ولكن فقط لإطفاء ضمائرهم. وطالما الأمر كذلك فلا بد وأن تكون النتائج مريعة للغاية. يمكنك بالفعل أن تتصور كيف يمكن أن يبدو بناءً يشيده بناته دون مسطرة الفادن[٥٩]، ولا يستخدمون زوايا قائمة صحيحة في تشييد حوائطه، بل يستخدمون قاعدة ناعمة يمكن لها أن تنثني، وزاوية يمكن أن تمتد لتناسب أي مقياس!

(٥٩) مسطرة يستعملها البناؤون.

هذا ما يحدث في حياة البشر بفضل المخدرات، فتمضي الحياة بعيدًا عن إرشاد الضمير، فالأخير هو الذي يذعن للحياة.

يحدث هذا في حياة الأفراد بشكل منفصل كما يحدث في حياة الإنسانية بشكل عام، فالأخيرة تتألف من حياة كل فرد على حدة.

وحتى نتمكن من فهم خطورة تخدير الإنسان لوعيه، على كل إنسان أن يتذكر جيدًا حالته الروحية في كل فترة من فترات حياته. سيكتشف الجميع أن في كل فترة من فترات حياة الإنسان هناك أسئلة أخلاقية محددة تطرح نفسها أمامه، كان عليه أن يحسم أمرها، وأن خير حياته كلها قد تحدد طبقًا للطريقة التي حسم بها هذه الأسئلة. وحتى يتمكن الإنسان من حسم هذه المسائل فإنه يكون في حاجة إلى تركيز شديد. هذا التركيز يشكل عملًا، وفي كل عمل -خاصة في بدايته- تأتي فترة على الإنسان يبدو فيها العمل ثقيلًا مؤلـمًا، ويحث الضعف الإنساني صاحبه بالرغبة في ترك العمل. في مثل هذه الأوقات يبدو العمل البدني أمرًا مؤلـمًا حد التعذيب خاصة في بدايته، والأمر الأكثر تعذيبًا هو العمل الذهني. وكما يقول ليسينج[٦٠]: «يميل الناس إلى التوقف عن التفكير عندما يبدو التفكير صعبًا»، وأنا أضيف على ذلك أنهم يتوقفون أيضًا عن التفكير عندما يبدو مثمرًا. يشعر الإنسان أن حسم القضايا التي تواجهه يتطلب منه تركيزًا قد يكون مؤلمـًا أكثر من العمل نفسه، وهو

(٦٠) كاتب، وفيلسوف، وكاتب مسرحي، وناقد فني ألماني هو أحد أهم ممثلي عصر التنوير، مسرحياته وكتاباته النظرية أثرت بصورة كبيرة على تطور الأدب الألماني.

يريد أن يتفادى ذلك. إن لم تكن لديه وسائل تخدير داخلية لما تمكن من تفادي مواجهة هذه القضايا التي تواجهه، ولوجد نفسه يشعر -طوعًا أو كراهًا- بضرورة حسم هذه القضايا. ولكن ها هو الإنسان يجد أمامه وسيلة يُبعد بها هذه القضايا عنه إلى الأبد، وبالطبع يستخدمها. وما إن تبدأ مثل هذه القضايا في تعذيبه حتى يلجأ الإنسان إلى هذه الوسائل ويهرب من القلق الذي تثيره بداخله. حينها يتوقف الوعي عن المطالبة بحسم هذه القضايا، وتظل عالقة كما هي حتى تحل لحظة تنوير أخرى، ولكن عندما تحل مثل هذه اللحظة يتكرر الأمر ذاته ويواصل الإنسان مواجهة مثل هذه القضايا الأخلاقية بالشهور والأعوام دون أن يخطو خطوة واحدة على طريق الحل، رغم أن التوصل إلى حلول بشأن مثل هذه المسائل الأخلاقية هو ما يشكل حركة الحياة بأكملها.

ما يحدث يُشبه إنسانًا يحاول أن يرى قاع مياه موحلة حتى ينال لؤلؤة ثمينة، لكنه لا يحب الخوض داخل المياه، وعندما تصفو المياه يعكرها ثانيةً فلا يعود يراها. كثيرًا ما يواصل الإنسان تخدير نفسه طوال حياته، ويظل ثابتًا في مكانه، في نفس الرؤية المشوشة المضطربة للعالم، وفي كل مرة تأتيه لحظة من التنوير والصفاء يرتكز على نفس الحائط الذي كان يستند عليه منذ عشرة أو عشرين عامًا، ولا يمكنه الولوج عبره؛ لأنه قد صنع منه عن عمد حائطًا بليدًا لا يمكن للأفكار الحادة أن تخترقه.

ليتذكر كل منا نفسه في الفترات التي كان يقبل فيها على شرب الخمر والتدخين، وليتفحص الأمر ذاته في الآخرين، وسيلاحظ كل منا سمة واحدة دائمة تميز بين مَن يقبل من الناس على تخدير نفسه،

وبين مَن حرَّر نفسه من وسائل المخدرات المختلفة؛ كلما يزداد تخدير الإنسان لنفسه، كلما يصبح بليدًا من الناحية الأخلاقية.

-٦-

إن عواقب استخدام الأفيون والحشيش حقًّا مريعة في تأثيرها على الأفراد كما نصفها هنا تمامًا، وكذلك هي عواقب شرب الخمر كما نرى أثرها على مدمني الشرب البائسين، ولكن العواقب الأكثر خطورةً بدرجةٍ لا يمكن مقارنتها بما سبق على المجتمع بأكمله، هي درجة الاستهلاك المعتدلة للفودكا والنبيذ والجعة والتبغ، والتي يعتبرها المجتمع لا تشكل أدنى خطورة، وهي التي يدمنها أغلب أفراد المجتمع خاصة أولئك المدعوين بـ»الطبقات المثقفة». لا بد وأن تكون هذه العواقب مريعة إن اعترفنا بما لا يمكننا ألا نعترف به، ألا وهو الآتي: يتولى الجزء الأكبر من الأنشطة الإنسانية التي تقود المجتمع مثل النشاط السياسي والوظيفي والعلمي والأدبي والفني أناس ليسوا في حالة طبيعية؛ أناس سكارى! غالبًا ما يُفترض أن الإنسان الذي يشرب مشروبات كحولية عند تناوله لكل وجبة طعام -مثلما يفعل أغلب أفراد الطبقات التي تعيش في رغد العيش- يمكنه أن يذهب إلى العمل في اليوم التالي في حالة طبيعية ورزينة تمامًا، ولكن ذلك غير حقيقي على الإطلاق. مَن يشرب زجاجة نبيذ في العشية وكأس فودكا أو كوبين من الجعة يعاني بشكل طبيعي جدًّا من الآثار البغيضة التي تخلف الشرب، أو حتى من الشعور بالضيق والألم الشديدين بعد الإفاقة في اليوم التالي،

ولذلك يسقط فريسة حالة عقلية كئيبة، يزيد التدخين من حدتها. وكي يتمكن مَن يقبل على الشرب والتدخين بشكل دائم وجرعات معتدلة أن يعيد عقله إلى حالته الطبيعية عليه ألَّا يقرب الخمر أو التبغ أسبوعًا واحدًا على أقل تقدير وهذا ما لا يحدث تقريبًا.

ولذلك فإن معظم ما يحدث في عالمنا، سواء كان من الناس الذين يوجهون ويعلمون الآخرين، أو أولئك مَن يتم توجيههم وتعليمهم، لا يتم أبدًا في حالة طبيعية رزينة.

دعنا لا نأخذ الأمر على محمل من الدعابة أو المبالغة، فالانحراف الذي لحق بحياتنا، والأكثر من ذلك التفاهة التي أصبحت عليها الحياة حدثت في الأساس وسط حالة دائمة من السُّكر خضع لها معظم الناس. هل يمكن لأناس غير سكارى أن يقوموا بهدوء بما قام به الناس في عالمنا هذا، بداية من بناء برج إيفل، وحتى قبول الخدمة العسكرية؟ دون أي حاجة حقيقية تأسست شركة وتم جمع الأموال وعمل الناس وأعدوا الخطط... ملايين من أيام العمل، وكمية هائلة من الصلب تم تبديدها جميعًا على بناء برج! وكذلك اعتبر ملايين الناس أن من واجبهم أن يصعدوا هذا البرج ويمكثوا فيه بعض الوقت، ثم يهبطونه مرة أخرى، دون أن يستدعي بناء البرج أو زيارته في الناس أي شعور سوى الرغبة والنية في زيارة وبناء أماكن أخرى أكثر ارتفاعًا من هذا البرج! هل يمكن لأناس غير سكارى أن يفعلوا ذلك؟ أو دعنا نتناول أمرًا آخر: منذ عشرات الأعوام وكافة الشعوب الأوربية مشغولة باختراع أفضل الوسائل الممكنة لقتل الناس، وتعليم كافة الشباب فن القتل فور

أن يبلغوا سن الرشد. يدرك الجميع أننا لا نتوقع أي هجوم من البرابرة، ولكن فنون القتل هذه قد أُعدت من قبل شعوب مسيحية متحضرة ليواجهوا بها بعضهم البعض، ويدرك الجميع أن ذلك أمر صعب ومؤلم وغير لائق، ومهلك وغير أخلاقي، بل وجنوني وكافر، ورغم ذلك يستعد الجميع لقتل بعضهم البعض: البعض يُنشئ اتحادات سياسية: مَن مع مَن؟ ومَن سوف نقتله؟ وآخرون يأمرون بالاستعداد للقتل، وهناك فريق ثالث يذعن لاستعدادات القتل هذه التي تخالف إرادته وضميره وعقله. هل يمكن لأناس غير سكارى أن يقوموا بذلك حقًّا؟ وحدهم السكاري الذين لا يفيقون أبدًا هم مَن يستطيعون أن يعيشوا وسط هذا التناقض المريع بين الحياة وبين ضمائرهم، ليس في هذا الأمر فقط، بل في كافة مناحي الحياة.

لا أعتقد أنه قد حدث يومًا ما فيما سبق أن عاش الناس وسط هذا التناقض بين أفعالهم ومتطلبات ضمائرهم مثلما هو الحال اليوم.

لقد أصاب شيءٌ ما الإنسانية في زماننا. الأمر كما لو أن عاملًا خارجيًّا يعوق بينها وبين الوصول إلى كافة تطلعاتها. وهذا العامل أو السبب الخارجي -إن كان واحدًا- فهو في الأساس: حالة التخدير الجسدية التي تنتج عن التبغ والخمور الذين يستهلكهما معظم أفراد البشر الآن.

عندما يتحرر البشر من هذا الشر المريع سوف يبدأ عصر آخر في حياة الإنسانية، ويبدو أن هذا الوقت يلوح أمام أبصارنا الآن. لقد عرفنا الآن الشر، والتغيير الذي يلحق بالوعي من ناحية استخدام المخدرات

قد حدث فعلًا، وقد أدرك الناس الضرر القاتل لهذه المواد، وبدؤوا في الإشارة إليه، وهذا التغيير الطفيف غير الملحوظ في الوعي لا بد وأن يؤدي في النهاية إلى تحرير الناس من شرك هذه المواد المخدرة.

تحرير الناس من إثر المواد المخدرة من شأنه أن يفتح أعينهم على متطلبات وعيهم، ومن ثم يعيشون وفقًا لمتطلبات ضمائرهم.

يبدو أن ذلك قد بدأ فعلًا. وكما هو الحال دائمًا، يبدأ الأمر مع الطبقات العليا عندما تكون الطبقات الدنيا جميعًا قد أصابتها عدوى المرض.

١٠ يونيو ١٨٩٠

* * *

# خطاب إلى صيني

## -١-

لقد حصلت على كتبك، وقرأتها باهتمام شديد، خاصة كتاب: «Papers from a Viceroy's Yamen»[٦١].

طوال الوقت كنت أشعر باهتمام شديد تجاه حياة الشعب الصيني، وقد حاولت أن أتعرف على ما يمكن أن يناسبني من حياة هذا الشعب، خاصة الحكمة الصينية الدينية مثل كتب كونفوشيوس ومي تي ولاو تسي، والتعليقات المكتوبة على هذه الكتب. قرأت أيضًا عن البوذية الصينية وكتب الأوربيين عن الصين. في الآونة الأخيرة، شعرت باهتمام شديد -ولا أزال- بالتعرف على المزاج العام الصيني الآن بعد كل هذه الجرائم التي ارتُكِبت في حق الصينيين من قبل الأوربيين، ومن ضمنهم الروسيين بدرجة كبيرة.

---

(٦١) كتاب نُشر لأول مرة في عام ١٩٠١، واسم الكتاب الكامل: Papers from a Viceroy's Yamen: A Chinese Plea for the Cause of Good Government and True Civilization in China

عانى الشعب الصيني بشدة من لا أخلاقية أفعال الأوربيين تجاهه، ومن بربريتهم وأنانيتهم وجشعهم وقسوتهم، وحتى وقت قريب لم يجيبوا عن كل أفعال العنف هذه سوى بهدوء رائع وحكيم، وأنا هنا أتحدث عن الشعب الصيني لا عن الحكومة الصينية.

لم تجب الشعوب الأوربية عن هذا الهدوء والصبر والاحتمال من الشعب الصيني العظيم القوي سوى بوقاحة تزداد أكثر فأكثر، وهذا ما كان يحدث دائمًا مع تلك النوعية البربرية الأنانية من الناس الذين يعيشون حياة حيوانية، من الأوربيين الذين تعاملوا مع الصينيين.

التجربة التي تعرض لها الشعب الصيني -ولا يزال يتعرض لها- هي تجربة صعبة وشاقة للغاية، ولكن من المهم ألا يفقد الشعب الصيني احتماله الآن، ويُغيِّر من علاقته من قضية العنف، ويمنع عن نفسه تلك العواقب المريعة التي يمكن أن تحدث إن تعامل مع العنف بطريقة أخرى غير عدم مواجهته بالعنف.

يقول الإنجيل: «وَلكِنِ الَّذِي يَصْبِرُ إِلَى الْمُنْتَهَى فَهذَا يَخْلُصُ»[٦٢]. أنا أعتقد أن هذا صحيح دون شك، على الرغم من صعوبة قبول الناس للحقيقة. عدم مقاومة الشر بالشر وعدم الاشتراك في أفعال الشر هي وسيلة صحيحة، ليست فقط للخلاص من الشر، بل للانتصار على الذين يصنعونه.

يمكن للصينيين أن يروا تأكيدًا واضحًا جدًّا على حقيقة هذا القانون

(٦٢) متى ٢٤: ١٣.

بعد تنازلهم لروسيا عن ميناء بورت أرثر[٦٣]. إن أكبر الجهود التي بذلها الروس واليابانيون في التسلح من أجل الدفاع عن ميناء بورت أرثر لم تكن تكن لتنتج عواقب مريعة مثل تلك العواقب التي حدثت لهما على السواء من تنازل روسيا عن الميناء وهي شرور مادية وأخلاقية على السواء. الأمر ذاته سوف يحدث لا محالة عند تنازل الصين لإنجلترا وألمانيا عن كيوتش وفيخافيم[٦٤].

الجهود التي تبذلها جماعة من اللصوص تستدعي حسد اللصوص الآخرين، وتؤدي الرغبة في الاستيلاء على المكاسب إلى تضارب مصالح اللصوص وارتكابهم لأعمال عنف ضد بعضهم. ما

(٦٣) أعلنت اليابان الحرب على روسيا في ٨ فبراير ١٩٠٤ ونفذت البحرية اليابانية هجومًا بحريًّا استباقيًّا على ميناء بورت آرثر الروسي في ليلة٨ فبراير حيث يوجد أسطول المحيط الهادي لتنشب بذلك معركة بورت آرثر البحرية. في ذلك الوقت كان الطراد الروسي فارياغ وزورق المدفعية الروسي كوريتس يتواجدان في ميناء تشيمولبو الكوري. في حين أحكم اليابانيون الحصار على الخليج، وحين توجهت سفينة «كوريتس» إلى بور آرثر، تعرضت لهجوم ياباني لدى خروجها من الخليج، واضطرت إلى العودة للميناء. وتلقى ربان طراد «فارياغ» فسيفولود رودنيف في اليوم التالي إنذارًا أخيرًا من قائد الأسطول الياباني قضى بمغادرة الميناء. لكن رودنيف اتخذ قرارًا بالسير إلى ميناء بورت آرثر وخوض المعركة. سارت السفينتان الروسيتان الخارجتان من الميناء، وبعد اصطدام السفينتين الروسيتين بسفن الأسطول الياباني عرض عليهما الاستسلام. لكن لم يتم الرد. فأطلق اليابانيون النيران ودامت المعركة غير المتكافئة ٥٠ دقيقة. وأطلق طراد «فارياغ» خلالها ١١٠٥ قذيفة أدت إلى إغراق مدمرة يابانية واحدة وإلحاق أضرار بالطرادات اليابانية الأربع. وخسر اليابانيون في المعركة ٣٠ فردًا وأُصيب ٢٠٠ فرد بجروح. أما طراد «فارياغ» فتعرض لـ ٥ إصابات تسببت بخروق في دروعه. وتم تدمير ٣ مدافع له وسقط ضابط واحد و٣٠ بحارًا وأُصيب ٦ ضباط و ٨٥ بجروح خطيرة بالإضافة إلى ١٠٠ فرد أُصيبوا بجروح خفيفة. وفقدت السفية الروسية القدرة على مواصلة المعركة، فعادت إلى الميناء حيث أمر ربانها بإغراق السفينة. أما سفينة «كوريتس» المساعدة فقامت بتفجير نفسها. وأنقذت السفن البريطانية والفرنسية والإيطالية مَن تبقى من أفراد الطاقم.

(٦٤) مدن تنازلت عنها الصين بموجب اتفاقيات.

يحدث مع الكلاب يحدث مع الناس الذين يهبطون إلى تلك الدرجة الحيوانية.

-٢-

لذلك فإني الآن أستمع بكل خوف وحزن، وأقرأ أيضًا من خلال الكتب التي أرسلتها لي، عن ظهور روح الحرب في الصين، والرغبة في الرد على الفظائع التي قامت بها الشعوب الأوربية في الصين بالعنف.

إن كان الأمر كذلك فعلًا، وكان الشعب الصيني قد فقدَ فعلًا قدرته على الاحتمال، وأخذ في تسليح نفسه على الطراز الأوربي ليطرد كافة اللصوص الأوربيين، وهو أمر يسهل الوصول إليه بالعقل وبالعمل، والأهم من ذلك عن طريق أعدادهم الهائلة، فالأمر إذنْ مريع! الأمر المريع ليس في تلك الفكرة التي فهمها واحد من أكثر ممثلي أوربا الغربية بربرية ووحشية؛ الإمبراطور الألماني، ولا في فكرة أن الصين قد تمثل خطرًا على أوربا، ولا في فكرة أن الصين ستتوقف عن أن تكون حصنًا للحقيقة والحكمة الشعبية العملية، التي تدعو إلى هذه الحياة الزراعية المسالمة التي يمكن لكافة العاقلين أن يعيشوها، والتي لا بد -آجلًا أو عاجلا- أن تعود إليها تلك الشعوب التي هجرتها.

أنا أعتقد أنه في وقتنا هذا ثمَّ منعطف ضخم يحدث في حياة الإنسانية، ولا بد على الصين في هذا المنعطف التاريخي أن تلعب دورًا عظيمًا.

أعتقد أن هناك دورًا مهمًّا يجب أن تلعبه الدول الشرقية كالصين وفارس وتركيا والهند وروسيا -ومن المحتمل اليابان أيضًا إن لم تترك نفسها تنجذب كلية صوب فخاخ الحضارة الأوربية-، وهذا الدور يتلخص في أن تشير لبقية الشعوب إلى الطريق الحقيقي صوب الحرية، والذي لا يمكن التعبير عنه باللغة الصينية سوى بكلمة «التاو» كما هو مكتوب في كتبك التي أرسلتها لي؛ أي النشاط الذي يتلاءم مع القانون الأبدي للحياة الإنسانية.

طبقًا لتعاليم المسيح يمكن للحرية أن تتحقق بهذه الطريقة. «تعرفون الحق والحق يحرركم»[٦٥]. هذه هي الحرية التي فقدتها الشعوب الأوربية، وهو الشيء المتعذر إصلاحه، وحسب ما أعتقد فالدول الشرقية الآن مدعوة لتحقيقها.

-٣-

أنا أعتقد الآتي:

منذ أقدم العصور حدث أن انفصل بعض البشر الجشعين المحبين للعنف عن بقية البشر المسالمين والمحبين للعمل. قام هذا الفريق الجشع الكسول من الناس بالهجوم على الفريق المسالم، وأجبره على العمل من أجله. حدث هذا في الغرب والشرق على السواء، ومع جميع الشعوب التي تعيش في إطار دول، وقد استمر هذا لقرون وقرون حتى

(٦٥) يوحنا ٨: ٣٢.

وقتنا هذا. ولكن في الماضي عندما كان الغزاة يستولون على مساحات شاسعة من الأراضي المأهولة بالسكان، لم يستطيعوا أن يلحقوا أضرارًا كبيرة بمن أخضعوهم، ففي ظل أعداد المتسلطين القليلة وأعداد الخاضعين الضخمة جدًّا، خاصة مع وسائل الاتصال البدائية، لم يحدث سوى أن تعرض عدد قليل من السكان لعنف المتسلطين، أما العدد الأكبر من الناس فقد عاشوا في سلام دون أن يتعرضوا للعنف بشكل مباشر. هذا ما حدث في العالم كله واستمر حتى وقت قريب في الدول الشرقية، خاصة في الصين العظيمة.

لم ولن يمكن لهذا الوضع أن يستمر لسببين: الأول هو أن السلطة القائمة على العنف من طبيعتها أن تزداد فسادًا أكثر فأكثر بحكم الضرورة. السبب الثاني أن الشعوب الخاضعة تزداد علمًا مع مرور الوقت، وسوف تزداد رؤيتها تدريجيًّا لأضرار خضوعها للسلطة.

تزداد فاعلية هذين السببين، وكذلك يزداد التقدم التقني في وسائل الاتصالات مثل: الطرق- البريد- البرق- الهواتف، وهذه الوسائل تزيد من تأثير من في السلطة في مجالات لم يكن بإمكانهم أن يؤثروا فيها من قبل من دونها، أما الشعوب الخاضعة فتزيد هذه الوسائل من اتصالها ببعض أكثر فأكثر، وبالتالي يصبح فهمهم لمساوئ الوضع الذي يعيشون فيه أكثر وضوحًا.

منذ فترة أصبحت هذه المساوئ عظيمة إلى حد أن الخاضعين أصبحوا يشعرون بضرورة تغيير علاقتهم بالسلطة بشكل أو بآخر.

شعرت الشعوب الغربية بهذه الضرورة منذ زمن بعيد، وبالفعل

قامت منذ فترة طويلة بتغيير علاقتها بالسلطة بطريقة واحدة شملت جميع الشعوب الغربية؛ لقد حدُّوا من السلطة عن طريق اختيار ممثلين، أي أنهم في حقيقة الأمر قد عملوا على اتساع رقعة القائمين على السلطة، بدلًا من أن يكون القائم عليها فردًا واحدًا أو مجموعة قليلة العدد من البشر.

أعتقد أنه في الوقت الحاضر قد جاء دور البلاد الشرقية، فالصين قد أصبحت الآن بدورها تشعر بأضرار السلطة الاستبدادية، وتبحث عن وسائل للتحرر منها، فقد أصبحت ظروف الحياة في ظل هذه السلطة غير محتملة.

-٤-

أعرف أن هناك تعليمًا في الصين ينص على أن الإمبراطور الصيني لا بد وأن يكون إنسانًا حكيمًا فاضلًا، وأنه إن لم يكن كذلك فيمكن لتابعيه -بل ويتوجب عليهم- أن يتوقفوا عن طاعته والامتثال له. لكني أعتقد هذا التعليم هو مجرد تبرير للسلطة غير المستقرة، كما انتشر تعليم الرسول بولس بين الشعوب الأوربية عن أن السلطة من الله[٦٦].

(٦٦) المقصود هو ذلك المقطع من إصحاح ١٣ من رسالة بولس إلى أهل رومية:
لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ، لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ اللهِ، وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ، حَتَّى إِنَّ مَنْ يُقَاوِمُ السُّلْطَانَ يُقَاوِمُ تَرْتِيبَ اللهِ، وَالْمُقَاوِمُونَ سَيَأْخُذُونَ لأَنْفُسِهِمْ دَيْنُونَةً. فَإِنَّ الْحُكَّامَ لَيْسُوا خَوْفًا لِلأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَلْ لِلشِّرِّيرَةِ. أَفَتُرِيدُ أَنْ لاَ تَخَافَ السُّلْطَانَ؟ افْعَلِ الصَّلاَحَ فَيَكُونَ لَكَ مَدْحٌ مِنْهُ، لأَنَّهُ خَادِمُ اللهِ لِلصَّلاَحِ! وَلكِنْ إِنْ فَعَلْتَ الشَّرَّ فَخَفْ، لأَنَّهُ لاَ يَحْمِلُ السَّيْفَ عَبَثًا، إِذْ هُوَ خَادِمُ اللهِ، مُنْتَقِمٌ لِلْغَضَبِ مِنَ الَّذِي يَفْعَلُ الشَّرَّ. لِذلِكَ يَلْزَمُ أَنْ يُخْضَعَ لَهُ، لَيْسَ بِسَبَبِ الْغَضَبِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا بِسَبَبِ الضَّمِيرِ. فَإِنَّكُمْ لأَجْلِ هذَا تُوفُونَ الْجِزْيَةَ أَيْضًا، إِذْ هُمْ خُدَّامُ اللهِ مُواظِبُونَ عَلَى ذلِكَ بِعَيْنِهِ.

لا يمكن للشعب الصيني أن يعرف ما إن كان إمبراطوره رجلًا حكيمًا فاضلًا أم لا، كما كانت الشعوب المسيحية غير قادرة على معرفة ما إن كانت هذه السلطة التي ينازعونها من الله أم لا.

مثل هذه التبريرات للسلطة كانت مناسبة عندما كان الشعور بضرر السلطة بسيطًا جدًّا من قِبَل الشعوب، ولكن الآن، وبينما أصبح معظم البشر يشعرون بكل مساوئ وبطلان سلطة فرد أو مجموعة من البشر على الغالبية، لم تعد هذه التبريرات فاعلة، وأصبح من الضروري على الشعوب أن تغير علاقتها بالسلطة بشكل أو بآخر. هذا ما فعلته الشعوب الغربية منذ زمن بعيد، وجاء الدور الآن على الشعوب الشرقية. فيما يخص هذا الأمر، فإني أعتقد أن الدور قد حان لروسيا وفارس وتركيا والصين. عاشت هذه الشعوب جميعًا حتى وصلت إلى مرحلة لم تعد فيها قادرة على البقاء أكثر من ذلك تحت إطار علاقاتها القديمة مع السلطات.

كان الكاتب الروسي جرتسين على حق عندما قال إنه لا يمكن أن يكون هناك جانكيز خان جديد في ظل وجود البرق والمحركات الكهربائية. إن كان لا يزال حتى يومنا هذا في الشرق رجل مثل جانكيز خان أو أي شخصية أخرى تشبهه، فمن الواضح أن ساعته قد انتهت، وأنه الآن في لحظاته الأخيرة. لا يمكن لشخصية على هذا النمط أن تستمر الآن؛ لأن تأثير البرق وكل ما يطلق عليه البشر «الحضارة» قد أصبح كبيرًا جدًّا، ولذلك أصبحت الشعوب بفضل هذه التقنيات تشعر وتدرك بقوة أن وجود مثل هؤلاء الجانكيزخانات من عدمه لم يعد يهم

كما كان في الماضي، وأن كافة الكوارث التي يعانون منها الآن قد حلت عليهم تحديدًا بسبب هذه السلطة التي يخضعون لها بحكم العادة دون أن يجنوا منها أي فائدة.

الأمر كذلك في روسيا. أعتقد أن الظروف متماثلة أيضًا فيما يخص هذا الأمر في تركيا وفارس والصين.

الأمر ينطبق بصورة خاصة جدًّا على الصين نظرًا لمسالمة شعبها، والتنظيم السيئ لقواتها، وتمكن الأوربيين من نهب الأراضي الصينية بذريعة كل أنواع النزاعات والخلافات مع الحكومة الصينية.

لا يمكن ألا يكون الشعب الصيني قد شعر بعد بضرورة تغيير علاقته بالسلطة.

-٥-

من خلال قراءتي لكتابك ومن سماعي لأخبار أخرى، فأنا أعتقد أن أولئك المستهترين بالصين المدعوين «حزب الإصلاح» يعتقدون أن الإصلاح هو أن يقوم الصينيون بما فعلته الشعوب الغربية تمامًا، أي تغيير الحكومات الاستبدادية بممثلين عن الشعب، وتشكيل قوات عسكرية كمثيلتها التي لدى الغربيين، وكذلك تطوير الصناعة كما تطورت في الغرب. قد يبدو هذا القرار للوهلة الأولى أكثر القرارات بساطة وطبيعية، لكنه ليس فقط قرارًا طائشًا، لكنه أيضًا شديد الغباء، ومن خلال معرفتي بالصين فإني أجزم أنه أيضًا قرار غير مناسب على

الإطلاق للشعب الصيني الحكيم. قد يكون تشكيل هذا الدستور وتلك القوات العسكرية، وهذا النوع من الصناعة الذي يماثل ما لدى الغربيين يعني التخلي عن كل ما عاش عليه الشعب الصيني -ولا يزال- والتخلي عن ماضيه وعقلانيته وحبه للسلام وحياته الزراعية؛ تلك الحياة التي تشكل الطريق الحقيقي والوحيد «التاو» ليس فقط للصينيين، بل للإنسانية جمعاء.

فلنفترض أن الصين قامت بتنظيم حياتها على النمط الأوربي، فسوف تطرد الصين الأوربيين، وسيكون لديها دستور وقوات عسكرية دائمة وقوية، وكذلك صناعة تشبه مثيلتها في أوربا.

هذا ما فعلته اليابان، فقد قامت بتشكيل دستور ودعمت قواتها العسكرية وأسطولها البحري وطوَّرت من صناعتها، ولا بد أن عواقب هذه التدبيرات المتصلة بعضها ببعض واضحة تمامًا للعيان. إن وضع شعب اليابان يقترب أكثر فأكثر من أوضاع الشعوب الأوربية وهو أمر شديد الخطورة.

-٦-

إن دول أوربا الغربية قوية جدًّا من الناحية الخارجية ويمكنها الآن أن تسحق القوات العسكرية الصينية. ولكن الأمر لا يقتصر على أن أوضاع الناس الذين يعيشون في هذه الدول لا يمكن مقارنتها بأوضاع الصينيين، بل إنها شديدة الكارثية. تعاني كل هذه الدول من حرب ضروس بين الطبقات العاملة الساخطة وحكوماتها والأغنياء، ولا يقف

في طريق الطبقات العاملة سوى أولئك المخدوعين الذين يشكلون القوات العسكرية التابعة للحكومة والأغنياء. تغلي هذه الحرب في كافة الدول أكثر فأكثر، ولا تلوح نهاية لهذا التسلح، وفي كل دقيقة يمكن أن تندلع أبشع الكوارث.

بغض النظر عن كارثية هذا الوضع، فهذا لا يمثل جوهر بلية الشعوب الغربية. البلية الكبرى لهذه الشعوب هي أنها طوال حياتها لا تستطيع أن تجد الخبز، وفي الوقت ذاته مجبورة طوال الوقت على القيام بأعمال عنف والمكر للحصول على ما يلزمها من قوت من الشعوب الأخرى التي لا تزال تجد ما يقوتها مثل الصين والهند وروسيا ودول أخرى لا تزال تعيش حياة زراعية عاقلة.

هذه الشعوب التي تحيا على عملكم كالطفيليات والتي تدعوكم لإجراء إصلاحات!

الدستور وواجبات الدفاع عن الوطن والجيوش الدائمة... كل هذا قد جعل الشعوب الغربية تفارق الزراعة وتتراجع عنها تمامًا وتنشغل بالعمل في المصانع بالمدن؛ تلك المصانع والورش التي يكون الجزء الغالب من إنتاجها غير لازم لشيء سوى للجيوش التي تقوم بكل أنواع العنف والنهب. بغض النظر عن البريق الذي قد يبدو للوهلة الأولى لهذه الشعوب، فإنها تحيا في أوضاع بائسة، وحتمًا سوف تهلك إن لم تُغيِّر من نمط هذه الحياة المؤسسة على الخداع والفساد والاحتيال على الشعوب الزراعية وسرقة أراضيها.

إن محاكاة الشعوب الغربية والخوف من وقاحتها وقوتها تماثل محاكاة إنسان عاقل حي الضمير محب للعمل لآخر فاسق لا يعمل يهاجمنا هجوم اللصوص الوقحة، ويقوم العاقل بهذه المحاكاة ويصبح هو نفسه غير أخلاقي بهدف أن يهزم الطرف الشرير غير الأخلاقي!

ليس على الصينيين أن يحاكوا الغربيين، بل عليهم أن يستفيدوا من النموذج الذي قدمته هذه الشعوب الغربية بحيث لا يسقطوا في هذا الوضع البائس التي سقطت فيه هذه الشعوب.

كل ما تفعله الشعوب الغربية يمكن أن يكون درسًا هامًّا -بل ولا بد له من ذلك- بالنسبة للشعوب الشرقية، وهو درس ليس فقط حول ما لا بد أن تقوم به الشعوب الشرقية، بل أيضًا درسًا حول ما لا يجب أن تفعله أبدًا تلك الشعوب.

-٧-

السير على طريق الدول الغربية يعني السير على أول طريق الهلاك. لكن استمرار هذا الوضع الذي يعيشه الروس في روسيا، والفرس في فارس، والأتراك في تركيا، والصينيون في الصين غير ممكن هو الآخر، وخاصة بالنسبة إليكم أيها الصينيون؛ لأن محبتكم للسلام ووجودكم دون قوات عسكرية بين دول حربية يجعلكم لا تستطيعون أن تحيوا حياة مستقلة، ولذلك فسوف تتعرضون لا محالة للنهب والسرقة اللذين سوف تقوم بهما الدول الأخرى للحفاظ على وجودها.

ما العمل إذنْ؟

بالنسبة لنا نحن الروس؛ فأنا أعرف دون أدنى شك ماذا علينا أن نفعل وماذا علينا ألا نفعل كي نتخلص من تلك الشرور التي نعاني منها؛ بحيث لا نسقط فيما هو أشد سوءًا. أول شيء علينا ألا نقوم به نحن الروس هو الامتثال للسلطة القائمة، وليس علينا أيضًا أن ننساق خلف ما يعد به حزب الإصلاح... أولئك المجانين! لا يتوجب علينا أيضًا أن نحاكي الغرب فنستبدل سلطة بأخرى، فوضع دستور -أيًّا كان نوعه- سواء كان ملكيًّا أو جمهوريًّا غير لازم على الإطلاق؛ لأنه من الواضح تمامًا أن هذا سيقودنا إلى هذا الوضع البائس الذي تعاني منه الآن الدول الغربية.

ما يمكن أن نقوم به -بل ويتوجب علينا ذلك- هو أمر واحد بسيط؛ أن نعيش حياة زراعية في سلام، ونقضي على أعمال العنف التي يمكن أن تُرتكب ضدنا، وألَّا نستخدم القوة المفرطة أو نشارك في أي عمل على هذه الشاكلة. من وجهة نظري أعتقد أن ما يتوجب عليكم أن تفعلوه في الصين هو الأمر ذاته، وذلك لسبب آخر، فالأمر بالنسبة إلى الصينيين لا يقتصر على الرغبة في التخلص من استيلاء الشعوب الأوربية على أراضيهم، ولكن لا بد أيضًا من التخلص من هذه الطلبات غير العاقلة التي تطلبها منها حكومتكم، فهي تطالبكم بأعمال تناقض تعاليمكم الأخلاقية ومستوى وعيكم.

كل ما عليكم فعله هو أن تتمسكوا بحريتكم التي تتأسس على اتباع طريق الحياة العاقلة؛ أي الطاو، وحينها سوف تتهدم كافة الإجراءات

والترتيبات التي اتخذها موظفوكم، ولن يعود من الممكن للأوربيين أن يظلموكم أو يسرقوكم. سوف تتحررون من موظفيكم الذين لن يعودوا يقضون مآربهم، والأهم من ذلك أنكم عندما تمتنعون عن طاعتهم فلن تساعدوا على استعباد بعضكم لبعض. اتباعكم للتاو سوف يحرركم من سرقات الأوربيين؛ لأنه لن يجعلكم تعودون تطلقون على أنفسكم رعايا لأي دولة أو مسؤولين عن الأعمال التي تقوم بها حكومتكم.

كافة السرقات التي تقوم بها الشعوب الأوربية تتطلب وجود حكومة تعترفون أنتم أنكم رعايا لها. إن لم يعد هناك وجود لحكومة صينية، فلن يكون هناك أي ذريعة لشعب غريب في أن يقوم بهذه الشرور تحت ستار العلاقات الدولية.

-٨-

كي نتخلص من الشرور علينا ألا ننهمك في النضال ضد عواقبها من قبيل انتهاكات الحكومة والسرقات التي تحدث من قِبَل الشعوب الأخرى؛ بل علينا أن ننتزع جذر الشر نفسه؛ ألا وهو تلك العلاقة الكاذبة التي تربط بين شعب وسلطة إنسانية ما.

إن اعترف شعب بسلطة إنسانية ما تعلو سلطة الله، أو تعلو قانون الطاو، سيبقى إلى الأبد عبدًا، وكلما تزداد درجة عبوديته كلما يزداد تعقيد نظام السلطة -في شكل دستور مثلا- التي يصنعها الإنسان بنفسه ويخضع لها في الآن ذاته. حر هو الشعب الذي يعترف بقانون واحد وحيد حقيقي؛ ألا وهو قانون الله (التاو) والذي يجب أن يخضع له الجميع.

إن عصيتم حكوماتكم، فلن تساهم السلطات الأجنبية في أعمال عنف ضدكم، وإن امتنعتم عن خدمة حكوماتكم سواء بشكل خاص، أو في المجال العام أو في الخدمة العسكرية، فلن تعانوا من كل هذه البلايا التي تعانون منها الآن.

-٩-

دائمًا ما ينتقل الناس والمجتمعات من مرحلة لأخرى، وأحيانًا ما تأتي بعض الأوقات حينما يشعر الناس والمجتمعات بشدة حساسية هذه المراحل الانتقالية ويعونها جيدًا. كما هو الأمر مع إنسان يشعر فجأة أنه لم يعد يستطيع مواصلة حياة العبودية تلك التي يحياها، هكذا الأمر أيضًا مع الشعوب، فتأتي عليها فترات حينما لا يعود المجتمع قادرًا على مواصلة الحياة على نفس النمط القديم، ويشعر بحاجته إلى تغيير عاداته ونظامه ونشاطه بأكمله. يبدو لي الآن أن كافة الأمم -الشرقية منها والغربية- تعيش مرحلة انتقالية تشبه الانتقال من الطفولة إلى البلوغ. تتطلب هذه المرحلة الانتقالية ضرورة التحرر من السلطة الإنسانية غير المحتملة، لتتأسس الحياة على مبدأ آخر غير السلطة البشرية.

يبدو لي أن هذا القضية تاريخية في الأساس، وسوف تقدر مصير الشعوب الشرقية تحديدًا.

لهذا فالشعوب الشرقية تحديدًا لديها فرصة جيدة، فلأنها لم تتخل عن الزراعة، ولم تتحول بعد إلى دولة عسكرية، وتعيش حياة الدول الدستورية الصناعية، ولم تفقد بعد الإيمان بأهمية القانون الأعلى

للسماء أو لله، فهي لا تزال على منعطف الطريق الذي سلكته الدول الأوربية منذ زمن بعيد؛ هذا الطريق المزيف الذي تزداد فيه صعوبة التحرر من السلطة الإنسانية(٦٧).

بالتالي، وبالنظر إلى الفقر الذي ترزح فيه الشعوب الغربية، فمن الطبيعي إذنْ ألا تحاول الدول الشرقية أن تُحرِّر نفسها من شر السلطة البشرية بوسيلة مصطنعة مرتبكة تتأسس على تقييد وهمي للسلطة واستبدالها فقط بسلطة ممثلين، وهي الطريقة التي قامت بها الدول الغربية؛ بل عليها أن تحل مسألة سلطة البشر الآخرين بطريقة أكثر جذرية وبساطة، وهي طريقة تكشف عن نفسها للبشر الذين لم يفقدوا إيمانهم بعد في قانون السماء أو الله الأسمى؛ قانون التاو، وعليهم أن يتبعوه هو وحده فقط ويستثنون منه السلطة البشرية تمامًا.

إن استمر فقط الصينيون في الحياة على النمط الذي عاشوا عليه من قبل، بهذه السلمية وحب العمل والحياة الزراعية، واتبعوا في سلوكهم قواعد أديانهم الثلاثة: الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية، فالأولى تقودهم صوب التحرر من السلطة البشرية؛ والثانية تدعو إلى ألا تفعل للآخرين ما لا تود أن يفعلوه بك، والثالثة تدعو لإنكار الذات والتواضع وحب البشر والمخلوقات أجمعين، حينها ستختفي جميع البلايا التي يعانون منها الآن، ولن تستطيع قوة على الأرض أن تهزمهم.

أعتقد أن المسألة الحقيقية الآن، ليس للصين فقط بل لكافة الدول الشرقية، لا تتلخص فقط في التحرر من تلك الشرور التي تقوم بها

(٦٧) كتبت عن سبب ذلك بالتفصيل تحت عنوان: «معنى الثورة الروسية». (المؤلف).

حكوماتهم والشعوب الأجنبية الآن، بل في أن تشير إلى كافة الشعوب إلى هذه المرحلة الانتقالية التي يمرون بها جميعًا الآن.

ما من مخرج آخر غير التحرر من السلطة الإنسانية والخضوع لسلطان الله.

* * *

# المعلم اليوناني سقراط[٦٨]

## -١-

## يريد سقراط أن يعرف كيف يتوجب على الناس أن يعيشوا، ويسمع صوتًا في أعماق روحه

وُلِد سقراط في اليونان بمدينة أثينا. كان أبوه عاملًا وأمه تعمل قابلةً. وقد تحدث سقراط عن ذلك كثيرًا، فقال إن أمه كانت تساعد النساء على إنجاب الأطفال، وهو الآخر يساعد الناس على إنجاب الأفكار.

علَّم والد سقراط ابنه حرفته، وأرسله إلى المدرسة لتعلم القراءة

(٦٨) نُشر هذا النص نتاج تعاون بين تولستوي وناشطة اجتماعية من خاركوف بأوكرانيا تُدعى إلكسندرا ميخايلوفنا كالميكوفا، وكانت قد أرسلت مخطوطة النص إلى تولستوي، فشعر تولستوي بإعجاب شديد بالنص وقال عنه: «سيكون هذا النص أفضل من بقية النصوص الأخرى... إنه نص عظيم حقًّا. كتاب حياة سقراط، سيكون كتابًا شعبيًّا أخلاقيًّا عميقًا». وبحث تولستوي عن الكاتبة، وقام بعمل تحرير للنص وإجراء بعض التعديلات وكتب بنفسه الفصل التاسع كاملًا، وأبلغ الكاتبة بالتعديلات التي أجراها على مخطوطتها، وقام بكل ما يستطيع من أجل إجراء تحسينات على النص. طبقًا للناقد ن. ك جودزيا، فإن التعديلات التي أجراها تولستوي على الفصول التسعة الأولى من العمل قد غيَّرته تمامًا عن النسخة الأصلية، وأن تولستوي قد بث آراءه بين كل ثنيات العمل.

وبقية العلوم. كان الجميع مثقفين في أثينا، وهناك الكثير من المدارس. كانت هناك أكثر المدارس فقرًا، تلك التي يتعلم فيها الأطفال في قلب الساحة، ويرسمون لهم الحروف بالعيدان على الرمل. وهناك أيضًا مدارس لمن هم أيسر حالًا حيث يتعلمون القراءة والحساب ويقرؤون القصائد، وكانت هناك مدارس للأغنياء حيث يتعلم فيها الطلبة كل ما قد وصل إليه اليونان في هذا الزمن من علم.

كان سقراط فطنًا من صغره، وراغبًا في التعلم، فأرسله أبوه إلى مدرسة عليا. تعلم سقراط هناك كافة العلوم وقرأ قصائد أفضل الشعراء اليونانيين.

أنهى سقراط دراسته وعاد إلى أبيه مجددًا، وبدأ يعمل في إحدى الحرف اليدوية؛ ألا وهي شق الحجر. سارت أمور العمل على ما يرام لكنه كان يستغرق كثيرًا في التفكير أثناء العمل. كان يستغرق في التفكير في كافة العلوم التي تعلمها، والتي يتعلمها الناس، وكيف أنه لم يعرف منها -هو أو بقية الناس- ما هم في حاجة إلى معرفته حقًّا.

فكَّر في نفسه قائلًا: «لا بد وأن نصل إلى فهم طبيعة الحياة التي لا بد أن يحياها الإنسان. نحن نتعلم الكثير من الأمور، ولا نربح شيئًا من كل هذه الدراسة إن عرفنا كافة النجوم التي في السماء وكافة الأحجار التي في أعماق المياه، ووضعنا في اعتبارنا كل ما تعلمناه، فأنا على يقين من أن حياتنا لن تتحسن في شيء. كل منا يبحث عن خير نفسه، وعن التمييز بين الأمور، لكننا نصنع شرًّا بدلًا من الخير. لا أحد بيننا يعرف ما هو الخير الحقيقي للإنسان. لقد أخذت أتعلم وأتعلم، وسألت نفسي

كيف يتوجب على الإنسان أن يعيش حياته، لكنني لم أعرف الإجابة. هذا وحده ما يحتاج الإنسان معرفته. الفائدة الوحيدة التي جنيتها من العلم الذي تعلمته هو أنني عرفت أن كل علومنا محض تفاهات. قبل أن أحظى بالتعليم كنت أعتقد أني أعرف شيئًا ما، لكني الآن على يقين أني لا أعرف شيئًا. هذا هو المكسب الوحيد الذي نلته من تعليمي؛ أني أدركت أني لا أعرف شيئًا. لقد علموني عن الآلهة، وقالوا لي إنهم يكافئون البشر إن عاشوا وفقًا لنواميسهم، ويعاقبونهم إن لم يقوموا بما تأمرهم به الآلهة. ولكن ماذا تريد منا الآلهة تحديدًا، وما طبيعة الحياة التي تريدنا الآلهة أن نحياها؟».

أخذ سقراط يتذكر كل ما علموه إياه عن الآلهة. كان اليونانيون يعبدون كثيرًا من الآلهة واحدًا للسماء وهو الإله الأكبر، وآخر للبحر، وثالثًا للريح ورابعًا للشمس، وخامسًا للحرب، وسادسًا للهو، وسابعًا للموت.

كانت هناك الكثير من الربات أيضًا، فهناك ربة الحكمة، وربة للعداوة، وأخرى للزراعة، وربة للأعمال اليدوية، وربات أخريات كثيرات. كان مكتوبًا أن الآلهة تعيش جميعًا في السماء، كما يعيش البشر على الأرض، ويتزوجون ويزنون ويتشاجرون ويتيهون ويتقاتلون. تعلم سقراط أيضًا عن الإله الأعظم زيوس أنه إله قوي ومرهوب، وأنه يمنح كل ما هو حسن لِمَن يرضى عنه، أما مَن يغضب عليه فيصب عليه صاعقته ويقتله. كان زيوس يُمثَّل في معبد مُشيَّد من الحجارة في هيئة رجل كبير في السن في عنفوان قوته، والصاعقة بين يديه.

بدأ زيوس في حكم السماء بإسقاط والده. تذكر سقراط ذلك، وتذكر ما علموه إياه عن زيوس... تذكر ما قالوه له عن أن زيوس تشاجر مع زوجته وخدعها، وكيف سكر حتى الثمالة بخمر سماوي، وكيف خدعته حينها الآلهة الأخرى بصحبة البشر . أدرك سقراط أنه إن كان زيوس موجود حقًّا فهو لا يعلم كيف لا بد له وأن يعيش الحياة، لذا فلا فائدة تُرجى منه.

تلت زيوس مباشرة من ناحية الكرامة والعظمة الإلهة أثينا ربة الحكمة، والتي من فرط كرامتها أطلقوا اسمها على مدينة أثينا. كان لأثينا تمثال كبير منحوت من الحجر، وقد وضعوه في الميدان الرئيس. ثمة خوذة على رأسها، ورمح في يدها. كانوا يقولون إن هذه الإلهة مَن علَّمت الشعب الحكمة، فأخذ سقراط يتذكر كل ما قالوه له عنها. عندما تبين الأمر أدرك أيضًا أنه لا يمكنه أن يتعلم شيئًا من هذه الإلهة. طبقًا للروايات كانت أثينا ماكرة وقاسية، تساعد أحباءها وتضر بالآخرين دون ذنب. كانوا يعلمون أيضًا عن أثينا أنها عرفت ذات يوم أن إحدى الفتيات اليونانيات تغزل بصورة أفضل منها، فانزعجت من الفتاة ولفتها بخيوط عنكبوت وأخذت تديرها وهي مقيدة بخيط العنكبوت لقرن من الزمان.

وكانوا قد علموه عن الآلهة الأخرى قصصًا سيئة أخرى مشابهة.

لقد أطلقوا عليهم آلهة مع أن أعمالهم بشرية، بل حتى أسوأ من أعمال البشر!

فكَّر سقراط في نفسه قائلًا: «لا! لا يمكن أن تكون هذه الآلهة

حقيقية، ولا يمكن للإنسان أن يعرف منهم كيف لا بد له أن يعيش. إنها آلهة ضعيفة مثلنا نحن البشر، ولا تسلك حسب الحق، ولا يمكن أن نتعلم منها التمييز بين الخير والشر. أما الإله الحقيقي فلا بد أن يكون بارًّا، ويُعلِّم الإنسان كيف لا بد له وأن يعيش».

أخذ سقراط يبحث عن هذا الإله الحقيقي. تعذب طويلًا... ليس لعام ولا لاثنين... ولم تتركه أفكاره إلا وعذبته نهارًا وليلًا. مر الوقت وانكشف لسقراط أخيرًا ما كان يبحث عنه. عرف أخيرًا هذا الإله الذي كان يبحث عنه، والذي لم يعرفه اليونانيون، ولم يجده في مكان ما بعينه؛ بل داخل ضميره.

بينما كان يبحث سقراط عن هذا الإله الصالح حدث له أكثر من مرة، في النهار والليل، أن استغرق في التفكير وأراد أن يفعل شيئًا ما، وفجأةً يسمع صوتًا داخل روحه. إن كان الأمر حسنًا يسمع الصوت يقول له: «افعل هذا يا سقراط»، وإن لم يكن كذلك يسمعه يقول له: «لا تفعل هذا يا سقراط». أخذ الصوت يحدث سقراط أكثر فأكثر، وكل ما كان يقوله لسقراط كان الحقيقة بعينها.

قال سقراط في نفسه: «إنه صوت صالح، تُرى مَن يحدثني؟ إنه ليس صوتي، بل صوت آخر، فمَن هو؟ إنه يقول الحق دائمًا، ويعلمني أن أعيش حياة صالحة، لذلك فلا بد وأنه صوت الله».

وأطلق سقراط على هذا الصوت «الله». كشف الصوت لسقراط ما كان يبحث عنه؛ فعلمه كيف لا بد للناس أن يعيشوا.

عندما عرف سقراط هذا الإله، اعتقد أن كل إنسان يمكنه أن يعرفه هو الآخر، ويعرف أيضًا -كما عرف هو- كيف لا بد له وأن يحيا حياة صالحة.

قال سقراط نفسه: «إنه أمر عظيم حقًّا إن عرفت الحق والفضيلة، ولا بد لي أن أعلمهما للآخرين أيضًا؛ ليحيوا حياة صالحة».

عندما توصل سقراط إلى ذلك مات أبوه، وتزوج سقراط، ورُزِق بأطفال. عندما قال لزوجته عما كشفه له صوت الله لم تصدقه. حينها قال لها إنه سيخبر الجميع عن ذلك، ويعلمهم الأمر، حاولت أن تثبطه عن الأمر وقالت: «لا تفعل ذلك. إن أهملت حرفتك وأخذت تعلم الناس، فلن تصيب سوى المتاعب، وستسوء حياتي أنا وأطفالك، فنحِّ عنك هذه الفكرة جانبًا، فيوجد عدد كافٍ من المعلمين سواك».

لكن سقراط لم يستمع إلى زوجته. لقد اعتقد أن الناس من حوله يعيشون في شقاء، ويتعذبون بسبب أنها لا يعرفون كيف لا بد لها أن يعيشوا، بينما هو يعرف، وهو أمر يستحيل أن يخفيه، فصوت الله يتحدث بداخله.

في أقدم الأزمنة -قبل مجيء سقراط- كان اليونانيون يعيشون حياة صالحة. كانت لديهم أراضٍ خصبة دافئة، وكانوا يعملون بأنفسهم؛ يحرثون الأرض ويبذرون البذور ويزرعون الحدائق، ويربون النحل والماشية. لم يكن لديهم فقراء وأغنياء، سادة وعبيد، فقد عاش الجميع سواسية. ثم بدأ اليونانيون في الغزو، وبدأوا في العدوان على جيرانهم. غنموا الغنائم في حروبهم؛ الذهب والفضة ومختلف أنواع الماشية،

وأسروا الناس وأبقوهم عبيدًا لهم. اغتنى اليونانيون من الحروب، وفسدت حيواتهم. انخرط الأكثر شجاعة من بينهم في الحروب، واستولى الأكثر ذكاءً من بينهم على القيادة، وعمل الأكثر مراوغة بالتجارة، ومن جراء هذا العمل الشرير تأخر اليونانيون جدًّا، ولم يعد أحد منهم يعمل.

في زمن سقراط كانت أثينا قد أصبحت أرض العبيد، حيث كان عدد العبيد أكثر من عدد السادة، فعدد السادة بلغ حوالي مائة ألف، أما العبيد فقد بلغ عددهم ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين ألفًا. قام العبيد بالعمل كله، فقد اعتبر السادة اليونانيون أنه من المخزي أن يقوموا بأي نوع من الأعمال التي يقوم بها العبيد. كان عمل السادة كله ينحصر في التجارة، أو الحرب، أو في كسب المزيد من النقود، وشراء مزيد من العبيد أكثر قوة وبراعة، والعيش من أجل إرضاء شهواتهم.

هكذا عاش اليونانيون حياة فاسدة تمامًا، ولم يفكر أحدهم أن يعيش وفقًا للحق، وأن يساعد أخاه، ويشفق على العبد ويخدم الآخر؛ بل فكر كل فرد كيف يمكنه أن يستفيد على حساب الآخر.

ورأى سقراط أن الشعب قد ضلَّ، وأنهم يحطمون بعضهم البعض، فخرج إلى الساحة، وانتهز كل فرصة ليحدثهم عما يقوله له صوت الله بداخله عن أن حياتهم شريرة، وأنها ليست الحياة التي يتوجب على الإنسان أن يعيشها.

## -٢-

## كيف ينبغي للإنسان أن يعيش؟

ذات مرة التقى سقراط في الميدان بسيد شاب ثري يُدعى أريستون. لم يكن أريستون إنسانًا فظًّا شريرًا، لكنه كان يعيش دون عمل إرضاءً لشهواته مثلما يفعل أغلب اليونانيين الأثرياء.

التقاه سقراط ذات مرة وأخذ يتحدث معه. اقترب الناس وأنصتوا السمع للحديث الدائر بينهما. قال سقراط:

- مرحبًا يا أريستون. لماذا لم ألتقِ بك منذ مدة طويلة؟ لا بد وأنك مشغول في عملك، وليس لديك وقت لتتسكع بحثًا عن المتعة مثلنا. أليس كذلك؟

- لا... لست مشغولًا بأي عمل. فماذا يمكنني أن أعمل ولماذا؟ أنا هكذا في أفضل حال. الشكر للآلهة على أني لست فقيرًا وأنعم برغد العيش. لماذا أعمل وأزعج نفسي؟ ما من عمل في القيادة الآن، وإن ظهر فربما أعمل فيه بدافع اكتساب الشرف والمكانة لا أكثر. كل الوظائف مثل بعضها... جميعها مزعجة. سواء أردت أم لم ترد فسوف تمضي هنا وهناك وتسمع وتتحدث وربما تكتب أيضًا. لا داعيَ لهذا الإزعاج، ولماذا من الأساس أجبر نفسي على ذلك؟ لدي المال والعبيد، وأي شيء أريده أجده بين يدي. أنا أعيش مرحًا، فما الذي يلزمني أكثر من ذلك؟

- نعم... لا شيء يجبرك على ذلك، ولكن هل من الحسن أن تعيش طوال عمرك على هذه الشاكلة؟

- ولماذا لا يكون ذلك حسنًا؟ ما الأفضل من أن أعيش عمري كله لإرضاء شهواتي؟

- هل هذا حسنٌ فعلًا؟ ليس كل شيء حسنًا على الدوام، فربما يبدو لنا كذلك فقط. هل سمعت عن هرقل؟

- ومَن لم يسمع عن هرقل؟ لقد كان بطلًا حقيقيًّا. يا للأعمال المجيدة التي قام بها! كم نال من المجد!

- ولكن هل سمعت عن طريق الحياة الذي اختاره؟

- لا... لم أسمع عن ذلك.

فقال المحتشدون حولهما:

- احكِ لنا يا سقراط عن ذلك.

فحكى سقراط:

«عندما بلغ هرقل، أخذ يفكر في الحياة التي لا بد له وأن يسلكها. أخذ يتمشى ويفكر فيما يجب عليه أن يفعل، وكيف لا بد له وأن يعيش. مضى في طريقه... مضى وابتعد كثيرًا، ثم رأى من بعيد امرأتين تتقدمان نحوه. اندهش هرقل وأخذ يقترب هو الآخر منهما حتى يلتقيهما. رآهما عن قرب؛ كانت واحدة منهما لا هي كبيرة ولا صغيرة من حيث الحجم، لا سمينة ولا نحيلة، لا هي أنيقة ولا دنيئة المظهر... ببساطة يتعذر تمييزها. كانت تسير بانتظام وهدوء ودون تعجُّلٍ. أما الأخرى،

فطويلة وسمينة، ترتدي فستانًا باهظًا، بيضاء البشرة ومتوردة الوجه. مضت الأولى المجهولة مباشرة دون أن تنظر يمينًا أو يسارًا. أما الأخرى فكانت تنظر إلى كل ما حولها حتى إنها كانت تنظر إلى ظلها. هكذا كانتا تقتربان من هرقل. اقتربت المهندمة من هرقل مباشرةً، وقالت:

- أعرف أنك تمعن الفكر في الحياة، وتسأل نفسك عن شكل الحياة التي تود أن تعيشها، وعن الطرق التي يجب أن تسلكها. سِر معي وكل شيء سيكون على ما يرام وستجد السعادة والسرور. لن تعود مجبرًا على العمل، ولن تشغل بالك بشيء، ولن تحزن على شيء. لن تساورك الأحزان أبدًا. لن تفقد الفرحة أبدًا إن سرت معي في الطريق، بل ستنتهي من فرحة لتبدأ فرحة أخرى، ولن تشغل بالك بشيء سوى السؤال عن ألذ الأطباق، وأفضل الخمور، وأكثر السرائر راحة، وأكثر الأمور مدعاة للسعادة. لن يكون لديك عمل سوى أن تأمر بما تريد، وكل ما تطلبه سيقوم به الآخرون من أجلك.

بدا عرض المرأة السمينة حسنًا في عيني هرقل، وسألها عن اسمها حتى يتذكرها جيدًا. قالت له المرأة:

- اسمي (السعادة). أولئك الذين يكرهونني هم فقط مَن يطلقون عليَّ (الترف)، وهم يطلقون عليَّ هذا ليضايقونني، ولكن اسمي (السعادة)».

أما المرأة الأخرى المتعذر تمييزها، فقد صمتت طوال هذا الوقت، ولكن عندما انتهت السمينة من حديثها تحدثت هي الأخرى، قالت:

- بادئ ذي بدء أُدعى (الصلاح)، وليس لديَّ أسماء أخرى. لن أوقعك في شباكي بالإغواءات كما تحاول الأخرى أن تفعل، لكني سأقول لك مباشرة أين يكمن خير كل إنسان. ستدرك أنك معي فقط ستجد الخير. أنت تدرك جيدًا أنك كي ترى ثمر الأرض لا بد وأن تكدح أولًا، وإن أردت أن تربي الماشية فعليك أن ترعاها جيدًا، وحتى تحصل على منزل جميل، فلا بد لك من أن تعمل على الحجر، وإن أردت أن تحصل على تقدير الناس فلا بد وأن تعمل من أجلهم، وإن أردت أن تحظى بحب الآلهة، فلا بد وأن تصنع إرادتها، وإرادة الآلهة هي أن تعمل من أجل الآخرين. هذا هو الطريق الذي يمكنني أن أقودك إليه، وفيه وحده سوف تجد خيرك.

ولم تنبس المرأة بكلمة أخرى، بينما قفزت المهندمة أمامه ثانية، وقالت:

- أتدري كم هي صعوبة الطريق الذي تقودك إليه يا هرقل؟ إنه طريق مليء بالعمل ثم العمل ثم العمل... هذا ما تعدك به. ولكن من حيث الفرحة، أليس من الأفضل لك أن تأتي معي حتى تنعم بها؟ معي لن تشغل بالك بأي نوع من أنواع العمل. ستجد معي السرور منذ أن تخطو خطواتك الأولى... ستجد الطعام الحلو، والشراب اللذيذ والفراش الناعم الوثير. تعال معي.

هكذا قالت المهندمة وهي تأخذ هرقل من يده. حينها قالت المتعذر تمييزها:

- انتظري! تقولين «الطعام الحلو والشراب اللذيذ»، وتعتقدين أن هذا حسن، ولكن هناك ما لا تستطيعين أن تشربيه. أنتِ تأكلين وتشربين في الوقت غير المناسب. إنكِ لا تفعلين ذلك عندما تشعرين بالجوع أو العطش، ولكن تفعلين ذلك عندما تشعرين بالملل، لذلك ففمك لا يستطيع تذوق أفخم الأطعمة وأغلى المشروبات. تعدينه بفراش ناعم وثير، بينما لا يمكنكِ النوم، فتضعين الوسائد والأغطية الناعمة الوثيرة لتنامي ورغم ذلك لا تستطيعين؛ لأنكِ لا تنامين إلا بدافع من الملل. مَن يعمل كثيرًا وحده مَن يستطيع النوم حسنًا، لكنكِ لا تعملين، وبالتالي لا يوجد ما تودين أن تستريحي من تعبه. أنا أعرفك جيدًا، وأعرف أولئك البائسين الذين دمرتِهم بإغواءاتكِ وحياتكِ الناعمة. ألا يكفيكي أن يبكي على أعوام الشباب التي أهدرها معكِ؟ لهذا يبعدكِ جميع الشرفاء عن أنفسهم ويطلقون عليكِ الترف والفسوق. أنا لم أخدع أحدًا من أولئك الذين ساروا معي. كل مَن قضوا أعوام شبابهم معي ازدادوا قوة في الروح والجسد على السواء، ووجدوا في طريقي سعادة أكثر من الحزن، وجميعهم يحبون ويوقرون الناس، وجميعهم يتذكرون بسرور أعمارهم المنصرمة، وينتظرون الموت بهدوء. مَن مضوا معكِ غاضبين منكِ، أما أنا فلم يلمني أحد أبدًا على أي خداع قد قمت به، والجميع يكرمونني، وجميعهم يطلقون عليَّ اسمًا واحدًا فقط «الصلاح». انظر إلى أي حياة أدعوك يا هرقل!

حينها لم يستغرق هرقل مزيدًا من الوقت في التفكير ومضى خلف «الصلاح». مضى خلفها وكدح في حياته من أجل الناس، وأرضى الله والناس ووجد خير نفسه».

انتهى سقراط من حكايته، وقال لأريستون:

- فكِّر أنت الآخر يا أريستون إلى أي طريق منهما تود أن تمضي؛ مع الترف أم الصلاح. اتخذ قرارك طالما لديك الفرصة، حتى لا تجد نفسك قد هرمت وتندم على حماقتك، وتقترب من الموت دون أن تكون أرضيت نفسك والله والناس.

-٣-

## كيف يتوجب علينا أن نرشد الشعب؟

ذات يوم سمع سقراط عن أحد الأثرياء ويُدعى جلافكون، يسعى خلف أن يصبح قائدًا. كان سقراط يعرف أنه إنسان لا يتمتع بالخبرة الكافية، وأنه مستهتر، وأراد أن يكشفه.

التقاه سقراط ذات مرة في ميدان المدينة. كان جلافكون واقفًا وسط الناس، وهم يتحدثون معه بكل إجلال وتوقير. كان الجميع ينتظرون أن يصبح رئيسًا سريعًا، وحينها سيتقدم كل منهم إليه بما يريده. أما جلافكون فكان هو الآخر ينتظر أن ينتخبوه، وكان يتيه فخرًا أمام الناس. اقترب منه سقراط، وقال:

- مرحبًا يا جلافكون! لقد سمعت أنك ستصبح عضوًا في حكومتنا.

- نعم.. آمل هذا.

- يا له من خبر جميل. عندما تنال منصبك، ستصبح كثير من الأمور تحت سلطانك، وحينها يمكنك أن تفعل خيرًا كثيرًا للناس، وسوف تنال مجدًا عظيمًا.

- نعم، ولمَ لا؟ لم لا أصبح مسؤولا عظيمًا؟

- الحاكم الصالح، الذي ينال مجدًا عظيمًا هو الذي يسدي فوائد كثيرة لشعبه. أليس كذلك؟

- بالضبط.

- إذنْ قل لنا ولا تُخْفِ رجاءً: ماذا تفكر أن تصنع من أجل الشعب؟ بمَ ستبدأ؟

تريث جلافكون، ولم يجب على الفور. لم يكن قد فكّر بما سيبدأ، وبينما هو يفكر قال سقراط:

- فيمَ تفكر؟ ليس من الصعب أن تدرك ما الذي ستفعله لصالح الشعب. الشعب هو أولئك الناس، ونحن جميعًا. إن وددت أن تفعل خيرًا لصديقك، فأول ما كنت ستفكر فيه هو أن تُزيد من غِناه. أليس كذلك؟

- بالضبط.

- الأمر ذاته مع الشعب. أن تفعل الخير للشعب يعني أن تُزيد من غِناه. أليس كذلك؟

- بالطبع الأمر كذلك.

- ولكن كيف تُثري الشعب بأكمله؟ أعتقد أن المرء يمكنه أن يفعل ذلك بأن يُزيد من عوائد الشعب ويُقلل من مصروفاته. أليس كذلك؟

- أعتقد ذلك.

- قُل لي يا جلافكون ما مصادر الدخل التي للشعب الآن، وكم تبلغ؟ لا بد وأنك تعرفها جميعًا.

- لا... لا أعرف شيئًا عن ذلك، فلم أفكر فيه يومًا.

- لم تفكر في الأمر! حسنًا... ولكن لا بد وأنك قد فكرت في قدر ما ستحتاجه من أجل المصروفات، فإن كانت هناك مصروفات لا لزوم لها فلا بد وأنك قد فكرت في التخلص منها.

- لا... لا يمكنني أن أجيب عن ذلك الآن، فأنا لم أفكر في ذلك الأمر أيضًا.

- لم تفكر في ذلك الأمر! إممم.... لا تزال هناك فرصة... لا بد وأنك قد جعلت كل تفكيرك فيما يمكنه أن يُثري الشعب، فتُرى فيما فكرت؟ كيف يمكن أن يزداد الشعب ثراءً؟

- أعتقد أن الحرب هي أكثر ما يمكن أن يُثري الشعب. علينا أن نغزو شعوبًا أخرى ونستولي على ثرواتها ونقتسمها فيما بيننا.

- نعم... يبدو أن هذه أقصر طريقة تُثري بها الشعب، ولكن هذا ما يبدو فقط ظاهريًّا، ولكن في الحقيقة أنت لا تغزو شعوبًا غريبة، بل إنك تبدد أموال الشعب عبثًا على الحرب، والشعب

لن يُثرى من ذلك بل يزداد فقرًا.

- ربما يكون هذا صحيحًا حينما تُمنى بالهزيمة، لذلك لا يجب أن تبدأ الحرب إلا حينما تتيقن من أنك ستفوز بها.

- هذا يعني أنه حتى تبدأ حربًا، فعليك أن تعرف قوة شعبك جيدًا، وكذلك قوة العدو.

- بالضبط... لا بد وأن تعرف ذلك. قل لي يا جلافكون: كم حجم قواتنا العسكرية المستعدة للحرب، وكم قوة عدوك الذي تريد أن تغزوه؟

- بالطبع لا يمكنني أن أجيب عن ذلك، فأنا لا أتذكر العدد حصرًا.

- لا بد وأنك لديك سجلات إذنْ بالعدد... أحضرها إذنْ من فضلك وسنقرؤها.

- لا... ليست لديَّ سجلات، كما أنه من المستحيل أيضًا أن نعرف عدد قوات العدو.

- يا للأسف. إن كان من المستحيل حساب عدد قوات العدو، فمن المستحيل إذنْ أن نقرر ما إن كنا سننتصر أم لا، وهذا يعني أننا لا يمكن أن نأمل الكثير من وسيلتك لإثراء الشعب. أنت لا تعرف إذنْ ما إن كنت ستثري الشعب أم لا، ولا بد أنك ستُهلك الكثيرين، وبدلًا من الثراء سوف تصيب شعبك بالفقر. سنتوقف هنا، ولكن أودك أن تحدثنا عن أمر آخر. قل لنا يا

جلافكون كم يحتاج الشعب من خبز؟ وما مقدار ما حصدناه هذا العام؟ وهل سيكفي هذا الخبز الشعب حتى العام الجديد؟ لا بد وأنك قد فكرت في هذا طبعًا. أليس كذلك؟

- لا... لم أفكر في ذلك الأمر.

هكذا أجاب جلافكون، ثم صمت، وكذلك فعل الجميع. ثم قال جلافكون:

- تريد أن تقول يا سقراط إنه إن لم أستطع أن أعرف وأحسب كل شيء فسيكون من الصعب أن أحكم الشعب؟!
- وهل تعتقد أن حكم الشعب أمر يسير؟ سأسألك سؤالًا أخيرًا. لقد سمعت أنك بدأت في مساعدة عمك في الزراعة، فكيف كان الأمر؟
- كان الأمر صعبًا عليَّ، فالزرعة أمر شاق، وعمي لم يكن يستمع إليَّ.
- الأمر إذنْ أنك لم تنجح في إدارة بيت واحد، ولكنك تسعى إلى حكم الشعب بأكمله. عليك أن تعمل فقط فيما يمكنك أن تفهمه. فكِّر جيدًا حتى لا تصيبك البلايا بدلًا من أن تنال المجد والتوقير. عليك أن تعرف إجابة كل ما سألتك عنه أولا، ثم فكِّر بعد ذلك في الحكم.

مضى جلافكون في طريقه صامتًا مبتعدًا عن سقراط، وتوقف عن ترشحه لمنصب القائد.

## -٤-

## مَن الأفضل: السيد أم العبد؟

ذات يوم جاء إلى سقراط جاره أريستارخ، وظل يشكو له بليته.

- لقد ضاع عقلي مني. كنت ثريًّا ذات يوم، والآن كسدت تجاري وأفلست. وجاءت الحرب لتكمل بليتي، وقتلوا الرجال. كان ينبغي لهم أن يأخذوا معهم الأرامل والأيتام. لديَّ الآن في منزلي أربع عشرة روحًا. من أين يمكنني أن أطعم كل هؤلاء؟ مصيبة تلي مصيبة، ولا أعرف كيف يمكنني أن أتصرف!

حينها أجابه سقراط:

- كم أشفق عليك يا صديقي! ولكن كيف ستتصرف؟
- لقد أردت أن أقترض بعض المال لأبدأ تجارتي ثانية، لكنهم لم يعطوني، فهم يعرفون كم ساءت الأمور.

هز سقراط رأسه، وقال:

- لا بد وأن يكون لديك الكثير حتى تطعم أربعة عشر شخصًا. لكن جارك لديه أكثر من عشرين شخصًا، وجميعهم يشعرون بالشبع، بل ويربحون المال أيضًا.
- لقد فحصت الأمر. لديه واحد وعشرون عبدًا. إن العبيد يعملون أكثر مما يأكلون، لكني لديّ أربعة عشر يونانيًّا حرًّا.

- وبمَ يتميز اليونانيون الأحرار عن العبيد؟ هل هم أفضل من العبيد؟

- بالطبع هم أفضل!

- في حديثك تقول إنهم أفضل، ولكن في الواقع الأمر ليس كذلك. فأنت تقول إن الأمور على ما يرام لدى جارك، بينما الحال عندك سيئ؛ لأن مَن لديك في منزلك يونانيون أحرار وليسوا عبيدًا. من الواضح أن العبيد قادرون على العمل، بينما الأحرار ليسوا كذلك.

- كانوا سيعملون إن أجبرتهم على ذلك، لكني لا أستطيع أن أجبرهم! إنهم ينحدرون من جنس نبيل، كما أنهم أقرباء لي، فكيف يمكنني أن أجبرهم على العمل؟ سأسيء إليهم إن فعلت ذلك، وسيبدأ اللوم والتقريع. هذا مستحيل!

- ولكن هل هم لا يلومونك الآن؟ هل يعيشون جميعًا في وئام وسلام؟

- أي وئام تتحدث عنه؟ أنا لا أسمع شيئًا سوى اللوم الذي يصل حد الشجار.

- طالما تستقبل اللوم والتقريع دون أن يعملوا، وليس لديك ما تقتات عليه، فعليك إذنْ أن تدرك أن نبلك وسلالة عائلتك لن يمنحك لا الطعام ولا الوئام. لماذا إذنْ لا تمنح كلًّا منهم عملًا بحسب قدرته؟ ألن يكون الأمر أفضل إن عملوا جميعًا؟

- كنت سأفعل ذلك حتى وإن لم يَرُقْ لهم الأمر، ولكن الناس في المدينة سيدينونني على ذلك.

- وهل هم لا يدينوك الآن؟

- هناك الآن أناس طيبون يدينونني على الفقر! يدينون المرء لكنهم لا يمنحونه المال حتى يُصحح من أوضاعه!

- بالضبط! لن يستمعوا إليك في كل الأحوال، فحاول إذنْ أن تجعلهم يعملون، وقد تتحسن الأمور.

استمع أريستارخ لسقراط، وبعد مرور نصف عام تقريبًا التقيا ثانيةً، وسأله سقراط عن أحواله، فأجابه قائلًا:

- حالي حسن، والأمور على ما يرام. لقد استمعت إلى نصيحتك، ومن وقتها تحسنت الأمور. أتينا بالصوف وقمنا بنسجه وصنعنا ثيابًا للرجال والنساء ثم قمنا ببيعها، فوفرنا المال وبدأت الأرباح. منذ ذلك الحين انخرطنا جميعًا في العمل، وأصبحنا جميعًا في خير حال، ولم تعد هناك مشاجرات.

- وماذا يقول الناس؟

- لم يعودوا يسبونني.

هكذا أجاب أريستارخ وابتسم.

* * *

ذات مرة شاهد سقراط سيدًا شابًّا مستلقيًا في الميدان يُروِّح عن نفسه من أثر الحرارة. سأله سقراط:

- ما سبب تعبك؟

- وكيف لا أشعر بالتعب وقد سرت ما يقرب من ١٠ فرست[٦٩] على أقدامي طوال الطريق من القرية إلى هنا؟ لم أجد شيئًا يقلني.

- وما المرهق إلى هذه الدرجة في الأمر؟ هل كنت تحمل شيئًا ثقيلًا؟

استاء الشاب.

- ولماذا أحمل شيئًا؟ لديَّ عبد، وهو مَن حمل أغراضي.

- وهل شعر بالإرهاق أم لا؟

- وماذا يهمني من أمره؟ إنه صحيح الجسد معافى. لقد مضى طوال الطريق وهو ينشد الأغاني ولم تؤثر فيه الأحمال بشيء.

- إني أشفق عليك. لقد تبين أن عبدك يمكنه أن يخدمك ويخدم كل إنسان، أما أنت فلا يمكنك أن تخدم الآخرين، ولا حتى نفسك.

* * *

ذات مرة رأى سقراط سيدًا يجلد عبده.

- لماذا تضربه بهذه الطريقة الصعبة؟

- وكيف لا أضربه؟ إنه شديد النهم، ولا يفكر في شيء سوى

(٦٩) مقياس طول روسي.

الاستمتاع بالنوم وطيب الطعام. إن مائة جلدة قليلة عليه!

تنحى سقراط بالسيد جانبًا، وقال له:

- وهل أنت تفكر في شيء آخر سوى الاستمتاع بالنوم وأطايب الطعام؟

فلم يجب السيد بشيء.

- طالما أنت نفسك لا تفكر في شيء آخر، فكم عدد الجلدات التي تستحقها أنت الآخر حتى يتعظ منك عبدك؟

شعر السيد بالاستياء من حديث سقراط وغادر.

## -٥-

## كيف يعيش المرء مع أسرته؟

عندما انقطع سقراط عن عمله بالأحجار كي يذهب إلى الميدان ويعلم الشعب، امتعضت زوجته كثيرًا من ذلك، واعتقدت أن ذلك سيتسبب في كثير من المتاعب. لكنها عندما رأت أن كثيرين من الناس قد احتشدوا حوله، شعرت بالعزاء وقالت في نفسها: «لا بد وأنهم يدفعون مبلغًا حسنًا لقاء التعليم، فالتلاميذ يعيشون رغد العيش، ولا بد أننا سوف نعيش نحن أيضًا كذلك». لكن سقراط لم يكن يفكر على هذا المنوال، فكان يقول لنفسه: «لا يمكنني أن أتقاضى أجرًا على التعليم، فأنا أُعلِّم ما يقوله لي صوت الله بداخلي... أنا أُعلِّم الصلاح، فكيف آخذ نقودًا مقابل ذلك؟». هكذا اجتمع الكثيرون لدى سقراط ليسمعوا

تعاليمه، لكنه لم يأخذ مالًا من أحد. أما بالنسبة لأسرته فقد استمر يعيلها بحرفته القديمة، لكنه اكتفى فقط بتوفير الضروريات. بدت هذه العيشة بالنسبة للزوجة شديدة الفقر والصعوبة والخزي. كثيرًا ما كانت تهمهم قائلة إن زوجها لا يأخذ مالًا مقابل التعليم. أحيانًا ما كان الأمر يصل إلى الدموع واللوم والتقريع. كانت زوجة سقراط التي يدعونها «كسانتينا» سريعة الغضب. عندما تصيبها نوبات الغضب كانت تمزق وتلقي بكل ما تقع عليه يدها.

نال سقراط ما فيه الكفاية من زوجته ومن أطفاله، والأكثر من ذلك من نفسه هو شخصيًّا، لكنه لم يغضب عليها، وكان يفعل أمرًا من اثنين؛ إما أن يصمت وإما أن يحاول أن يناقشها.

ذات يوم أخذت الزوجة تسب وتسب، وسقراط لا ينبس ببنت شفة، وقد صار حزينًا على حالها، فقامت في النهاية بكل خبث بإغراقه بمياه الغسيل. قال سقراط:

- هكذا هو الأمر... في البداية الرعد، ثم المطر.

ثم أخذ يجفف نفسه.

هكذا كان سقراط يسلك في حياته، وهكذا علَّم أبناءَه. ذات مرة تحدث الابن الأكبر بوقاحة مع أمه، فقال له سقراط:

- ماذا تعتقد في أولئك الذين لا يتذكرون خيرًا أسداه إليهم إنسان آخر؟ أهم صالحون؟

- إن كانوا لا يريدون فعل الخير لِمَن أسدى إليهم خيرًا، فهم أكثر

الناس سوءًا. هذا ما أعتقده، وكذلك يعتقد الجميع.

- بالصواب أجبتَ. الآن قُل لي، إن قام إنسان بحمل إنسان آخر -ليست لديه القوة لفعل ذلك- من مكان لمكان وأطعمه وكساه ووضعه على فراشه كي ينام، وكان ينهضه من على الفراش ويسير معه ويعتني بمرضه... ألم يفعل هذا الإنسان الخير لرفيقه؟

- لقد فعل خيرًا عظيمًا.

- هذا ما فعلته أمك لك؛ بل وأكثر من ذلك. حملتك وأطعمتك وسهرت على رعايتك، دون أن تعرف ما إن كانت ستنال خيرًا على ذلك أم لا، أو حتى مساعدة في المستقبل. ماذا ستسدي لها عوضًا عن ذلك، وكيف ستكرمها كشخص ممتنٍّ لِمَن أسدى خيرًا له؟

شعر الابن بالارتباك، لكنه لم يرد أن يعترف بخطئه وحاول تبريره، فقال:

- كنت سأقدرها جيدًا إن كانت مختلفة عمَّا هي عليه، ولم تكن تصيح هكذا دون سبب. إنها غير محتملة.

- وأنت عندما كنت طفلًا... ألم تكن تصرخ طوال الوقت؟ لقد تحملتك وأحبتك واعتنت بك، وهكذا يجب أنت أيضًا أن تفعل.

-٦-

## لماذا لا يحتاج سقراط إلى مزيد من الغذاء أو الثياب؟

ذات مرة جاء أحد التلاميذ إلى سقراط، ونظر كيف يعيش، وقال له:

- لقد شاهدت الآن بنفسي كيف تعيش. إنك تأكل أبسط أنواع الطعام، وترتدي أبسط الثياب، ولا تغيرها صيفًا وشتاءً، وليس لديك حذاء على الإطلاق. ما فائدة حكمتك إذنْ إن ظلت حياتك صعبة إلى هذا الحد؟
- وهل سمعتني يومًا أشكو من شيء؟
- لا... لم أسمعك أبدًا تشكو من شيء. إلا أن ظروف حياتك كلها ليست على ما يرام. ليست لديك أطايب الطعام وأفضل أنواع الشراب، ومع ذلك تشعر بالرضى!
- لا.. لا أحد يبتهج بعدم تناول الطعام والشراب. سأشرح لك الآن كل شيء. أنت بنفسك تعرف أن أبسط أنواع الطعام يمكن أن تبدو أشهى من أغلى الأنواع عندما يجوع المرء، وهذا ما أفعله، فأنا لا أتناول الطعام إلا إن شعرت فعلًا بالجوع، ولا أشرب إلا إن شعرتُ بالعطش، فما الذي يمكن أن يجديني إذنْ مَن تناول أشهى وألذ الأطعمة والمشروبات؟ إني أشعر بلذة الطعام والشراب البسيط أكثر من الطعام والشراب الفاخر. أما بخصوص الثياب، فأنا لا يلزمني شيء غير ما لديَّ بالفعل.

أنت تعرف أن الناس لديهم نوعان من الثياب: ثياب من أجل الصيف، وأخرى من أجل الشتاء، لأنهم إن ارتدوا ثيابًا خفيفة في الشتاء سيشعرون بالبرد، وإن ارتدوا ثيابًا ثقيلة في الصيف سيشعرون بالحر، لكني قمت بتدريب جسدي على ألا يشعر بالحر في الصيف والبرودة في الشتاء، وهكذا أمضي إلى حيث أشاء صيفًا أو شتاءً، فلماذا إذنْ أشتري ثيابًا أخرى؟

- لنفترض أنك عوَّدت نفسك على ذلك فعلًا، ولكن لماذا يتوجب على الآخرين أن يعيشوا بالطريقة نفسها؟

- اسمع ما سأقوله لك: إنسان محتاج جاء لي وقال لك: «ساعدني». ما الأسهل: أن أساعده أنا أم أنت؟ ستقول في نفسك: «يسعدني أن أساعده، لكني في حاجة إلى الكثير. إن منحته شيئًا فسأكون في حاجة إليه. إن ساعدته في عمله فسوف يضيع مني الوقت، فكم يمكنني في هذا الوقت أن أعمل لنفسي وأربح!»، لكن الوضع سيكون مختلفًا بالنسبة لي، فأنا مستعد دائمًا لمساعدة الآخر لأني لست في حاجة لشيء، ولا أشعر بالأسف على الوقت لأني لا أكسب المال من خلف هذا الوقت، فأنا أُعلِّم بالمجان.

- هكذا هو الأمر إذنْ!

- وهناك أمر آخر: فلنفترض أن بعض الظروف الصعبة حلَّت على الشعب، وتوجب أن نخدم الجموع. ستقول في نفسك: «ليتهم فقط لا يختارونني من أجل هذه الخدمة، فستصيب

الخسارة شؤوني الخاصة إن قمت بها». أما أنا فلا أُبقي على شيء، وسأقوم بالخدمة الاجتماعية بكل سرور.

- صدقت، لكني لا أزال أفضل الموت على أن أحيا حياة كتلك التي تحياها. إني أشعر بالعجب من وجود عدد كبير من الناس يريدون أن يستمعوا إليك.

- كثيرون يستمعون إليَّ، ولكنَّ قليلين هم مَن ينفذون هذه التعاليم. إنهم يسمعون ويسمعون، ثم يعودون إلى حياتهم السالفة، وهناك مَن يعيشون بالطريقة التي أنصحهم بها، ولا يشتكون من شيء كما هو الأمر معي، ويقولون إنهم أصبحوا أكثر سعادة من السابق، ويقولون لي أيضًا إنهم الآن يدركون سعادتي لأنهم يمرون بنفس الحالة الآن، لكنك لم تختبر ما قد اختبروه ولذلك لا تعرف مقدار سعادتهم.

مضى الطالب وانصرف بعيدًا عن سقراط وهو يقول في نفسه: «ماذا أعتقد الآن بخصوص سقراط؟ كثيرون يعتبرونه مجنونًا بعض الشيء، وغريب الأطوار ويدينونه ويسخرون منه، لكن الأمر يبدو لي الآن على النقيض من ذلك: إنه إنسان صالح وعادل».

-٧-

## عن الحياة الأخوية

ذات مرة عرف سقراط عن تاجر غني قد افترق عن شقيقه. التقى سقراط بهذا التاجر، فحدَّثه قائلًا:

- إني أتعجب منك. أنت إنسان ذكي، وصاحب أملاك يحاول أن يزيد من ثروته، وتستأجر عاملين لديك، وتبحث عن رفاق في عملك، ورغم ذلك قد افترقت عن أخيك! أليس حسنًا أن يعيش المرء في توافق مع أخيه؟
- حسنًا أن يعيش المرء مع شقيقه، ولكن أي شقيق بالضبط؟ إن أخي يتعامل جيدًا مع الآخرين، لكني لم أرَ خيرًا منه على الإطلاق.
- ألا يمكن أن تكون أنت الآخر قد تعاملت معه بطريقة سيئة؟
- يمكنني أن أتحدث بكل لطف مع ذاك الذي يحدثني هو الآخر بلطف، ويمكنني أن أفعل الخير لِمَن يُسدي إليَّ الخير، أما أن أتحدث بلطف وأفعل الخير مع مَن لا يفعل معي الأمر ذاته، فهذا ما لا أستطيعه، ولا حتى أنتوي فعله.

هكذا أجاب التاجر بحزنٍ، فقال له سقراط:

- قل لي: كيف كنت ستتصرف مع إنسان تود أن تصادقه؟
- كيف سأتصرف؟! سأفعل ما يفعله الجميع. سأسلك معه

بلطف، وكنت سأسلك معه على أفضل ما يكون، ولكنت قد أعطيته المال إن احتاج إليه.

- حسنًا... افعل الأمر ذاته مع شقيقك وانظر كيف سيتغير معك.

- ربما إن انحنيت له أولًا سينصرف دون أن يرد تحيتي، وحينها سأشعر بالخجل أمام الناس.

- التعامل بلطف لا يدعو أبدًا للخزي، ولن يسخر منك أبدًا الصالحون من الناس. وإن لم يعد شقيقك يعاملك بطريقة أخوية، فعلى الأقل ستكون قد فعلت ما يتوجب عليك فعله، وسيكون شقيقك وحده المذنب في الأمر. نعم، والأمر لن يمضي بهذه الطريقة... تعامل معه فقط بالحسنى وسترى. أنا أعرف كيف يعامل شقيقك الناس بود ولطف. ابدآ حياة أخوية جديدة، وستشعران بالسعادة في المستقبل؛ لأنكما ستعيشان بالطريقة التي يوصينا بها الله.

ثم أكمل سقراط قائلًا:

- إن شقيقين يماثلان عيني ويدي وقدمي الإنسان. لقد رتَّب الله الأمر بحيث تساعد اليدين بعضهما البعض، وهكذا هو الأمر مع الإنسان وشقيقه. ماذا يمكن أن يحدث إن عاقت يد الأخرى؟ أنت تعلم جيدًا أن اليدين لا تعوقان بعضهما البعض، بل تساعدان بعضهما. لذلك يمكنهما أن يفيدا بعضهما البعض، ولا بد أن يكون نفع الشقيقين لبعضهما البعض أكبر بدرجة

واضحة من نفع ليدين لبعضهما البعض أو العينين أو القدمين. يمكن لليدين والقدمين أن يساعدا بعضهما إن كانا قريبين فقط من بعضهما البعض، ولكن الشقيق يمكن أن يساعد شقيقه حتى وإن كان في الطرف الآخر من العالم. يمكن للعينين أن تنظرا سويًّا إلى نفس الاتجاه، ولكن الشقيق أكثر نفعًا لشقيقه حيث ينظر إلى الاتجاه الذي لا يمكن لشقيقه أن يراه. إن الله قد أمرنا أن نعيش مع بعض جميعًا حياة أخوية، لذلك فالذي لا يحيا هكذا مع شقيقه فإنه لا يطيع قانون الله.

-٨-

## كيف يتوجب على الناس أن يعيشوا مع بعضهم البعض؟

لم يقتصر الأمر على سكان أثينا وحدهم الذين جاؤوا لسماع تعاليم سقراط، بل توافد آخرون من مدن أخرى، بل حتى من بلاد أخرى غير اليونان. كانوا يأتون إلى منزله أو ينتظرونه حتى يخرج إلى ساحة المدينة، وهناك يلتفون حوله. كانت جموع كثيرة تحتشد حوله؛ شباب وكبار، مواطنوه وغرباء عن المدينة. لم يكن سقراط يحب أن يتحدث كثيرًا، وكان يسأل الآخرين عن كل شيء. اعتاد أن يقول: كما أن والدته ليس هي مَن تنجب، بل تساعد النساء فقط على الولادة، فكذلك الأمر معه، فهو لا يُعلِّم أحدًا شيئًا، بل يساعد فقط الآخرين على أن يتعلموا بأنفسهم. كان سقراط يجلس على أريكة، والحشود من حوله. كان يضع يديه على ركبتيه، ويميل رأسه ويستغرق في التفكير، وينتظر الجميع

الأسئلة التي سوف يطرحها، ثم يرفع رأسه، ويقول:

- قولوا لي رجاءً: لماذا يعيش الناس مع بعضهم البعض، ولا يعيش كل إنسان بمفرده؟ فطالما هناك خلافات وعداوات بين الناس، ألن يكون من الأفضل أن يعيش كل امرئ بمفرده بحيث لا تكون هناك أي خلافات؟

حينها بدأ الجميع في التحدث. قال أحدهم إن الناس يعيشون مع بعضهم البعض لأن هذا أنفع لهم، فإن عمل كل إنسان بمفرده لن يكون العمل جيدًا، أما عمل الجماعة فأفضل.

وقال آخر إنه سيكون من المخيف أن يعيش الإنسان بمفرده، فلن يستطيع أن يدافع عن نفسه.

قال ثالث إن الإنسان سيشعر بالملل إن عاش لحاله، لكنه سيشعر بالسرور إن عاش في صحبة الآخرين.

قال رابع إن الله قد صمَّم الأمر بحيث لا يعيش الإنسان بمفرده بل في وسط الجماعة.

أجاب سقراط:

- تمام... ولكن ما رأيكم: هل العيش وسط الجماعة يكون أكثر فائدة في حالة السلم أم الحرب؟

أجابوا جميعًا:

- بالطبع في حالة السلم.

- إذنْ أنتم تعتقدون أن الله أمر بذلك، لكن الأمر لا يمضي معنا

على هذه الشاكلة، فتُرى ما السبب؟

صمت الجميع، ولم يعرفوا بماذا يجيبون. فأكمل سقراط قائلًا:

- أنا لا أعرف هل سنتوصل إلى الإجابة سويًّا أم لا. دعوني أسأل وأنتم تجيبون. قولوا لي في البداية: مَن أكثر فائدة للمرء: رفيقه أم العبد المأجور؟

أجابوا جميعًا:

- بالطبع رفيقه.

وقال أحدهم:

- العبد المأجور سيفكر فيما يجلب النفع له، لا فيما يجلب النفع لسيده، أما الرفيق فيفكر في صالح صديقه كما يفكر في نفسه بالضبط.

وقال آخر:

- يمكنك أن تأتي بالعبد إن توفر لديك المال، ويستمر الأمر إلى حين، وحين ينتهي ما لديك من مال ولا يكون معك ما تدفعه ستعود لتبقى وحدك.

- صحبة الرفيق لا تقدر بثمن، فهو لن يتركك في فقرك، وسيساعدك بكل ما لديه.

وقال رابع:

- أنت نفسك ستكون في أفضل حال في صحبة الرفيق الجيد.

حينئذ قال سقراط:

- إذنْ أنتم جميعًا متفقون أن صديق المرء أفضل من العبد المأجور، وأن مالك العبيد ليس قويًّا وسعيدًا ومسرورًا وهادئ البال، بل ذاك من لديه أصدقاء حقيقيون. لا بد وأنكم جميعًا لديكم أصدقاء أكثر من العبيد... أليس كذلك؟

أجاب أحدهم:

- كان لا بد أن يكون الأمر كذلك، لكنه في الواقع ليس كذلك.

وقال آخر:

- إن سألتنا الآن كم لديكم من الأعداء، فيمكننا أن نحصيهم لك بسهولة، وكذلك هو الأمر مع العبيد والعمال، أما السؤال بخصوص عدد الأصدقاء، فيمكن أن يكون العدد اثنين أو واحدًا على أقصى تقدير.

- وما السبب في ذلك؟ أنتم قد قلتم بأنفسكم أن الصديق أهم شيء، ورغم ذلك فليس لديكم أصدقاء. إن كنا نعرف مثلًا أننا في حاجة إلى الثيران لاشترينا عددًا كبيرًا منها، فلماذا ليس لديكم كثير من الأصدقاء، مع أنكم سوف تنالون من صحبة الصديق المنفعة والسرور والدعم وقت الشدة؟

أجابه أحدهم:

- السبب في ذلك هو أن الثيران الجيدة متوفرة بكثرة، أما الصديق الجيد فنادر. إن كنت تحتاج ثورًا من أجل حرث الأرض،

فاختر واحدًا جيدًا واشتره على الفور، ولكن إن كنت في حاجة إلى صديق فأين يمكنك أن تجد صديقًا وفيًّا؟ الناس كثيرون ولكن الأوفياء منهم قليلون.

- هذا صحيح. ما طبيعة الثور الذي تعتبره ملائمًا لعملية الحرث؟
- ذاك الذي يحرث بقوة وإذعان.
- وما طبيعة الصديق الذي يمكنك أن تطلق عليه وفيًّا؟
- ذاك الذي لا يفكر في نفسه فقط، بل يفكر أيضًا في الآخر... إنه ذاك الإنسان الذي إن سمع أنك مريض يزورك فورًا دون أن تكون لديه مصلحة في ذلك، وإن لزم الأمر يساعدك في أعمال المنزل حتى لا تخسر شيئًا بسبب مرضك. إنه ذلك الصديق الذي يمنحك المال إن كنت في حاجة إليه. هذا هو مَن أُطلق عليه صديقًا وفيًّا.
- وكيف تعرف عن الشخص ما إن كان كذلك أم لا؟
- من أعماله الصالحة.
- ولماذا يرغب هو الآخر في صداقتك؟
- للسبب ذاته.
- ومتى تصبح أنت صديقًا؛ أعندما تكون أنت في حاجة إليه أم عندما يكون هو في حاجة إليك؟

صمت الجميع ولم ينبسوا ببنت شفة.

- كيف لا تعرفون الإجابة؟ فلنفترض أن أحد الجيران قد انتقل للسكن بجانبك، وأنت لا تعرفه وهو لا يعرفك أيضًا، فكيف يمكنك أن تعرف ما إن كان يصلح كي يكون صديقًا وفيًّا لك أم لا؟ هل سوف تنتظر أن يساعدك أم سوف تبادر أنت بمساعدته؟

- نعم... أظن أنه من الأفضل أن أنتظر ما يحدث من جانبه.

- وهو سيقول إنه من الأفضل له أيضًا أن ينتظر، وبهذا لن يمكن أن تتكون صداقات حقيقية أبدًا.

حينئذ قال شخص آخر:

- أنت على حق يا سقراط.

وقال ثالث:

- جميعنا يريد أن يسدي إليه الآخرون كل الخير، لكننا لا نريد أن نبدأ بأنفسنا.

قال رابع:

- ولهذا نقول إنه يمكننا أن نحصل على كثير من الثيران الجيدة بسهولة، ولكن الأمر ليس كذلك مع الناس. إننا نريد من الآخرين أن يكونوا صالحين، لكننا لا نريد أن نكون نحن كذلك، ثم نُوبِّخ الآخرين على ذلك.

قال سقراط:

- لقد قلنا بأنفسنا إن الحياة في صحبة الآخرين أفضل، وإنه بالطبع من الأفضل لنا أن نعيش وسط إطار من علاقات الصداقة بدلًا

من النزاع، ولقد قلتم إن الصداقة هي أغلى شيء، وإن الصداقة هي أن يُسدي الإنسان الخير للآخرين، لكننا لا نريد أن نسدي الخير للآخرين، بل نريد فقط أن يسدوا هم الخير إلينا، ولذلك فنحن لا نعيش في سلام وسرور؛ بل في عداء وتعاسة.

## -٩-

## ماذا يحتاج الإنسان أن يعرف؟

ذات مرةٍ عاد سقراط من عمله، فرأى حشدًا كبيرًا مجتمعًا في هذا الجو البارد، ومنهم كثير مَن معارفه. اقترب منهم سقراط وحيَّاهم. قالوا له:

- نحن ننتظرك هنا منذ وقت طويل. اجلس معنا. نريد أن نتحدث إليك.

ولم يستطع سقراط أن يجلس، فقد احتشدوا جميعًا من حوله من كافة الاتجاهات، ومَن كان يسير بالقرب من المكان توقف، فقد أخبر الناس بعضهم البعض أن سقراط يُعلِّم هناك في أحد الأركان، ومَن رأى الحشد بنفسه توقف أيضًا واقترب كي يستمع إلى حديث سقراط. توقف أيضًا الحرفيون عن عملهم، ومضوا إلى ذلك المكان حيث كان سقراط يُعلِّم الجموع.

سأل أربعة أفراد من الجمع سقراط عما يجب أن يعلموه لأطفالهم. قالوا:

- انصحنا يا سقراط: ما الذي يجب أن نُعلِّمه لأطفالنا؟ نريد أن نربيهم على خير ما يكون. قل لنا كيف نعلمهم وماذا نعلمهم؟
- ما رأيكم؟ ما الذي يجب أن نعلمهم إياه؟

قال واحد منهم:

- لقد رأيت أنه من الحسن أن أعلم ابني حرفة الحدادة.

وقال آخر:

- أما أنا فقد علمت ابني النحت على الحجر، وأنت يا سقراط أستاذ تمارس بنفسك هذه المهنة.
- وأنا أعمل طوال عمري بالزراعة وأريد أن يساعدني ابني في عملي.

حينئذ قال سقراط:

- كل إنسان في حاجة إلى العمل من أجل نفسه ومن أجل الآخرين، ولا تعارض بين الأمرين. أليس كذلك؟ إن كنا نستطيع القيام بكافة المهن فما الذي سيلزمنا أكثر من ذلك؟ إن كان من الضروري أن نُشيِّد معبدًا أو منزلًا، سنذهب إلى مَن يعمل بالأحجار وكذلك إلى النجار. وإن كان من الضروري أن نصنع قوارب جديدة فسنذهب إلى النجار، ولكن إن كان من الضروري أن يعيش الزوج مع زوجة أخرى، والابن مع أب بخيل، والشقيق مع شقيق غاضب على الدوام، والجار مع جار آخر شرير، وصاحب المنزل مع ضيف متكبر، والإنسان مع

آخر غريب، فما المهنة التي نحتاجها؟

أجاب واحد:

- ولكن لا توجد مهنة يمكن أن تساعدنا في مثل هذه الأمور. كل ما نحتاجه حينها هو إنسان عادل.

وأجاب آخر:

- يمكن أن يكون هذا الإنسان نحاتًا للأحجار أو نجارًا أو طبيبًا.

وقال ثالث:

- هذا عمل يتوجب على كل إنسان صالح أن يقوم به.

وقال رابع:

- هذا يعني أنه يتوجب على كل إنسان بالإضافة إلى إتقانه لمهنته أن يفهم كيف يتوجب عليه أن يعيش مع الآخرين.

فقال سقراط:

- لقد توصلنا إذنْ إلى أنه يتوجب على كل إنسان أن يعرف شيئًا آخر بالإضافة إلى إتقانه لمهنته.

قال واحد:

- إنَّ هذا يُمنح للمرء ولا يكتسبه بنفسه، فواحد يمكنه أن يفهم ذلك، وآخر لا.

وقال آخر:

- هذا أمر لا يمكن للإنسان أن يتعلمه كما يتعلم الحرفة.

فسأل ثالث:

- ولكن كيف يمكن للمرء أن يتعلم ذلك؟

أجابه رابع:

- هذا أمر لا يمكن للإنسان أن يتعلمه.

حينئذ قال سقراط:

- أمر عجيب! ما هو مستحيل على الإنسان أن يتعلمه هو أكثر ما يحتاج إليه! قُل لي ما الذي تحتاج إليه أكثر: زوجة جيدة أم حذاء جيد؟

- أنا على استعداد أن أحيا عمري كله حافي القدمين إن وُهبت فقط أن أعيش في وفاق دائم مع زوجتي.

- وما الأسوأ: أن تتنازع مع أبيك أم ألَّا ترتدي ثوبًا باهظ الثمن؟

- يمكنني بالطبع أن أتخلى عن أي ثوب إن وُهِبت فقط أن أحيا في وئام مع أبي.

- وما الأشد وطأةً: حُمَّى المرض أم ألَّا يحبك الناس؟

- لا شيء أسوأ من عدم محبة الناس لك.

- نستنتج من ذلك إذنْ أن هذا هو أهم شيء للمرء، أهم حتى من الحذاء والثياب والدواء، وهو أمر يمكن للجميع أن يدركوه، وهو أهم وأغلى شيء للإنسان وفي الوقت ذاته لا يمكنه أن يتعلمه. يمكن للإنسان أن يتعلم عن النجوم والحساب والزرع،

لكن لا يمكنه أن يتعلم كيف يمكنه أن يحيا مع الناس، أليس كذلك؟

أجابوا سقراط قائلين:

- نعم... لا بد وأن هناك أمرًا ما خاطئًا.

فقال سقراط:

- أنا أفكر معكم في الأمر. لقد عاش أناس قبلنا، فلماذا لم يقولوا لنا شيئًا عن ذلك الأمر؟ هناك نقوش على المعبد، فُترى ماذا تقول؟ لقد كتبوا هذه الكتابات على جدران المعابد منذ زمن طويل، فما الذي يمكننا أن نجده فيها بخصوص الطريقة التي يجب أن نعيش بها وسط الناس؟

أجابوا سقراط:

- مكتوب عليها: «اعرف ذاتك»، لكنها لم تذكر شيئًا عن الكيفية التي يجب أن نعيش بها مع الناس.
- ربما ما قالوا عن ذلك الأمر تلك المقولة: «اعرف ذاتك». ربما إن عرفنا أنفسنا، سنعرف كيف يجب أن نسلك بين الناس.

حينئذ قال واحد من الناس:

- اشرح لنا ذلك يا سقراط.
- أنتم تعرفون أني لا أستطيع أن أشرح شيئًا. كل ما يمكنني إياه أن أسأل، وأنتم تجيبون بأنفسكم. ها هي الثيران تحمل العنب، لكنكم تقولون لي: مَن يعرف الثيران ومَن يعرف العنب؟ هل

هو الشخص الذي يأكل لحم البقر ويشرب الخمر، أم أنه ذلك الشخص الذي يعرف كيف يقود الثيران وكيف يزرع الكروم؟

- بالطبع الشخص الثاني.
- ولكن كي يتمكن إنسان من قيادة الثيران بطريقة حسنة، ومن زرع الكروم جيدًا، ما الذي يحتاج إلى معرفته؟
- عليه أن يعرف متى يُطعم الثيران ومتى يحرث الأرض ومتى يوثق الثيران بإحكام.
- وكي يقوم بذلك عليه أن يعرف ما الذي تحتاج إليه الثيران وما الذي تحتاجه الكروم... أليس كذلك؟ أليس الأمر كذلك مع النفس؟ سنعرف أنفسنا حينما نعرف ما الذي تحتاجه نفوسنا بالضبط. هل نعرف ما الذي نحتاجه حقًّا؟

فأجاب واحد:

- بالطبع نعرف ما نحتاجه حقًّا... كيف لا نعرف ذلك؟!

وقال آخر:

- ما من إنسان لا يعرف ما الذي يحتاجه حقًّا.

فسأله سقراط:

- ما الذي تحتاج إليه إذنْ؟
- أنا في حاجة إلى الكثير، ولكن أكثر ما أنا في حاجة إليه هي الثروة، فإن حصلت على الثروة يمكنني أن أنال كل شيء آخر.

وقال آخر:

- إن سألوني يا سقراط عن ذلك لما قلت الثروة؛ بل السلطة على الناس. إن نلت السلطة، سأنال الثروة.

وقال ثالث:

- أما أنا فلست في حاجة لا إلى الثروة ولا إلى السلطة. كل ما أنا في حاجة إليه هو أن أعيش ميسور الحال، وأدرس العلوم، ولا يعوقني أحد أو يمنعني عن فعل ذلك.

وقال رابع:

- أما أنا فكل ما أحتاجه هو أن أكون مُكرَّمًا بين الناس وأن يوقروني.

حينئذ قال سقراط:

- ما هذا الذي أسمعه؟ حينما سألت ما الذي تحتاجه الثيران والكروم قال الجميع الأمر ذاته، والآن عندما سألت ما الذي يحتاج إليه الإنسان، قال كل منكم أمرًا مختلفًا. أنتم تدركون الآن أننا لا نعرف أنفسنا حقًّا؛ لأن معرفة الذات تعني معرفة ما يحتاج إليه الإنسان بالضبط، ولذلك كان من المفترض أن يتفق الجميع حول ذلك. أنت قلت إن أهم ما تحتاج إليه هي الثروة. سنقول إننا جميعًا متفقون معك، وإننا جميعًا في حاجة إلى الثروة، ولكن كيف نقسمها فيما بيننا؟ هل سنوافق جميعًا على أن نقتسم كل شيء بالتساوي؟

أجاب الأول:

- بالطبع لا، فإن قسَّمناها بالتساوي فلن تكون ثروةً إذنْ!

قال سقراط:

- لذلك لا يمكننا أن نتفق معك. هل يمكننا أن نتفق إذنْ بشأن السلطة؟ إن كنتَ في حاجة إلى السلطة، وكذلك أنا في حاجة إليها، فكيف يمكن إذنْ لأحدنا أن يتسلط على الآخر؟

أجاب الآخر وهو ينفجر في الضحك:

- من المستحيل إذنْ أن نقتسم السلطة فيما بيننا.

فقال سقراط:

- إذنْ يستحيل أيضًا أن نقتسم السلطة، (وتوجه للثالث بالحديث): دعنا إذنْ نفحص رغبتك. تقول إن كل ما أنت في حاجة إليه هو أن تعيش ميسور الحال وتدرس العلوم لأنك تحبها. أما أنا ففي حاجة لأن أعزف على المزمار. أنا أحب ذلك. أريد أن أتناول الطعام والشراب وقتما أشاء، وكذلك أن أعزف على المزمار وأن أستمع إلى مقطوعات موسيقية جميلة ولا يزعجني أحد. ماذا إن عشت معك؟ كيف يمكنني حينها ألا أزعجك؟ وعندما تبدأ في إنشاد الشِّعر بصوت عال، كيف يمكن ألا تزعجني؟ ولنفترض أننا تفرقنا، المصيبة كلها تكمن في الآتي: مَن الذي سيعولنا؟ أنت لن تُعِدَّ شيئًا لأنك تحب العلوم، وأنا لن أعد شيئًا لأني أحب العزف على المزمار. تقول: سيُعد لي العبيد

كل شيء. ولكن ماذا إن كان العبيد هم أيضًا يحبون العزف على المزمار وحساب عدد النجوم في السماء؟ كيف سيكون الوضع حينها إذنْ؟ ما تقوله لن يصلح، فما أنت في حاجة إليه ليس الجميع في حاجة إليه. وبناء على ما سبق، فنحن لا نعرف بعد الإنسان فعلًا.

قال الرابع:

- وماذا عما قلته أنا يا سقراط؟

- حسنًا... لقد قلت ما هو أقرب منهم جميعًا إلى الصواب. لقد قلت إنك تريد أن يوقرك الناس جميعًا. هذا صحيح، وكل إنسان في حاجة إلى ذلك. أنت في حاجة إلى أن أبجلك وأنا في حاجة إلى أن تبجلني. الأمر كذلك مع الآخرين، ولكن كيف يمكنك أن تُجبر الناس على تبجيلك؟

قال واحد من الحاضرين:

- هذا أمر صعب.

فقال سقراط:

- نعم... إنه أمر صعب حقًّا، لكن هذا هو لب الموضوع فعلًا. كل ما تقولونه يمكن تلخيصه في أمر واحد؛ أن يسدي الناس الخير لنا، وألا يزعجونا وأن يتركونا نعيش في سعادة. أليس كذلك؟

أجابه الجميع:

- بالضبط.

- لقد قلت إنك في حاجة إلى ثروة، وأنت قلت إنك في حاجة إلى السلطة، وأنت قلت إنك في حاجة إلى أن تعيش في حرية لتدرس العلوم، وأنت قلت إنك في حاجة إلى التبجيل. كل ما تريدونه ألَّا يقوم الناس بإزعاجكم وأن يسدوا إليكم الخير، وهذا ما يريده الآخرون أيضًا جميعًا، وهذا يعني أنه يجب ألا يضر خيرك خير الآخرين. تحدثنا في البداية عن الثيران والكروم. إن قلت أن الثور في حاجة للرعي للارتواء بالماء، فهذا لا يعني أنه في حاجة إلى أن يدوس البئر، وبالتالي يضطر الآخرون إلى شرب ماء موحل، وهذا لا يعني أنه سيدوس بأقدامه كافة الزروع، فيأكل الآخرون طعامًا متسخًا. إن قلت إن الكرمة في حاجة إلى مساحة من الأرض وفي حاجة منك إلى أن تحفر حولها، فأنت لا تعني بذلك أن كرمتك تقتضي منك أن تقطع كافة الأغصان التي لجيرانك وتحفر حولها. هكذا هو الأمر أيضًا مع الناس. إن كنا نعرف الإنسان حقًّا وما هو في حاجة إليه، لعرفنا ما لا يجب أن نفعله له. لا يجب أن نقوم بأي شيء يزعج أو يضر بالآخرين. أليس كذلك؟

وافق الجميع على ما قاله سقراط.

- هذا ما نعرفه عن الإنسان وما يجب أن يقوم به كل إنسان. جميعنا نريد أن يسدي الآخرون إلينا الخير، ولكن إلى مَن نُسدي نحن الخير؟

- إلى الناس.

- ومَن نحن؟

- نحن أيضًا أناس آخرون. أهذا ما علينا أن نفعله؟

- علينا أن نسدي الخير للآخرين. هذا ما اتفقنا عليه. لقد سألنا أنفسنا وقلنا: مَن نحن؟ ولقد أدركنا أنه كي نتوصل إلى إجابة هذ السؤال علينا أن نعرف ما نحن في حاجة إليه تحديدًا، ثم أخذنا نُحلِّل ما نحن في حاجة إليه، واتفق الجميع في النهاية على أننا في حاجة إلى الآتي: أولًا ألَّا يقوم الناس بإزعاجنا أو الوقوف في طريقنا. ثانيًا: أن يُسدي الناس الخير إلينا. وكي يسدي الناس الخير إلينا علينا بدورنا أن نسدي الخير إليهم. هذه هي بداية التعليم الذي يتوجب على كل إنسان أن يدركه.

قال واحد من الحضور:

- حسنًا، لكننا لا يمكننا دائمًا أن نعرف ما الذي يمكن أن يزعج الآخرين، وما الخير وما الشر.

أجابه سقراط:

- أنت على حقٍّ. نحن كثيرًا ما نخطئ في ذلك. كذلك يخطئ كثيرًا المقبلون على تعلم حرفة الحدادة أو صناعة الأحذية، ولكن الصُّنَّاع الخبراء يعلمونهم ما تعلموه بأنفسهم وما تعلموه من معلميهم هم أيضًا. الأمر على هذه الشاكلة معي أنا أيضًا، فأنا تعلمت بعض الأمور الضرورية بنفسي، وأنا أُعلِّم الآخرين

الآن ما أعرفه وما تعلمته من المعلمين الآخرين وما يقوله لي صوت الله الذي يتحدث داخل روحي. كل إنسان يمكنه أن يسمع هذا الصوت في داخله إن أنصت السمع. إن أنصت كل إنسان السمع فسيتعلم من هذا الصوت وكذلك من المعلمين، فالناس لم يُتركوا دون إرشاد في أكثر الأمور أهميةً، وبما أن هناك كثيرًا من البشر، فعليهم أن يتعلموا إذنْ كيف يمكنهم أن يعيشوا سويًّا، وداخل كل منهم ذلك الصوت الذي يعلمه. حسنًا أن يتعلم الإنسان أي شيء، ولكن أكثر ما يلزمه تعلمه هو أن يتعلم كيف يعيش دون أن يضايق الناس، وكيف يُسدي إليهم الخير.

## -١٠-

## محاكمة سقراط

هكذا كان سقراط يُعلِّم، وكان لديه كثير من الأصدقاء والتلاميذ التابعين، وكذلك كثير من الأعداء. وكيف لا يكون لديه كثير من الأعداء؟ لقد كانت تعاليم سقراط شديدة الوضوح والمباشرة، ولذلك لم يحبها كثير من الأغنياء. لقد علَّم سقراط قائلًا إن عدم العمل أمر مخزٍ، ومحض كسل، وإن الله يرسل خيره الحقيقي للعاملين، وإن الأغنياء يعيشون حياة كسل وبطالة ويتيهون فخرًا بها. لقد علَّم سقراط أن الإنسان الصالح لا يفكر كيف يمكنه أن يعيش بترف، بل كيف يمكنه أن يعيش بطريقة عادلة، وأن الطائشين فقط هم مَن يُكرِّسون حياتهم

بأكملها لتكديس الثروات، بينما كان الأغنياء لا يفكرون في شيء سوى الربح، ولا يرون سعادة للإنسان سوى في الثروة والترف.

قال أعداء سقراط فيما بينهم: «كم هو مزعج هذا المدعو سقراط! الشعب لا يستمع سوى لتعاليمه. إنه يُهيِّج علينا أبناءنا. إنهم يولونه ثقة أكبر من تلك التي يولونها لنا». ثم قرَّر أكثر أعداء سقراط شرًّا أنه يجب التخلص منه؛ لأنه لا يفعل شيئًا سوى أن يحول بين الناس وبين حياة مستهترة والتمتع بكل خيراتها. قالوا لبعضهم البعض: «علينا أن نتصيد له شيئًا ما يمكن أن نجلبه بسببه إلى المحاكمة».

ثم استقروا على أن يحاكموه بتهمة عدم الاعتراف بالآلهة وإفساد الشعب.

قالوا لسقراط إنه مجرم، وإنه سوف يخضع للمحاكمة. شعر تلاميذ سقراط بمرارة شديدة عندما علموا ذلك؛ لأنهم كانوا يعرفون جيدًا أن تعاليمه لا تضم شيئًا سيئًا من أي نوع، وأن معلمهم لم يرتكب شرًّا على الإطلاق. اجتمعوا سويًّا، وسألوا سقراط:

- فكرْ مليًّا يا معلم فيما ستقوله في المحاكمة دفاعًا عن نفسك.

وقال له أحد التلاميذ الأثرياء:

- إن كنت شديد القلق والانزعاج ولا تعرف ما يتوجب عليك أن تقوله في المحاكمة، فاسمح لي أن أصطحبك إلى أحد المعارف. إنه ماهر جدًّا وسيكتب لك كل ما يتوجب عليك أن تقوله في المحاكمة. سوف تقرؤه في المنزل، ثم تقوله بعد ذلك

في المحاكمة للقضاة، ولا بد أنهم سوف يبرئونك.

أجاب سقراط تلاميذه قائلًا:

- اهدؤوا يا رفاقي. لن أقول شيئًا أُدافع به عن نفسي. حياتي نفسها هي ما تدافع عني.

فقال له حينها تلميذه إرموجين:

- ألا تعرف يا سقراط كيف تُؤثِّر الخطب الرنانة والأحاديث المعسولة في المحاكمات؟ ألم يحدث من قبل أن برَّر القضاة مذنبين عرفوا كيف يدافعون عن أنفسهم بحذق، وأدانوا أبرياء لم يستطيعوا إقناعهم والدفاع عن أنفسهم؟

قال سقراط:

- دعهم يحاكمونني على كل ما فعلته في حياتي. لست خائفًا من شيء. أنا أشعر داخل قرارة روحي بإلهام إلهي يقول لي إنه قد حان موعد موتي. لقد ظللت حتى هذه اللحظة أنعم بالقوة التي جعلتني أمسك عن فعل الشر، وأسدي الخير للآخرين، لكني الآن قد شخت للغاية، وأخشى أن يصيبني الضعف والوهن، ليس فقط في جسدي، بل في روحي أيضًا. من الأفضل لي أن أموت.

واستُدعي سقراط إلى المحاكمة. تجمع أكثر من خمسون قاضٍ لمحاكمة سقراط. جاء متهموه ووصل هو الآخر إلى المحاكمة. انعقدت المحاكمة في ميدان المدينة، وعادة ما كان يجتمع عدد كبير

من الناس لحضور المحاكمات، وهكذا كان الأمر أيضًا في محاكمة سقراط.

جاء متهمو سقراط، وقالوا:

- إن سقراط مذنب؛ لأنه لا يعترف بآلهتنا ويُبشِّر بإله جديد.

أجاب سقراط عن ذلك قائلًا:

- أيها القضاة... أيها المواطنون، لقد عشت في أثينا تسعة وستين عامًا، وكانت حياتي على مرأى من أعين الجميع، فقد علَّمت في الميادين وفي المعابد، فإن سمع مني أحد شيئًا يشي بالكفر أو رأى أني ارتكبت شرًّا ما فليقل رجاءً.

صمت الجميع. أكمل سقراط:

- أنتم تعتقدون أنه كي نعرف إرادة الآلهة فعلينا أن نلجأ إلى العرافة المقدسة، وكل ما قلته أننا يمكننا أن نعرف الإرادة الإلهية أيضًا بالاستماع إلى الصوت الكامن داخل أرواحنا؛ لأنه ينقل لنا هو الآخر الصوت الإلهي.

ولم يجيبوا عن هذا أيضًا بشيء. ثم نهض متهمو سقراط ثانية، وقالوا:

- إن سقراط مذنب أيضًا؛ لأن تعاليمه تُفسد الشباب.

أجاب سقراط عن ذلك قائلًا:

- أيها المواطنون، لقد علَّمت أبناءكم ما يجب أن يعرفه جيدًا كل إنسان. لقد علَّمتهم إدراك صوت الله، وما هي الحكمة

وما هي الحماقة، وما هي الحقيقة وما الكذب، وما هو الخير وما هو الشر. لقد قلت للكبار والصغار على السواء ألا يسعوا خلف الثروة والمجد، وألَّا يفكروا في الجسد قبل كل شيء آخر ويزيدوا من تدليله؛ بل أن يفكروا قبل كل شيء في الروح. فكروا كيف يمكنكم أن تجلبوا المنفعة للآخرين، وكيف تعيشون حياة صالحة. هذا ما كنت أعلمه وهذا ما ألهمني به صوت الله، وإني على استعداد للموت من أجل هذا التعليم لا مرة واحدة؛ بل ألف مرة.

صمت سقراط ولم ينبس متهموه ببنت شفة. حينها قال سقراط:

- لا أستطيع أن أقول شيئًا آخر أبرِّر به نفسي. أعلم أن الكثيرين يلقون خطبًا طويلة بهدف استدرار شفقة القضاة، ويأتون بأقاربهم إلى المحكمة حتى يستميلوا قلوب القضاة، لكني لا أفعل ذلك. السبب في ذلك ليس أني لا أجد أحدًا يأتي من أجلي، فأنا لست مولودًا من حجر ولا من شجر... لديَّ أقارب، ولديَّ زوجة وأطفال وكذلك أصدقاء مقربون. لكني لم أستدعهم كي يأتوا إلى هنا ويطلبوا منكم أن تبرئوني؛ لأني أجد هذا يجلب إليكم الخزي أيها القضاة. عليك أن تنظروا في أمر إدانتي أو تبرئتي ليس بدافع من الشفقة؛ بل بدافع من الرغبة في تحقيق العدالة. حيث توجهكم ضمائركم وتراعون القوانين.

أخذ القضاة يتباحثون فيما بينهم. أعد أعداء سقراط المحكمة من أجله، وكانوا كثيرين من بين القضاة، ورغم ذلك قرَّر ما يقرب من

نصف القضاة أن سقراط غير مذنب في شيء. ومع ذلك تغلب عليهم المعارضون، وقال القضاة:

- سقراط مذنب.

قال دائنوه:

- إنه مذنب، ومستوجب الموت.

استمع سقراط بهدوء إلى ذلك، وقال للقضاة:

- إن مَن يدينونني يطالبون بموتي، ولكن القوانين تتيح لي عقوبات أخرى غير الموت، لذا اسمعوني جيدًا. كان بإمكاني أن أطلب السجن مدى الحياة بدلًا من الإعدام، ولكن لماذا أحافظ على حياتي؟ لن تكون ذات فائدة للآخرين، وقد أصبحت عبئًا ثقيلًا فوق كاهلي. كان بإمكاني أن أطلب عقوبة النفي خارج البلاد بدلًا من الموت، ولكن كيف يمكن لشيخ مثلي أن يطوف خارج بلاده؟ يسمح لي القانون أيضًا أن أدفع غرامة كبيرة مقابل الحفاظ على حياتي، لكني لا أملك المال، ولكن أصدقائي وتلاميذي مثل أفلاطون وكريتو[٧٠] وآخرون يمكنهم أن يدفعوا لي مهما طلبتم. أتوافقون على ذلك أيها القضاة المواطنون؟

(٧٠) كريتو هوالاسم الذي أُطلق على حوار للفيلسوف الإغريقي أفلاطون، وهو محادثة بين سقراط وصديقه الثري كريتو بشأن العدالة والظلم والرد المناسب على الظلم. يعتقد سقراط أن الظلم لا ينبغي أن يجابه بالظلم، ويرفض عرض كريتو لتمويل هروبه من السجن. يحتوي هذا الحوار على بيان قديم لنظرية العقد الاجتماعي للحكومة.

لم يجب القضاة بشيء، لذا قال سقراط:

- إن كنت قد شعرت أني مذنب حقًّا، لكنت على استعداد لتقبل أقسى عقوبة، لكن ضميري صافٍ. إني لم أُسْدِ الشر لأحدٍ، وقد خدمت الوطن بشرف، وكان من المفترض أن تمنحوني مكافأةً مقابل الفائدة العامة التي قدمتها للمجتمع، ويجب أن تكون هذه المكافأة تحديدًا هي أن يتكفل المجتمع بإعالتي حتى بقية حياتي، لكنكم أيها المواطنون بدلًا من ذلك دعوتموني إلى المحاكمة، وصدَّقتم ما قاله عني أعدائي ونسيتم كل ما قدمته لكم.

امتعض القضاة، وقالوا لبعضهم البعض:

- ماذا سنفعل إن فكَّر سقراط في إلقاء اللوم علينا؟ نحن نعرف أن هذا ما نحن عليه فعلًا دون حتى أن يقول لنا ذلك.

حينها قال أعداؤه:

- أتجرؤون على الاستماع إليه؟ أما زلتم تريدون أن تصبحوا تلاميذه؟

وهمس القضاة:

- لقد حان الوقت لإنهاء المحاكمة.

ولم ينتظروا طويلًا، ثم أعلنوا:

- لقد حكمنا على سقراط بالموت. يتوجب عليه أن يتجرع السم.

سمع سقراط الحكم، ولم تتغير ملامح وجهه، وقال لقضاته:

- لست حزينًا على ما سيلحق بي، لكني حزين على أنكم قد ألحقتم الخزي بأنفسكم وبالشعب بإدانة رجل بريء. أسرعوا أيها المواطنون وتخلصوا من هذا الإنسان المزعج الذي لا يخشى قول الحقيقة أمام أحد. عبثًا تسرعون... الموت يقترب مني على كل الأحوال، فأنا شيخ كهل. أطلب منكم أمرًا واحدًا فقط: عندما يكبر أطفالي علِّموهم ما قد علمتكم إياه. إن لاحظتم فيهم ميلًا إلى الثروة والكرامة، فعليكم أن تلوموهم كما قد لمتكم أنتم وأبناءكم على ذلك. هكذا ستُسدون لي أغلى وأثمن شيء. والآن وداعًا... لقد حان الوقت لنفترق... أنتم ستظلون على قيد الحياة، وأنا سأموت. أما مَن منا سوف يكون في حال أفضل، فهذا شيء الله وحده يعلمه.

## -١١-

## سقراط في السجن

عادة ما كانوا يعدمون المحكوم عليهم بالإعدام في اليوم التالي للمحاكمة، ولكن محاكمة سقراط تمت في عشية أيام عيد، وكان يعتبرونها خطيئة كبيرة أن ينفذوا في هذه الأيام حكم إعدام. قضى سقراط هذه المدة في السجن. هناك قضى الثلاثين يوم الأخير من حياته في انتظار الموت. طوال هذه المدة كان تلاميذه يزورونه، وواصل تعليمهم، وحينما كان ينفرد بنفسه كان ينظم القصائد. لم يكن يشعر بالكآبة أو بالجزع من الموت.

اقتربت أيام العيد من الانتهاء. كان تلاميذه يشعرون بالمرارة حينما يفكرون أنهم قريبًا سيُحرمون من معلمهم الغالي، وقالوا فيما بينهم: «أليست هناك طريقة يمكننا بها أن ننقذه من الموت؟».

قرروا أن يُقدِّموا رشوة لحارس السجن، وأن يُخرِجوا سقراط ليلًا من السجن، ويُهرِّبونه خارج البلاد.

تبقى يومان فقط على نهاية عطلة العيد، ولم يعد من الممكن أن يتوانوا في الأمر. تفرق التلاميذ في وقت متأخر من المساء، وكانوا قد قرَّروا أن يذهب كريتو في الصباح الباكر قدر الإمكان إلى معلمه سقراط ويتحدث معه في الأمر محاولًا إقناعه.

لم يتمكن كريتو من النوم في هذه الليلة. كانت فكرة أنه لا تزال هناك وسيلة يمكنهم بها إنقاذ المعلم الغالي من الموت تحرمه من النوم ولو حتى لإغفاءة بسيطة. ما إن أشرقت الشمس، حتى نهض وارتدى ثيابه وذهب إلى السجن. كان الحارس يعرفه، ولذلك سمح له بالدخول إلى سقراط.

كان سقراط لا يزال نائمًا. دخل كريتو إلى الزنزانة بحذر، وجلس على فراشه. لم يظل سقراط نائمًا مدة طويلة، بينما نظر كريتو إليه بتعجب وكان يتساءل في نفسه كيف يمكن لإنسان أن ينام بهذا الهدوء عشية إعدامه؟

عندما فتح سقراط عينيه ورأى كريتو اندهش للغاية، قال له:

- لقد تأخر الوقت للغاية. لماذا لم توقظني يا كريتو؟

أجابه كريتو:

- لا.. لا يزال الوقت مبكرًا للغاية، فلم تصعد الشمس بعد إلى كبد السماء. لقد شعرت بالدهشة من نومك الهادئ وسُررت من أجلك لأنك تستطيع أن تتناسى أثناء نومك ما حل بك من بلايا.... يمكنك أن تنسى الموت القابع في انتظارك. كنت دائمًا أشعر بالدهشة من هدوئك، لكني لم أتوقع ألا يفارقك هدوؤك في هذه الأيام المريعة.

ابتسم سقراط وقال:

- كم هي معرفتك قليلة بمعلمك! لكن قُل لي ما الذي أتى بك اليوم في هذا الوقت المبكر؟ بالتأكيد لم تأت فقط كي تشاهدني وأنا مستغرق في النوم.
- لا. أود أن أطلب منك طلبًا هامًّا... لست أنا وحدي، بل هو طلب من أتباعك الكثيرين.

هكذا بدأ كريتو حديثه بتردد. أما سقراط فقد أجابه بحماسة:

- قُل لي ما الأمر بسرعة.
- لقد قررنا أن ننقذك من الموت يا سقراط. لدينا وسيلة: يمكننا أن نُهرِّبك من السجن في المساء.

سادت القتامة على وجه سقراط، ونظر بحزن وصرامة إلى كريتو. حينها قال كريتو:

- استمع لي يا معلم. لقد تمت إدانتك ظلمًا. تذكر الخير الذي

لا تزال قادرًا على إسدائه للناس. أشفق على أطفالك... أشفق علينا، ووافق على الهرب. يمكننا أن نرشي الحارس ونُهرِّبك إلى الأراضي المجاورة. لديَّ معارف هناك، وسيوافقون بكل سرور على استقبالك هناك. سنُهرِّبك إلى هناك بصحبة أطفالك، وسيكبرون أمام عينيك، ولن يصبحوا يتامى. لدينا ما يكفي من المال. سأعطيك كل ما أستطيع. أنت تعلم أني ثري، وهناك تلاميذ آخرون قد أعدوا المال هم أيضًا من أجل إنقاذك؛ لأنك غالٍ علينا جميعًا. أتوسل إليك: وافقْ سريعًا. ليس لدينا وقت للتفكير، فلا يمكننا أن نقوم بالأمر سوى اليوم ليلًا، فهذه هي الليلة الأخيرة قبل تنفيذ الإعدام.

كان كريتو يتحدث بحرارة، والدموع تنهمر من عينيه، لكنه رأى ملامح الاعتراض على وجه سقراط. حينما أنهى حديثه قال له سقراط:

- أشكرك يا كريتو. أعلم أنك قد دبَّرت كل ذلك بدافع من مشاعرك النبيلة التي تُكنها لي. أعلم جيدًا أنكم جميعًا تحبونني وتقدرونني للغاية. لكننا لا يمكننا أن ننقاد خلف شعور واحد بعينه. سوف نلجأ إلى الخداع كي تنقذوني وسوف أنكث بكلمتي. لقد قلت في المحاكمة أني سوف أخضع للحكم، وأني على استعداد أن أعاني من أجل تعاليمي. لا يجب أن تدفعني أي أحزان أو آلام إلى التخلي عن موقفي ذلك. فلنفترض أنكم نجحتم في إخراجي حيًّا من السجن... حيًّا! لكني لن أعود هذا الإنسان الذي دخل سابقًا إلى هذا السجن،

بل سأصبح مخادعًا. أهذا ما تريدونه حقًّا؟

شعر كريتو أن سقراط على حق، لكنه لم يستطع أن يتخلى عن فكرة إنقاذه. قال:

- مَن يعرفك جيدًا، سيدرك أنك لست مخادعًا، فأنت لا تخدع سوى أولئك الأشرار الذين حكموا عليك ظلمًا. أما البقية فسيفرحون بخلاصك من الموت.

أجابه سقراط بصرامة:

- لا يا كريتو. لن أخدع أعدائي فقط، لكني بهذا سأكون قد خدعت كل الناس، وخنت ضميري. لقد أخذت أعلِّم طوال حياتي أنه لا يتوجب على الإنسان أن يسلك على نحو غير عادل، فإن سلكت أنا نفسي بهذه الطريقة فمَن يعود يصدقني ويصدق تعاليمي؟ صحيح أني سأغادر السجن وأهرب من أعدائي، ولكن إلى أين يمكنني أن أذهب من صوت ضميري؟ تخلَّ عن هذه الفكرة يا صديقي كريتو، ودعنا نعد أنفسنا بشجاعة لقبول القدر المحتوم.

فهم كريتو أنه لن يمكنه أن ينقذ معلمه، ومضى بحزن ليخبر بقية التلاميذ عن جواب سقراط.

-١٢-

## حديث سقراط الأخير

حلَّ يوم تنفيذ الحكم، وطبقًا للعادة تقرر تنفيذ الحكم قبل غروب الشمس. احتشد منذ الصباح تلاميذ سقراط عند أبواب السجن، وبكى كثيرون منهم بمرارة.

خرج حارس السجن، وقال لمن ينتظرون بالخارج:

- سينزعون الآن أغلال سقراط، وحينها سأسمح لكم بالدخول.

بعد ذلك بقليل فتحوا أبواب السجن. وجدوا سقراط على فراشه. كانت زوجته واقفة عند الفراش وهي تحمل ابنه الصغير. عندما شاهدت الزوجة تلاميذه يدخلون انتحبت قائلة:

- إنها المرة الأخيرة التي سيزورونك فيها يا سقراط... إنها المرة الأخيرة التي سيسمعونك فيها. إنه حديثك الأخير معهم.

انهارت المرأة المسكينة تمامًا، وبدأت تمزق شعرها، فطلب سقراط من تلاميذه أن يصطحبوها إلى المنزل. أراد أن ينهض لكن ساقيه كانتا متورمتين للغاية والألم ينبض فيهما من أثر الأغلال الثقيلة. أخذ يفركهما حتى شعر بقليل من التحسن. حينها قال لتلاميذه:

- انتبهوا يا أصدقائي... في قلب كل صنف من صنوف المعاناة يمكننا أن نجد العزاء قريبًا. هاتان القدمان عانتا من ألم الأغلال

الثقيلة، لكنهما الآن بكل خير! هكذا هو الأمر مع صنوف المعاناة. الآن يمكنني حقًّا أن أنهض.

تجمع التلاميذ حول معلمهم، وأرادوا أن يتحدثوا إليه وكذلك أن يستمعوا له، لكنهما كانوا يجدون صعوبة في التمتمة بكلمة ما وسط الدموع المنهمرة من أعينهم، ولم يستطيعوا أن يفكروا في أي شيء سوى في ساعة موت سقراط الرهيبة؛ في ذلك الفراق المرير، لكنهم لم يستطيعوا أن يتحدثوا عن ذلك. أدرك المعلم ما يعتمل في قلوبهم. قال لهم:

- أعلم أنكم تشعرون بالأسى صوبي... ليس فقط بالأسى؛ بل والهلع أيضًا. كيف يمكنني أن أعزيكم وأشجعكم؟ انظروا إليَّ. إني في تمام الهدوء ولا أشعر بالأسى، ولا شيء يخيفني. روحي هادئة ومطمئنة. ستنتهي حياتي داخل الزنزانة، محكومًا عليَّ بالإعدام. يعتبر الناس ذلك أمرًا شائنًا، ولكن هل يمكن أن يشعر المرء بالخزي من جراء معاناته من أجل الحقيقة، لا من أجل أمر مخزٍ من أي نوع؟ لقد افترى الناس عليَّ وأدانونني، لكني لا يمكن أن أشعر بالغضب منهم ولا بالكراهية. أنا أعرف أنهم قد قاموا بذلك بحماقة، فقد ألقيت اللوم عليهم ونبَّهتهم إلى أخطائهم من أجل خيرهم، لكنهم لم يفهموني، واعتبروا ذلك فعلًا شريرًا من ناحيتي. إنهم يتصرفون كأطفال لا يفهمون شيئًا. سأوضح لكم ذلك بمثال. فلنفترض أن أطفالًا مرضى جاءهم إنسان وحقق كافة أمانيهم، ثم جاءهم طبيب وحاول

أن يعالجهم من مرضهم. مَن في اعتقادكم سيحاول الأطفال إبقاءه معهم؟ بالطبع ذلك من سيحقق كافة أمانيهم، ولا بد أنهم سيحاولون التخلص من الطبيب. لا بد وأنهم كانوا سيقولون: «هذا الرجل يعذبنا، ويعترض طريقنا، ولا يتركنا نشرب ونأكل كما نشاء، ويصب في أفواهنا دواءً مريرًا، ويجرح أجسادنا ويكوي جلودنا. اطردوه... أفضل شيء يفعله هو ألا يعود إلينا». لم يستطع خصومي أن يفهموا مقاصدي مثلما لم ينجح الأطفال في فهم سلوك الطبيب.

وبعد أن قال سقراط ذلك توقف عن الحديث، ولاحظ أن كريتو يود أن يقول له شيئًا. قال كريتو:

- سقراط... أنت تدرك جيدًا أن كل كلمة تقولها غالية علينا للغاية، لكننا نرجوك أن تتوقف عن الحديث. أخبرنا السجَّان أنه إن تحدث امرئ في ساعته الأخيرة كثيرًا، فإن السم يعمل بشكل أبطأ، وسيكون على هذا الإنسان أن يتجرع المزيد منه.

أجابه سقراط قائلًا:

- اشكروا السجَّان على نصيحته يا أصدقائي، واسألوه أن يُعد مزيدًا من السم من أجلي. أنا على استعداد أن أتجرعه لا لمرة واحدة، بل مرتين وثلاثٍ إن تطلب الأمر ذلك. سيؤتي السم مفعوله حينما يحين وقته، وحتى يحل هذا الوقت دعونا نتحدث بهدوء. لا تزال هناك الكثير من الأمور التي أود أن أتحدث معكم عنه. اجلسوا بالقرب مني.

جلس سقراط على الفراش، وجلس تلاميذه من حوله كيفما استطاعوا. كان فيدو[٧١] هو أقرب الجالسين إليه. كان يتمتع بشعر جميل طويل، وكان سقراط يحب أن يمسده أثناء حديثه. في هذه المرة جلس فيدو على مقعد واطئ بالقرب من فراش سقراط، واستندت يدا سقراط فوق رأسه.

قال المعلم:

- آآه يا فيدو.. أين سيكون شَعرك الجميل غدًا؟

كان لدى اليونان عادة، وهي أن يمزقوا شعورهم علامة على الحزن، ويضعوه على مقبرة الفقيد الذي يبكونه. هذا ما ألمح إليه سقراط بقوله هذا، وقد نبَّهت هذه الكلمات التلاميذ إلى الحزن العظيم المرتقب، وانخرط بعضهم في البكاء.

حينها قال سقراط:

- يا أصدقائي، أنا لا أخاف الموت. ليس الموت أمرًا مريعًا، لكنه لعيش بجنون.

(٧١) فايدو أو فيدو المعروف أيضًا باسم «عن النفس»، هو أحد حوارات أفلاطون الكبيرة من فترته الوسطى، إلى جانب الجمهورية والندوة. ويصور حوار فيدو وفاة سقراط، وهو أيضًا الرابع والأخير بين حوارات أفلاطون والذي يفصل الأيام الأخيرة من حياة الفيلسوف، بعد يوثيفرو، الدفاع، كريتو.

## -١٣-

## موت سقراط

صمت سقراط، وترقب تلاميذه ما سيقول. قال المعلم:

- ومع ذلك الوقت يمر... لم يعد هناك متسع من الوقت. سأذهب لأغتسل حتى لا أزعج الآخرين بغسيل جثماني بعد أن أموت. انتظروني هنا... ابقوا معي حتى النهاية.

خرج سقراط ليغتسل، واصطحب معه كريتو، أما بقية التلاميذ فأخذوا يتحدثون عن حديث معلمهم الأخير بينما ينتظرونه، وعن موته، وكيف سيصبحون يتامى دون معلم يرشدهم في الطريق. حلَّ المساء، وسمح الحارس لزوجة سقراط وإحدى قريباته وأبنائه بالدخول إلى الغرفة حيث كان ينتظر التلاميذ معلمهم. كان أحد أبنائه بالغًا، بينما لا يزال الابنان الآخران صغارًا. بعدها دخل سقراط الغرفة سريعًا، وأخذ يودِّع الجميع. ارتفع بكاء النساء حتى طلب سقراط من تلاميذه أن يخرجوهن.

حينها قال التلاميذ لسقراط:

- قُل لنا رغبتك الأخيرة. هل تريد أن نوزع شيئًا ما من ميراثك على الأطفال بطريقة ما؟ سنقوم بكل سرور بما تريدنا أن نقوم به.

أجاب سقراط:

- ليس لديَّ أي شيء أُورِّثه إياهم. اسلكوا كما علمتكم... هذا كل ما أريده، وحينها ستعرفون ماذا عليكم أن تفعلوا لأطفالي.

سأل كريتو:

- وكيف تريدنا أن ندفنك يا سقراط؟

أجابه سقراط بسؤال آخر يحمل نبرة تأنيب:

- لماذا تسألني عن ذلك؟ ألم ترَ أن كل اهتمامي بجسدي طوال حياتي كان في حدود أن يقوم جسدي بخدمة روحي؟ ولكن عندما تفارق روحي جسدي، فلا يهمني ماذا سيفعلونه بجسدي.

جلس سقراط على فراشه، وحينما انتوى أن يبدأ الحديث مع تلاميذه، وجدوا الباب قد فُتِح ودخل ضابط شرطة إلى الزنزانة حاملًا معه أوامر المحكمة. قال:

- يا سقراط... عندما جئت إلى مدانين آخرين كي أعلن لهم أن موعد تنفيذ الحكم قد حان، وأنه يتوجب عليهم الآن أن يتجرعوا السم، واجهوني بالإساءات واللعنات. أنا لا أنتظر منك ذلك؛ لأنه لم يدخل إلى هذا السجن إنسان أكثر صلاحًا منك. لا تغضب مني أنا، بل من الذين تسببوا في الحكم عليك بالموت. أنت تعرف الآن لماذا جئت إليك... وداعًا... تجلَّد وتحمَّل ولا تجعل إرادتك تخونك، واعلم جيدًا أن الأمر ليس بيدي كي ألغي الحكم.

قال الضابط ذلك، وفارق المكان وهو غير قادر على منع الدموع من الانسلال من بين عينيه.

أجابه سقراط قائلًا:

- وداعًا... قُم بالأمر كما يتوجب عليك.

بعدها قال لتلاميذه:

- يا له من إنسان صالح! كان يأتي إليَّ كثيرًا إلى هنا ليتحدث معي. يا لشعوره المخلص بالأسى صوبي! والآن قد حان الوقت يا رفاقي. قولوا لهم أن يأتوا بالسم.

قال له أحد تلاميذه محاولًا إقناعه بالتريث:

- ولمَ العجلة يا معلم؟ لم تغب الشمس بعد. عادة ما ينتظر المدانون الآخرون بعد غروب الشمس ويتناولون الطعام ويشربون ويمكثون قليلًا مع أقاربهم. لا يزال هناك وقت!
- فليفعل الآخرون ما يشاؤون، فلا بد أن تمديد الحياة ولو أمدًا قصيرًا يعد أمرًا ثمينًا بالنسبة لهم. لقد انتهت حياتي، ولن يحول شيء بينها وبين نهايتها. نفذوا ما قلته لكم.

أشار أحد التلاميذ للحارس الواقف عند الباب، فمضى الحارس ليجلب السم.

بعدها دخل الحارس حاملًا في يده كأسًا، وقد صبُّوا بداخلها قطرات السم.

قال له سقراط:

- شكرًا لك يا صديقي. قل لي ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟

- بعد أن تتجرع السم عليك أن تسير قليلًا حتى تشعر بأن قدميك قد أصبحتا ثقيلتين، ثم استلق على الفراش؛ لأن ذلك يشير إلى أن السم قد بدأ مفعوله يؤتي أثرًا.

نهض سقراط دون أن تتغير ملامح وجهه، وتناول الكأس من الحارس وشرب السم كاملًا.

كان تلاميذ سقراط قد تمالكوا أنفسهم طوال اليوم، لكنهم في تلك اللحظة لم يستطيعوا تحمل المزيد، وانفجروا في النحيب. وحده سقراط مَن لم يفقد صلابته. حاول أن يثنيهم عن ذلك قائلًا:

- ماذا تفعلون يا رفاقي؟ لقد صرفت النساء والأطفال حتى لا أرى هذا الجبن، وتوقعت أنكم ستسلكون بطريقة أفضل منهم. أهكذا تستمعون لي؟

بعد تناول السم لم يتوقف سقراط عن ذروع الزنزانة ذهابًا وإيابًا كما قال له الحارس. ثم شعر بالثقل يراود ساقيه، فاستلقى على الفراش، وأحاط تلاميذه بفراشه.

اقترب الحارس وضغط بأصابعه بقوة على ساقيه سائلًا:

- هل تشعر هنا بألم؟

أجابه سقراط:

- لا.

ضغط الحارس بأصابعه على مواضع أعلى من ساقي سقراط، ولم

يشعر سقراط بشيء أيضًا.

قال الحارس للتلاميذ:

- هذا بسبب أن برودة الموت بدأت تتسلل إلى جسده، وستصعد إلى القلب وينتهي الأمر.

حينها قال سقراط:

- الحمد لله.. لقد بدأت في الموت يا أصدقائي.

اندفع التلاميذ صوب معلمهم وارتموا عليه وأخذوا ينادونه، لكنه لم يجبهم بشيء. استلقى دون حركة، ثم مرت رعشة بجسده، وتوقف فمه وكذلك عيناه عن الحركة. ها هو جسد المعلم المحبوب ساكن هامد أمام التلاميذ. انحنى أحدهم وأغلق عيني سقراط.

هكذا عاش ومات سقراط، لكن تعاليمه لم تمت أبدًا. واصل أفضل تلاميذه عمله الطيب، وعلَّموا الناس الفضيلة والحقيقة، ودوَّنوا تعاليم معلمهم الحكيم العظيم، ولقد عرفنا عن سقراط من كتاباتهم.

عاش سقراط قبل ظهور المسيح على الأرض بأربعمائة عام تقريبًا.

* * *

مكتبة الرافدين للكتب
الالكترونية
https://t.me/ahn1972